سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة



# هيميان الزاد إلى دار المعاد

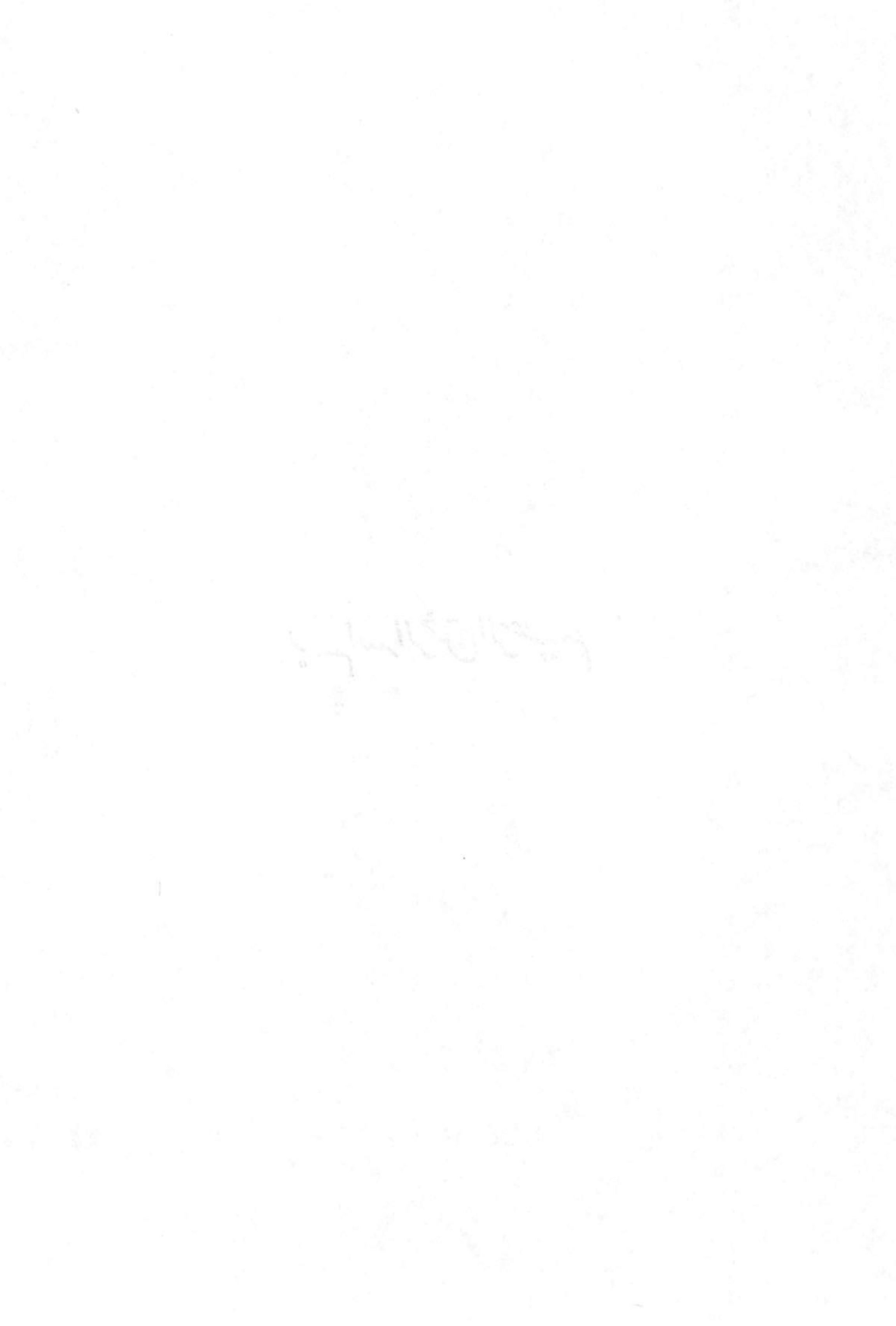
للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الاباضي المصعبي

## الجزء السابع

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م



بسم الله الرحمن الرحيم



الجزء السابع من التفسير الكبير المسمى « هيميان الزاد إلى دار المعاد »
للشيخ العالم الفقيه ، الجبهذة النبيه ، الذى بلغ من العلوم فى زمانه
مالم يلحقه فيها أحد من أقرانه من العلوم النقلية ، والمواهب
العقلية ، الشيخ محمد بن يوسف الوهبى الأباضى السجنى
المصعبى ، فإنه قد أتى فيه بالعجب العجاب ، من كل
معنى مستطاب من النكت الأدبية ، والمعانى
العربية ، لاسيما وقد أظهر فيه عقائد
أهل الاستقامة محتجا على أهل
الزيغ بالحجج القاطعـــة ،
بالحجج القاطعة والبراهين
الساطعة ، من الكتاب
والسنة وإجمــاع
المحققين من الأمة
كـــافأه الله
عن الإسلام
وأهله بنعمه
الـــوافرة
وآلائه
المتواترة
فى الدنيا
أو لآخرة
آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

قد أوقف سيدنا ومولانا الأجل الأكرم ، المحترم المعظم ، الهمام خليفة بن سعيد بن سلطان بن الإمام هذا الكتاب ، وهو تفسير القرآن العظيم المسمى « هيميان الزاد إلى دار المعاد » على طلبة العلم المتعلمين والراغبين فيه ابتغاء ما عند الله تعالى من الثواب ، وهربا من أليم العقاب ، وأنه قد أخذ عهد الله وميثاقه على من صار فى يده شىء من هذا الكتاب أن لا يبيعه ولا يهبه ولا يرهنه ولا يمتلكه ، وأن لا يمنعه من كان مستحقا للقراءة منه ، وأن لا يعطيه من هو غير مأمون عليه ، خوفا من ضياعه ، وإن احتاج إلى إصلاح فليصلحه من صار فى يده وأجره على الله تعالى وقفا مؤبدا صحيحا شرعيا لا يحال ولا يزال ولا يباع هذا الكتاب ، ولا يورث ولا يوهب ولا يرهن ، ولا يملك حتى يرث الأرض وارثها .

أشهد الله تعالى على ذلك وكافة المسلمين ، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم .

وكتب هذا عن أمره خادمه الفقير لله يحيى بن خلفان بن أبى نبهان الخروصى بيده فى ٧ من شهر محرم سنة ( ١٣٠٧ ) .

## بسم الله الرحمن الرحيم

( إنَّ الذِينَ اتَّخذوا العجْلَ ) إلهاً ( سَيَنَالهم ) يصيبهم ، هذا كلام من الله لموسى قبل أن ينالهم ، فالسين على حاله من الدلالة على الاستقبال ، لا بعد أن نالهم ، ولا لنبينا ، فضلا عن أن نحتاج إلى قول بعضهم : إن السين قد تأتى للاستمرار ( غَضَبٌ منْ ربِّهم ) وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم توبة ، فهو بمعنى العقوبة وإحلال النقمة فهو صفة فعل ، أو هو إرادته بهم ما يسوءهم وهو القتل ، أى ينالهم ما تضمنته هذه الإرادة فهو صفة ذات ( وذلةٌ فى الحياةِ الدُّنيا ) هى إسلامهم أنفسهم للقتل ، أو خروجهم من ديارهم بالقتل ، فإنهم إذا قتلوا فقد أخرجوا عنها ، ولا يعودون إليها ، وفى متعلقة بينال ، أو يتنازع فيها مع ما بعدها غضب وذلة ، وأما فى الآخرة فلا يصيبهم غضب ولا ذلة لتوبتهم .

هذا ما ظهر لى ، ثم اطلعت على أنه مذهب الجمهور ، وقال ابن جريج : المراد بهؤلاء من لم يتب فلم يسلم نفسه للقتل ، وبالغضب عليهم الغضب الذى يصيبهم فى الآخرة ، فيعاقبون بالنار ، والمراد بالذلة ما يصيبهم من الهوان فى الدنيا ، ففى متعلقة بالذلة ، ويجوز الوجهان السابقان فى التعلق ، فإن من يناله الغضب فى الآخرة فقد ناله أيضا فى الدنيا ، بمعنى أنه قد ثبت عليه وعدله وهو فى الدنيا .

وقال ابن عباس ، وعطية العوفى : إن هذا كلام من الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد اليهود الذين فى زمانه ، وعليه فنسبة اتخاذ العجل إليهم إما على طريق العرب فى نسبة فعل الأب للابن فى المدح والذم ، وإما على حذف مضاف أولا وآخراً أى إن عقاب الذين اتخذوا العجل سينالهم ، أو إن الذين اتخذوا العجل سينالهم عقابهم ، فقال

ابن عباس : الغضب عـذاب الآخرة ، والذلة الجزية ، وقال عطيـة : الغضب والذلة ما أصاب بنى النضير وقريظة من القتل والإخراج مـن الديار والأموال ، وقيل : الغضب القتل والإخراج ، والذلة الجزية •

( وكَذَلِكَ نَجْزِى المفْتَرِين ) الكاذبين على الله ، ولا فرية أعظم من قول السامرى : هذا إلهكم وإله موسى ، وقيل : ولعله لم يفتر مثلها أحد قبله ولا بعده ، قال أبو قلابة ، ومالك بن أنس ، وسفيان بن عيينة : الغضب والذلة جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة ، وعابد غير الله مفتر عدواً لله ، والمبتدع فى الدين مفتر عليه ، واستدلوا بالآية •

( والَّذِينَ عَمِلوا السَّيِّئاتِ ) شركا أو نفاقا أو صغائر ( ثمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها ) أى من بعد عملها ( وآمَنُوا ) اشتغلوا بالإيمان وما يقتضيه الإيمان ، كالإخلاص وغيره من الأعمال الصالحات ، والاعتقادات اللائقات ، ومنها أن يعتقد أن الله يقبل التوبة ويغفر الذنب •

واعلم أن الاشتغال بالإيمان وما يقتضيه يعم دخول المشرك فى التوحيد والعمل الصالح ، ويعم دوام الموحد على توحيد ، ويعم إحداثه الصالحات إن لم تكن قبل ، والدوام عليها إن كانت هذا تحقيق المقام ، وقد يقال : إن فى آمنوا تأكيدا لتابوا من حيث إن التوبة ولو كانت عن ذنب ، والإيمان التصديق بالله ، لكن التوبـة تقتضى العمل بمتضـمن الإيمان ، وتستلزم الإيمان ، ولذلك صح تأخير ذكر الإيمان عنها ، وأيضا الواو لا ترتب فى العطف ، وتحتمل الحالية ، أى وقد آمنوا ، أو بدون تقدير قد ، ويجوز أن يراد بالذين عملوا السيئات المشركون ، والسيئات شركهم ، فإنه متعدد ، أو شركهم ومعاصيهم مطلقا فيدخل غير المشرك بالأولى •

( إنَّ ربَّكَ مِنْ بَعْدِها ) أى من بعد عملها ( لغفورٌ ) لأجل التوبة منها ، ويجوز عود الضمير للتوبة المستفادة من تابوا ( رَحيمٌ ) منعم غاية الإنعام بعد الغفران ، ولا بشارة كهذه حيث كانت التوبة ماحية للشرك فما دونه ، وأما الطمع فى غفران كبائر النفاق والصغائر مع الإصرار عن التوبة ، فطمع عقيم لا ثمرة له إلا الافتضاح .

( ولمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الغَضَبُ ) أى سكن باعتذار هارون أو بتوبتهم أو بهما ، شبه سكون الغضب بعد هيجانه بالسكوت بعد التكلم ، بجامع أنه كلام بعد وجود وإمساك بعد شروع ، فسمى السكون باسم السكوت ، واشتق سكت بمعنى سكن على طريق الاستعارة التبعية التصريحية ، أو شبه الغضب بإنسان متكلم يقول : قل لقومك كذا ، وألقى الألواح وجرّ أخاك إليك برأسه ولحيته ، ثم ترك القول ، وذلك تشبيه مضمر على طريق الاستعارة المكنية والسكوت رمزا واستعارة تخيلية ، فعلى الوجه فقد جعل الغضب كالاغراء لموسى والأمر له بإسكان الميم ، وعلى الثانى بقسميه جعل كالمغرى له ، والأمر بالمد وكسرالميم ، ولا يخفى ما فى ذلك من المبالغة والبلاغة ، مع أن الاستعارة مطلقا مبنية على المبالغة بجعل المشبه من جنس المشبه به مبالغة وادعاء .

هذا ما ظهر لى فى الآية ، ثم رأيت بعضه لجار الله ، والقاضى ، وشيخ الإسلام ، والسكوت مصدر لسكت بمعنى ترك التكلم ، ولسكت بمعنى سكن ، وقال الزجاج : إن مصدر هذا سكت بفتح السين وإسكان الكاف ، يقتضى أن سكت بمعنى سكن حقيقة وفعل على حدة ، وقيل ذلك من القلب ، أى سكت موسى عن الغضب ، كقولك : أدخلت الخاتم فى أصبعى ، والأصل أدخلت أصبعى فى الخاتم ، وحكاه بعضهم ، وتوهم أنه لا استعارة فيه ، وأنه حقيقة ، وليس كذلك ، بل هو من الاستعارة ،

فإن الغضب ليس مما يسكت عنه ، وإنما يسكت عن الكلام ، وقرىء : ولما سكت بالتشديد والبناء للمفعول ، وفى مصحف حفصة : ولما أسكت بالهمزة والبناء للمفعول ، وفى مصحف ابن مسعود : ولما صبر ، وفاعل ذلك الله أو هارون باعتذاره ، أو القوم بتوبته أو هما ، قال النقاش : وفى مصحف أبىّ ولما اشتق عن موسى الغضب أى زال عنه ، وقرأ معاوية بن قرة : ولما سكن ، وليس فيهما المبالغة والبلاغة المذكورتان .

( أخَذَ الألواحَ ) ما كسر وما لم يكسر ، وقال الإمام الرازى : هذا يدل على أن الألواح لم تكسر ، ولم يرفع من التوراة شىء اه . المشهور أنه أنكسر بعضها كما مر ورفع ما فى المنكسر ، وقيل : ذهب بالانكسار ولم يتبين ( وفى نُسْخَتِها ) أى ما نسخ فيهـا ، أى كتب كالخطبة بمعنى الألفاظ المخطوب بها ، والضحكة بإسكان الحاء بمعنى الإنسان المضحوك عليه ، ونسخ فيها من اللوح المحفوظ ، وقيل : وفيما نسخ منها أو ينسخ ، وذلك أنهم نسخوا ما فى الألواح المنكسرة وغيرها على القول بأن ما فى المنكسرة لم يرفع ولم يذهب ، أو نسخوا ما فى غـير المنكسرة على القول بالرفع ، أو الذهاب ، وعن ابن عباس : أنها انكسرت كلها فصام أربعين يوما فردت عليه فى لوحين فيهما ما كان فى كلها .

( هُدًى ) بيان للحق ( ورحْمَةٌ ) إرشاد إلى ما يوجب الإنعـام الدائم ( للَّذينَ هُم لربِّهم ) اللام لام التقوية ، دخلت على مفعول الفعل من قوله : ( يرْهبُون ) أى يخافون لضعفه على العمل بتقـدم مفعوله ، هذا هو المختار ، وعليه ابن هشام ، ويجوز أن تكون تعليلية ، فمفعول يرهب محذوف أى يرهبون المعاصى لأجل ربهم ، أى لتعظيمه أو لعقابه ، ولا يصح قول بعضهم : إن المعنى لأجل طاعة ربهم ، أو خوف ربهم يرهبون العقاب والوعيد ، إلا إن أراد أن طاعة الله أو خوفه خوف

إجلال كانت سببا لرهبتهم العقاب ، ولو لم يطيعوه ولم يخافوه لقست قلوبهم فيغفلون عن العقاب ، فلا يتصفون برهبته ، ولا مانع من جمع الخوف خوف إجلال ، والخوف خوف عقاب ، وعن المبرد متعلق بمصدر ، والتقدير : والذين رهبتهم لربهم ، ومراده بالتعلق مجرد رجوع المعنى إلى ذلك المصدر ، فإن المصدر مبتدأ ولربهم متعلق بمحذوف خبر له لا به .

( واخْتارَ مُوسَى قَوْمَه ) أى من قومه ، فهو منصوب على نزع الخافض ، والمفعول ما بعده ، ويجوز أن يكون هو المفعول وما بعده بدل بعض ، والرابط محذوف ، أى واختار موسى قومه سبعين رجلا منهم .

( سَبْعينَ رجُلاً ) من كل سبط ستة ، وزاد اثنين على السبعين ، وقد أمره الله بسبعين فقط ، فقال : لا بد أن يتخلف منكم اثنان فتشاحوا ، فقال : لمن تخلف أجر من خرج ، فقعد يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا فلم يخرجا ، وقيل : قال ذلك فى أصل الجبل ، فقعدا فيه ، وروى أنه لم يجد إلا ستين شيخا ، فأوحى الله إليه أن يختار من الشباب عشرة ، فاختار فأصبحوا شيوخا ، وقيل : إنه لم يكن فى السبعين من تحت العشرين ، ولا من فوق الأربعين أذهب الله سبحانه عنهم الجهل والصبا .

( لميقَاتِنَا ) هو ميقات المناجاة المذكور الذى سئلت فيه الرؤية ، أمر السبعين أن يتطهروا ويطهروا ثيابهم ، ويصوموا ، وذهب بهم إلى طور سيناء .

قال جار الله : فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودخل فيه ، وقال للقوم ادنوا ، وقد طلبوا سماع الكلام فدنوا ، حتى دخلوا فيه ، ووقعوا سجدا فسمعوه يكلم

موسى ، يأمره وينهاه ، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه يطلبون الرؤية ، فوعظهم وزجرهم ، وأنكر عليهم ، فقالوا : « يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » « قال رب أرنى أنظر إليك » يريد أن يسمع الرد والإنكار من جهته ، أى بلا واسطة موسى ، فأجيب : « لن ترانى » ورجف بهم الجبل فصعقوا كما قال .

( فلما أخذتهم الرجفة ) أى الصعقة فقيل : ماتوا وهو أكثر الروايات ، وقال وهب بن منبه : لم يموتوا بل ارتعدوا حتى كادت مفاصلهم تنفصل للاضطراب الشديد وقوله : ( قال رب ) يا رب ( لو شئت أهلكتهم ) أمتهم ( من قبل ) قبل هذا الخروج للجبل وطلبهم الرؤية ( وإياى ) عطف على الهاء ظاهر على أكثر الروايات ، وأما على رواية وهب فوجهه أنه لما رأى ارتعادهم ظنه مقدمة موت ، فقال : « لو شئت » الخ ولو للتمنى ، تمنى إهلاكهم من قبل بفرعون أو بالبحر أو بغيرهما لئلا يتهمه بنو إسرائيل عليهم قتلتهم لانفراده بهم فيقولوا :

( أتهلكنا ) إياى وهؤلاء السبعين ؟ والاستفهام استعطاف ( بما فعل السفهاء منا ) وهم من طلب الرؤية من السبعين إن طلبها بعض دون بعض ، أو هم السبعون على أنهم طلبوها كلهم أو طلبها بعض ورضى بعض ، وإنما خاف الهلاك على غير السفهاء بفعل السفهاء زيادة فى الخضوع ، أو لأن عذاب الدنيا قد يعم ، أو لأنه طلب الرؤية زجرا لهم من غير أن يؤذن له فى ذلك ، أو لأن الاستفهام للنفى ، أى لست تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وقاله تقوية لما اعتقد .

( إن هى ) أى الرؤية المطلوبة ، أو الفتنة وهى طلبها على حد

« إن هى إلا حياتنا الدنيا » أى ما الفتنة ( إلا فتنَتُكَ ) أى ابتلاؤك ومحنتك ( تُضلُّ بها مَنْ تَشاءُ ) إضلاله مثل هؤلاء الذين سمعوا كلامك فاستدلوا جهلا بالكلام على الرؤية استدلالا فاسدا وطمعوا فيها ( وتَهْدى مَنْ تَشاء ) هدايته ، وهم الثابتون فى معرفتك ، غير الناقضين لها بادعاء جواز الرؤية • اه كلام جار الله بزيادة •

وعن على : أنهم ماتوا بالرجفة ، وأحياهم الله وجعلهم أنبياء وهو ضعيف ، وقال الثعلبى فى عرائس القرآن : لما وعد الله موسى أربعين ليلة ، وذهب للميعاد ، فتن قومه بعبادة العجل ، فأوحى الله إليه ذلك ، يا رب كيف يفتنون وقد نجيتهم من البحر ومن فرعون ، وأنعمت عليهم ؟ قال : إنهم اتخذوا العجل إلها من دونى ، وهو عجل جسد له خوار • قال : يا رب من نفخ فيه الروح ؟ قال : أنا • قال : أنت وعزتك أفتنتهم « إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » الآية فقال تعالى : يا رأس النبيين ، يا أبا الأحكام إنى رأيت ذلك فى قلوبهم فزينته لهم •

فلما رجع موسى من الميقات إلى قومه ، وقرب منهم ، سمع اللفظ حول العجل ، وكانوا يقبرون حوله ، ولم يخبر موسى أصحابه الذى كانوا معه فى ذلك الموعد وهم سبعون أيضا ، وقيل : مضى إليه وحده ، وعلى الأول قالوا : هذا قتال فى المحلة ، وكان غير مخبر لهم بذلك ، فقال : لا ، ولكنهم فتنوا بعبادة غير الله ، وذلك قوله تعالى : « ولما رجع موسى إلى قومه » الخ •

ثم إن الله أمر موسى أن يأتيه فى أناس من خيار بنى إسرائيل ليعتذروا إليه من عبادة قومهم العجل ، فاختار سبعين وأرادهم شيوخا كما مر ، فذهبوا للطور ودخلوا الغمام ، وسجدوا وطلبوا الرؤية بعد انكشاف الغمام ، فأخذتهم الصاعقة وهى نار من السماء فأحرقتهم •

وقال وهب : أرسل جندا من السماء ، فسمعوا حسهم فماتوا فى يوم وليلة ، وقال موسى : يا رب كيف أرجع إلى بنى إسرائيل وقد قتلت خيارهم ؟ ومازال يدعو حتى أحياهم الله رجلا رجلا ، ينظر بعض إلى بعض كيف يحيون ، اهـ كلام الثعلبى فى عرائس القرآن .

وعليه فالميقات فى هذه الآية غير ميقات أربعين ليلة ، والسفهاء عبدة العجل ، وقوله : هى ضمير العبادة والفتنة التى هى العبادة ، وقال بذلك الفراء والكلبى والسدى وجماعة ، وقالوا : إن موسى ظن أنهم أهلكوا بعبادة العجل ، وإنما أهلكوا بطلب الرؤية ، ورده جماعة بأنه لا يجوز على موسى أن يظن أن الله يهلك قوما بذنوب غيرهم ، بل قال : « أتهلكنا » الخ زيادة خضوع ، أو لأن عذاب الدنيا قد يعم ، لكن إن كان موتا فقط كالطاعون ، وأما إن كان إحراقا أو مثلة فلا يعم إلا من رضى بالمنكر ، أو لم ينه ، أو لأن الاستفهام نفى .

قال الكلبى : قال له السبعون حين كلمه ربه : نحن أصحابك لم نختلف عليك ، ولم نعبد العجل كقومنا ، فأرنا الله جهرة كما رأيته ، فقال : لم أره ، ولكن قد سألت الرؤية فظهرت آية الجبل الذى هو أقوى منى فصار دكا ، وخررت صعقا ، وقد تبث ، وهذا على أنهم عرفوا بعبادة العجل قبل الرجوع بإخبار موسى بالوحى ، فقالوا : فإنا لا نؤمن حتى نراه جهرة ، فأحرقوا بنار .

وقيل : إن السبعين ما فارقوا القوم حتى نصبوا العجل ، ولذا تناولتهم الرجفة ، وبه قال ابن عباس ، وفى عرائس القرآن : كان موسى إذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطاع النظر إليه ، فضرب الحجاب بينه وبين من معه ، فأدنوا فسموا كلام الله ، ومما سمعوا :

إننى أنا الله لا إله ألا أنا ذو مكة ، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى • وعن أنس ، عنه صلى الله عليه وسلم : « إذا راح منا إلى الجمعة سبعون كانوا كالسبعين الذين وفدوا مع موسى وأفضل » • اه •

وروى عن ابن عباس : أمر الله تعالى [ موسى ] أن يختار سبعين رجلا ، فاختار فبرزوا معه ليدعوا الله ، فقالوا فى دعائهم : اللهم أعطنا ما لم يُعط أحد قبلنا ، ولا تعطيه أحدا بعدنا ، فأخذتهم الرجفة لاعتدائهم فى الدعاء ، حكاه الثعالبى ، ولم ينسبه لابن عباس ، قال : وقيل : أخذتهم لما جرى بينهم وبين موسى ، ذهب هو وهارون للتعبد أو نحوه ، فمات هارون فدفنه ، وروى أنه رأى فراشا على شجرة ، وقال علىّ : على سرير فى سفح جبل ، فاشتهى النوم عليه فنام فقبض ، فرجع فقال بنو إسرائيل : أين هارون ؟ فقال : مات ، فقالوا : أنت قتلته حسدتنا عليه لحسن خلقه وعشرته ، فاختار السبعين ، وقيل : اختارهم ، وذلك لينهضوا معه إلى قبر هارون فنهضوا ، فقال له : أقتلت أم مت ؟ فقال : متّ ، فأخذتهم الرجفة هى موت وارتعاد أو صاعقة ، اه بزيادة من غيره •

وقيل : أخذتهم لأنهم عبدوا العجل فيمن عبد ، وقيل : إنهم لم ينهوا عنه ، وهذا ونحوه على أن العجل منصوب سرا قبل خروجهم ، روى أن الله لم يستجب للسبعين ولم يطلبوا شيئا جائزا إلا أعطاه هذه الأمة •

( أنْتَ ) لا غيرك لتعريف الطرفين المفيد للحصر ( وليُّنا ) متولى منافعنا من حفظ عن المضار ، ومن نصر ورزق وغيرهما كعفو وغفران ( فاغْفِرِ لَنَا ) ذنوبنا دعا لنفسه ولمن تاب من قومه وللمؤمنين الذين لم يقارفوا ما ذكر من عبادة العجل وغيرها أصلا ، وذكر بعضهم أن

قوله : « إن هى إلا فتنتك » كأنه بعض اجتراء ، فاستغفر منه لنفسه ومن عبادة العجل ، وطلب الرؤية لقومه ( وارْحَمْنا ) زدنا نعما وأدم لنا ما أنعمت به وما تنعم به ( وأنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ ) لعموم غفرك للذنوب ، وردها حسنات ، وعدم الرجوع عنه ، ولكونه فضلا وكرما لا طلبا لمنفعة أو دفعا لمضرة ، بخلاف غفر المخلوق للمخلوق •

( واكْتُبْ لَنا ) أى أثبت أو أقسم أو قدر ( لَنا فى هَذِه الدُّنيا ) أى الأوقات التى هى أدنى وأقرب للفوات ، أو فى هذه الدار التى هى كذلك ، فلفظ الدنيا باق على الوصفية ، فهو اسم جنس مقرون بأل المعرفة نعت أو بيان أو بدل ، وإن جعل علما لتلك الأوقات أو الدار تعين أن يكون بيانا أو بدلا ، وأل فيه للمح الأصل ، إذ لا مانع على الصحيح من قولك : أعجبنى هذا زيد ، بإبدال زيد أو عطفه بيانا ( حَسَنَةً ) من صحة جسم ، ونصر وعافية ، وسعة رزق ، وتوفيق للأعمال الصالحة ( وفى الآخِرَة ) الجنة وادعى بعضهم أن المعنى اكتب لنا فى الدنيا حسنة هى ثواب الأعمال ، وفى الآخرة مغفرة لذنوبنا •

( إنَّا هُدْنا إليكَ ) تبنا إليك ورجعنا ، يقال : هاد يهود أى رجع يرجع ، أو هو مبنى للمفعول من هاده يهيده أى حركه وأماله ، والمحرك والمميل هو الله أو التوراة ، وذلك على لغة من يقول فى البناء للمفعول قول ونوع ، وقرأ أبو وجزة السعدى بكسر الهاء على البناء للفاعل والمفعول محذوف ، أى هدنا إليك أنفسنا ، أى حركناها وأملناها ، أو للمفعول على اللغة الفصحى فى بناء قال وباع للمفعول بأن يقال : قيل وبيع وهيد ، لكن حذف حرف العلة للساكن بعده ، ومن الأول قول بعضهم :

أيا ركب الذنب هدهد
واسجد كأنك هدهد

بضم الهاء ولو كسرت لزم فى السجع مثل سناد ، والتوجيه فى الشعر أى تبت ، قيل : سميت اليهود لقوله : « إنا هــدنا إليك » فهو اسم مدح ، ولما نسخت شريعتهم ولم يقلعوا عنها صار لا أقبح للإنسان من أن تقول له أنت يهودى ، وقيل : لتهودهم فى القراءة ، فمن كان مسلما فليكن عند القراءة ولا يتشبه بهم .

( قالَ ) الله ( عَذابِى ) وسكن الياء غير نافع ( أصِيبُ به مَنْ أشاءُ ) تعذيبه من خلقى بالحكمة عدلا جزاء على فعله كالرجفة ، والكل ملكى ، فلا اعتراض لأحد علىّ وقرأ الحسن ، وطاووس ، وعمرو بن فايد : من أساء بالسين المهملة وفتح الهمزة بعد الألف من الإساءة ، ولم يتعلق بها خصوصا إنفاذ الوعيد ، بل هى كغيرها فى إنفاذ الوعيد ولا بد ، ولم يتعلق بها أن المرء خلق فعله ، ولا مساس لها بذلك ، والظاهر أن القارىء بها لم يقصد بها مجرد ذلك .

وزعم قومنا أن القراءة يتعلق بها ذلك وهم مصيبون فى قولهم أن المرء غير خالق لأفعاله فنهوا عنها ، وقالوا : إنها معتزلية ، حتى قــال الإمام أبى عمرو الدانى : إن هذه القراءة لا تصح عن الحسن وطاووس ، وإن عمرو بن فايد رجل سوء ، وقرأ بها سفيان بن عيينة واستحسنها فقام إليه عبد الرحمن المقرى ، وصاح به وأسمعه فقال : لم أدر مــا يقول أهل البدع ، يعنى المعتزلة .

( ورَحْمتِى وَسِعت كُلَّ شَىءٍ ) فى الدنيا ، من مؤمن وكافر وبهيمة ، وطمعت الأبالسة بظاهر الآية فى الجنة للعموم ، ثم أويسوا بقوله : ( فسأكْتبُها ) أى ساقضى بها فى الآخرة وأثبتها ( للَّذينَ يتَّقون ) يحذرون الشرك والمعاصى ، وقدر بعضهم يحذرون المعاصى ، ولم يذكر

الشرك إدخالا له فى المعاصى ، أو للعلم بأن ترك سائر المعاصى لا ينفع مع الشرك ، وقدر من زعم أن الموحد العاصى فى الجنة ، ومن زعم أنه موكول للمشيئة يحذرون الشرك .

( ويُؤْتون الزَّكاة ) خصها بالذكر مع دخولها فى اتقاء المعاصى لشرفها ومشقتها على النفس ، حتى إن اشتراطها يؤذن باشتراط سائر الطاعات ، قيل : جعلها مثالا لجميع الطاعات ، مع أن الطاعات داخلة فى اتقاء المعاصى ، فإن من لم يفعل ما وجب فعله فقد عصى ، كما عصى من فعل ما وجب تركه ، وقال ابن عباس : المراد يؤتون الأعمال التى هى زكاة وطهارة لأنفسهم ، وعليه فالفعل مبنى للمفعول ، والتاء مفتوحة ، والواو مسكنة سكونا حيا بخلافه على ما ذكر ، وقيل : الزكاة هنا التوحيد ، فالفعل مثله فى قول ابن عباس ، فالمراد بالاتقاء اتقاء سائر المعاصى .

( والَّذين هُمْ بآياتنَا يُؤْمنُون ) لا يكفرون بشىء منها ، وذكر هذا لاستفادته من اشتراط التوحيد بقوله : « يتقون » أو بقوله : « ويؤتون الزكاة » على ما فى تفسيرهما ، واليهود والنصارى طامعة فى ذلك كله ، وإنما أيسوا بقوله :

( الَّذينَ يتَّبعُون ) نعت أو خبر لمحذوف ، أو مفعول لمحذوف على المدح ، أو مبتدأ خبره بأمرهم ، أو بدل من الذين بدل كل أو بعض على حذف الرابط ، أى الذين يتبعون منهم ( الرَّسُولَ النَّبى الأمىَّ ) إلخ وهذا منهم تعام وتغافل على العمد عن اشتراط التوحيد والإيمان بالآيات ، فإن المراد الآيات كلها كما هو واضح فتشمل القرآن ، ومن رد حرفا أو رسولا أشرك ، ويجوز أن يكون المراد بوسع الرحمة لكل

شيء أنها موجودة لكل أحد ، ومن أتى بالإشراك أو بالكبائر فقد أبى منها بنفسه ، والمراد بسعتها بسأكتبها الخ أنى أحضرها وأوفق إليها من سبق فى علمى أنه يتقى ويؤتى الزكاة ، ويؤمن بآياتنا ، ويتبع الرسول ، فالرحمة رحمة الآخرة ، وقد فسر بعضهم الرحمة بالتوبة .

وقيل : إن المراد الرحمة الدنيوية والأخروية ، وإن المراد بكل شيء متأهل لها وهم المؤمنون ، وإنما أصابت الكافر فى الدنيا تبعا، وتتمحض الرحمة للمؤمنين فى الآخرة كما قال : « فسأكتبها » الخ وهو قول مقبول ، والنبوة الوحى بشرع ، والرسالة فى البشر من الله الوحى به مع الأمر بتبليغه ، فالرسول أخص من النبى ، وقدم مع أن الصفة العامة تقدم على الخاصة ، لأن تقديمها غالب ، ولأن محله ما إذا لم يكن فى تقديم الخاصة نكتة ، وهى هنا الاهتمام بأمر الرسالة باعتبار المخاطبين ، أو اعتبر فى جانب رسالته كونها من الله ، وفى جانب نبوته كونها للعبادة فأخرت فقدمت ، ولتقدم معنى النبوة قال صلى الله عليه وسلم للبراء بن عازب حين قال : آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبرسولك الذى أرسلت : « قل وبنبيك الذى أرسلت » وليسلم من التكرار .

والنبى مأخوذ من النبأ وهو الخبر ، لأنه مخبر عن الله ، ومخبر للخلق ، وذلك أنه يخبر ولو لم يؤمر بالإخبار رغبة فى الدين ، أو من النبوة وهى الرفعة ، وقيل : لما كان طريقا إلى رحمة الله سمى بالنبى الذى هو الطريق ، يقال ساد فى النبى أى فى الطريق ، ويقال أيضا : النبى بتشديد الياء ولا همزة بعدها ، قلبت الهمزة ياء وأدغمت فيها الياء ، أو هو من النبوة بالواو ، وقلبت ياء وأدغمت فيها الياء ، قيل : روى النهى عن هذا التخفيف بالقلب والإدغام والأمر بالهمزة .

والأمى نسب إلى الأم أى هو كما خرج من أمه لا يدرى كتابة ولا قراءة ولا حسابا ، وذلك إكمال لإعجازه ، حيث أتى بكلام لا يساوى ولا يتغير ، مع أنه لا يدرى ذلك ، وما اشتغل على معلم ، فلو درى بذلك لقيل كتبه عن غيره ، أو قرأه من كتاب ، وفى الحديث : « نحن أمة أمية » وذلك أن الأمة العربية لا يكتبون ولا يقرءون الكتابة ، ثم حدث فيهم ذلك ، أو نسب إلى أمة العرب فإنهم لا يكتبون ولا يقرءون ، ويحتمله الحديث ، وقيل : إلى أم القرى وهى مكة ، وقرأ بعض بفتح الهمزة إلى الأم وهو القصد ، فإنه صلى الله عليه وسلم مقصود فى أمر الدين ، قال أبو الفتح : أو إلى الأم بالضم فهو من تغيير النسب ، وذلك الكلام إن كان مفعولا لموسى فيمن معه من بنى إسرائيل ومن بعده ، فالمراد باتباعه اعتقاد أنه رسول سيجىء ، وأن ما يقول حق ، ولا يشكل على ذلك قوله سبحانه وتعالى :

( الَّذى يجدُونَه مكْتوباً عنْدَهم فى التَّوراة والإنْجيلِ ) فإنه على التوزيع ، فأهل الإنجيل يجدونه فى الإنجيل فى زمانهم ، وأهل التوراة فى التوراة فكأنه قال : الذين يتبعونه ممن يجده فى التوراة من أهل زمانك وممن بعد زمانك ، وممن يجده فى الإنجيل إذا أنزلته بعد زمانك ، فلا حاجة إلى قول بعضهم : إن المراد وستجدونه فى الإنجيل وإن كان مفعولا لمن فى زمانه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ممن آمن به من بنى إسرائيل أو غيرهم ، وهو قول الجمهور ، فالاتباع اتباعه فى الاعتقاد والعمل بشريعته ، وكذا فى قول من قال : إنه مقول لمن فى زمانه من بنى إسرائيل ، والظاهر أنه مقول لموسى .

ويدل له ما رواه البكالى أنه لما اختار موسى السبعين قال له : أجعل لك الأرض مسجدا وطهورا تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند

مرحاض أو حمام أو قبر ، وأجعل السكينة فى قلوبكم ، وفى رواية : وأجعل السكينة معكم فى بيوتكم ، وأجعلكم تقرءون التوراة عن ظهور قلوبكم ، يقرؤها الرجل والمرأة ، والحر والعبد ، والصغير والكبير ، فأخبر قومه فقالوا : لا ندرى الصلاة إلا فى الكنائس ، ولا نستطيع حمل السكينة فى قلوبنا ، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ، ولا نقرؤها إلا نظرا فقال : « فسأكتبها » أى هذه الخصال المرادة هى وغيرها بلفظ الرحمة « للذين يتقون » إلى : « المفلحون » قال : وهم هذه الأمة ، فقال موسى : اللهم اجعلنى نبيها ، قال : نبيهم منهم ، قال : اجعلنى منهم ، قال : إنك لن تدركهم ، قال : يا رب جعلت وفادتى لأمة محمد ، قال البكائى : فاحمد الله الذى جعل وفادة بنى إسرائيل لكم ، قال : فأنزل عليه : « ومن قوم موسى أمة » إلى : « يعدلون » فرضى •

( يأمُرُهم ) لا يدل على أن المراد بالذين يتقون الخ من فى زمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، لأن الكلام على التوزيع ، فالوجود فى التوراة لأهلها ، وفى الإنجيل لأهله بعد نزوله ، والأمر والنهى وما بعدهما لمن وجد فى زمانه ، صلى الله عليه وسلم ، أو بعده ، وهذه الجملة حال مستقبلة من هاء يجدونه ، أو من المستتر فى مكتوبا كقولك : مررت برجل له صقر صائدا به غدا ، وليست الهاء ولا المستتر المذكوران مرادا بهما ذكر نبى ولا لاسمه ، ولا لصفته ، فضلا عن أن يمتنع الحالية كما زعم الفارسى ، فإنهما للنبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما ذلك مضاف محذوف إلى يجدون نعته أو وصفة ، أو ذكره أو اسمه أو أمره •

ولا يقال : كيف جاء الحال من الهاء مع أنها مضاف إليه ، لأنها بعد حذف المضاف مفعول ، ولأن المضاف فى الثلاثة الأولى صالح للعمل ، مع أن الفارسى أجاز الحال من المضاف إليه مطلقا ، فقد علموا من التوراة

والإنجيل أنه يأمر وينهى ، ويحل ويحرم ويضع ، بخلاف ما إذا جعلت الجملة مستأنفة فى وصفه صلى الله عليه وسلم ، وتفسيرا ، لما وجدوه مكتوبا كما يقول الفارسى ، والحالية أولى لأنه يزيد بها ذم من وجده كذلك ولم يؤمن به ، ومرادى بنعته ووصفه وذكره ما هو معنى مصدرى ، وما يشمل بيانه مطلقا ولو باسمه واسم أبيه ، فدخل فى ذلك بيانه فى الصفة والاسم ، وقد ذكر فيهما بهما .

( بالمعْرُوفِ ) هو ما لا تمجه القلوب السليمة ، فيشمل الخلق الحسن وصلة الرحم والخصال المباحة المحمودة وسائر الأمور الدينية ( وينْهاهُم عَن المنْكَر ) خلاف المعروف ، وقيل : المعروف التوحيد ، والمنكر الشرك ، والظاهر الأول لعمومه ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » والأمور الشرعية كلها داخلة فيها ( ويُحلُّ لَهم الطيِّباتِ ) ما عوقبوا بتحريمه وما حرم غير عقاب لهم ، وذلك كلحم الإبل وشحم الغنم والبقر غير شحم الحوايا والظهور ، وقيل : الطيبات كل ما تستلذه النفس ، فكل لذيذ حلال إلا ما قام الشرع بتحريمه ، والأمر كذلك ، ودخل ما ذبح باسم الله ، وما يضر حرام ، وقيل : الطيبات ما حرمته الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامى ، وهذا على أن ما ذكر كله من كلام فيمن كان فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم من العرب ، لا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، فإنهم هم أصحاب البحائر وما بعدها .

( ويُحرِّم عَليهم الخَبائثَ ) قال ابن عباس : الميتة والدم ولحم الخنزير ، والصحيح أن المراد ذلك وغيره من الخبائث كالربا والرشوة والسحت ، وما ذبح لغير الله ، فإن كل ما حرمته الشريعة فهو بتحريمها خبيث يوصف بالخبث ، ويحكم عليه به ، ولعل ذلك مراد ابن عباس ،

ومثل ببعضه ، ثم اطلعت على أنه مراده ، وقيل : هى ما يستقذره الطبع ، فإنه مضروما يضر حرام إلا ما خصه الشرع ، وعلى هذا تحرم الحية والوزغة والخنفساء والعقرب ونحوهن ، ولم يحرمهن مالك ، وقيل : بتحريمهن ، وقيل : بكراهتهن ومـا لا دم فيه كالخنفسـاء والعقرب والعنكوت طاهر حيا أو ميتا عندنا ، وقيل : كل ميتة حرام إلا الذباب لتخصيصه فى الحديث بأنه إذا وجد فى إناء ماء مثلا فإنه يغمس فيه ، لأن فى جناحه الذى يرفعه شفاء وفى المنتقل داء ، وحل الجراد والسمك حيا أو ميتا ، ويحرم ما يضر بسم أو غيره ، فالحية محرمة نجسة ، والعقرب محرمة طاهرة .

( ويَضَعُ ) أصله كسر الضاد وفتحها ، لأجل حرف الحلق والمعنى يحط ( عَنْهم إصْرهُم ) أى ثقلهم ، لأنه يأصر صاحبه أى يحبسه عن الحركة ، وذلك أن أحكام التوراة شديدة ، فهى كالشىء الثقيل المانع لحامله عن التحرك ، وذلك قول ابن جبير ، وقتادة ، ومجاهد ، وقال ابن عباس ، والضحاك ، والحسن وغيرهم : الإصر العهد ، وحكى أبو حاتم ، عن ابن جبير : أن الإصر شدة العبادة ، والماصدق واحد بالنظر إلى الآيات ، فإن أحكام التوراة ثقيلة شديدة ، عهدوا أن يعملوا بها ، وما ذكر عن نافع وعيسى والزيات من فتح الهمزة غلطا ، وذكره مكى عن عاصم ، عن أبى بكر ، وقال : هـو لغة ، وقرأ ابن عـامر ، وأيـوب السختيانى ، ويعلى بن حكيم ، وأبو سراج الهذلى : إصارهم بهمزة فألف فصاد فألف جمعا لتعدد تلك الأحكام ، والإفراد على إرادة الجنس ، وأدغم أبو عمرو فى رواية أبى حاتم عين يضع فى عين عنهم وأشـمها الضم ، وقرأ طلحة : ويذهب عنهم إصرهم .

( والأغْلالَ التى كانَتْ علَيْهم ) جمع غل وهو ما يقيد به ، وذلك

تشبيه لأحكام التوراة بما يغل به الإنسان ، فلا يقدر على العمل لثقلها ، فكل من الإصر والأغلال عبارة عن ثقل أحكامها وشدتها ، كتعيين القصاص ، قيل : القصاص فى العمد والخطأ من غير شرع للدية والعفو ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقطع الموضع النجس من الثوب والبدن غير الفرجين ، وإحراق الغنائم ، وتحريم العروق من اللحم ، ووجوب الصلاة فى الكنائس ، وترك العمل يوم السبت .

روى أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلا يحمل قصبا فضرب عنقه ، وحط ذلك عنا رحمة ، ولنداوم على العمل ، وفى الحديث : « بعث بالحنيفية السهلة السمحة » وقال عطاء : المراد بالأغلال ظاهرها ، كان الرجل إذا قام يصلى لبس المسح وغل يديه إلى عنقه ، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها السلسلة وأوثقها إلى السارية ، يحبس نفسه على العبادة ، وقال أيضا أبو زيد : المراد بالأغلال ما فى قوله تعالى : « غلت أيديهم » فمن آمن بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم زالت عنه الدعوة وتغليلها ، ومن قال : الكلام مفعول لمن عاصر النبى من العرب إلا قوله : « يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » فمعنى وضع ذلك عنهم إخبارهم أن ذلك غير واجب عليهم ، كما وجب على غيرهم ، كأنه قيل : الذين يؤمنون بالنبى الذى تجده أهل الكتاب فى التوراة والإنجيل ، فيأمرهم مستأنف لبيان خصاله ، أو حال من واو يتبعون ، والأولى ما تقدم لسلامة من تخالف مراجع الضمائر ، وما ذكر من وضع الإصر والأغلال ، وما ذكر قبله موجودان فى التوراة والإنجيل عنه صلى الله عليه وسلم ، وقد أذكر شيئا مما ورد فى شأنه فى التوراة والإنجيل فى سورة الشعراء .

( فالَّذينَ آمنُوا به وعزَّرُوه ) عظموه ووقروه ، أو منعوه حتى

لا يقى [ عليه ] عدو ، ومنه التعزير المذكور فى الأحكام ، وهو ما دون أربعين جلدة أو سبعين وما دونها ، أو على قدر النظر أقوال ، وذلك لأنه تعظيم للدين ، وتوقير له ، ومنع عن معاودة القبيح وقرأ الجحدرى ، وقتادة ، وسليمان التيمى ، وعيسى بن عمرو بالتخفيف .

( ونَصَروهُ ) على أعدائه ( واتَّبعَوا النّور ) القرآن ، سمى نورا لأن إعجازه ظاهر كظهور النور ، ولزم من ذلك أنه مظهر لغيره ، أو سمى بذلك لأنه كاشف للحقائق مظهر لها ، مزيل لظلمة الجهل ، تستضىء به القلوب كما تستضىء العين بالنور ( الّذى أنزِلَ معَهُ ) حال من ضمير أنزل مقدرة ، لأنه حال الإنزال ، وهى حال المجىء به من السماء غير موجود معه ، بل يقدر وجوده معه ، وإن أريد بالإنزال إنهاءه إليه مجال المقارنة مع كونه معه أنه عنده حاضر ، أو أنه مع بعثه أو نبوته بتقدير مضاف ، فإن استنباءه مصحوب بإنزال القرآن ، ويجوز تعليقه باتبعوا كقولك : سرت مع زيد ، أى سرت أنا وزيد فى وقت واحد ، فالمعنى اتبعوه هم ومحمد ، أو بمحذوف حال من الواو ، أى اتبعناه مصاحبين له فى اتباعه ، والمعنى فى ذلك كله اتباع القرآن ، ويجوز تعليقه باتبعوا على معنى أنهم اتبعوا القرآن واتبعوا النبى ، أى سنته كقولك : قرأت الأعراف مع الأنفال تريد أنك قرأتهما معا .

( أولئكَ هُم المفْلحُونَ ) الفائزون بالرحمة الدائمة ، وفائدة قوله : « والذين آمنوا به » إلى : « المفلحون » ترغيب بنى إسرائيل فى الإخلاص والعمل الصالح ، وترك الطالح ، كطالب الرؤية باستماع أوصاف أعقابهم المؤمنين ، ككعب الأخبار ، فيجتهدوا فيما يجمع بينهم فى رحمة الله مع ما تضمن ذلك من تبشير موسى ، بأن نبى إسرائيل من يصير من

هذه الأمة الكريمة ، ومن أن ما دعوت به لقومك يكـون لهم إن عملوا كأعقابهم .

( قُلْ ) يـا محمد ( يا أيُّها النـاسُ إنِّى رسُولُ اللهِ إليْكم جَميعاً ) حال من الكاف ، وإلى الأنبياء والرسل وأممهم من قبلى ، وما بعث نبى إلا أخذ عنه ميثاق أن يؤمن به ، وإلى الجن ، وإلى الجماد والحيوانات كلها والملائكة قاله بعضهم ، وذلك حض على اتباعه ، وأحلت له الغنائم ، ونصر بالرعب أمامه شهر أو تقدم مما خصت به أمته معه شىء ولم يعط ذلك غيره .

( الَّذِى ) مفعول لأعنى محذوفا أو خبر لمحذوف ، وذلك عـلى المدح ، أو مبتدأ خبره لا إله إلا هو ، أو نعت الله فصل بينهما بمعموليه ، قيل : لأنهما كالمتقدم على لفظ الجلالة ( لَه مُلْكُ السَّموات والأرْضِ ) فهو المدبر والمالك ، وهو الذى أمرنى أن أخبركم برسالتى إليكم ، وكونه مالك السـموات والأرض ، موجب لأن يذعن له فى الرسالة مـن شـاء وغيرها .

( لا إلَه إلاَّ هُوَ ) إذا لم يجعل خبرا للذى فهو بدل اشتمال من قوله : « له ملك السموات والأرض » لا بدل كل ، ولا عطف بيان منه لتغايرهما ، وأيضا عطف البيان على ما اشتهر يختص بالأسماء ، لا يكون فى جمل خلافا لجار الله ، وأيضا ليست هذه لمجرد الإيضاح والتفسير ، نعم بينهما وبين الجملة قبلها سببية ، فإن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة ، فليست بأجنبية ، ولذلك قلت : إنها بدل اشتمال ، وهى تتضمن بيانا للجملة قبلها .

( يُحْيِى ويُميتُ ) بدل اشتمال ثان على إجازة تعدد البدل ، أو

بدل من البدل على إجازة الإبدال من البدل ، أو مستأنف ، وعلى كل حال ففيه تقدير للألوهية ، لأن غيره لا يقدر على الإحياء والإماتة ، فليس بإله ولا بمرسل نبيا ( فآمنُوا بالله ورسُوله ) قدم الله لأن الإيمان به أوجب وأصل ( النَّبىّ الأمىّ ) هذا من كلام الله ، فليس فيه التفات ، وإن قيل : إنه من كلام رسوله المأمور بقوله ، ففيه التفات من تكلم لغيبة فى الالتفات مزية بلاغة ، والأصل فآمنوا بالله وبى .

وعلى الوجهين ففى الكلام التعبير بالظاهر وهو رسول مكان المضمر ، إذ الأصل على الوجه الأول فآمنوا بالله وبه ، وعلى الثانى فآمنوا بالله وبى ، ونكتته إجراء الصفات عليه ، وتأكيد الرسالة ، وإيذان بان الذى يجب الإيمان به هو رسالته ، وهو المعنى بالإيمان به ، وبأن موجب الإيمان والرسالة فى أى إنسان كانت ، وفى ذلك إظهار للإنصاف وتبرؤ من العصبية لنفسه ، ونكتته أيضا إجزاء الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له .

( الَّذِى يؤمنُ بالله وكلماته ) ما أنزل عليه وعلى غيره من الأبياء من الكتب والوحى ، وقرأ عيسى بن عمر : وكلمته بالإفراد على إرادة الجنس ، أو القرآن أو عيسى ، وبه قال مجاهد ، وإنما سمى كلمة لأنه لم يكن لوجوده سبب سوى قول الله سبحانه : « كن » ولم يكن من نطفة رجل ولا امرأة ، وقيل : كان من نطفة تحدرت من أمه ، ويجوز أن يراد بكلماته أو كلمته ما تكوّن به عيسى وغيره من المخلوقات وهى كن ، وزعموا عن قتادة أن المراد بآياته القرآن ، وزعموا عن مجاهد والسدى أن المراد بكلماته بالجمع أيضا عيسى ، وفى التفسير بعيسى فى الإفراد أو الجمع تعريض باليهود أن من لم يؤمن به فلا إيمان له ، وفى

التفسير بكتب الله ووحيه تعريض بأن من أنكر حرفا لم يكن مؤمنا ، وقرأ الأعمش : الذى يؤمن بالله وآياته .

( واتَّبِعُوه ) فى أمره ونهيه ووعظه وأخباره وقوله وفعله واعتقاده ( لَعَلَّكُم تَهتَدُون ) رجاء الاهتداء ، أو لكى تهتدوا ، وقالوا : لعل من الله واجبة ، وإن لم تتبعوه فلا اهتداء لكم ولو آمنتم به .

( ومِنْ قَوم مَوسَى ) بنى إسرائيل ( أمةٌ ) جماعة ( يَهْدُونَ ) الناس ( بالحقِّ ) حال ، أو متعلق بيهدون ، وهو مثل التوحيد والصلاة وغيرهما ، وهم أيضا فى أنفسهم مهتدون كما يدل عليه المقام ، فإنه مقام مدح وإرضاء لموسى ، فلو كانوا هداة لغيرهم غير مهتدين فى أنفسهم لما مدحوا ولما وقع بهم الإرضاء ( وبهِ ) لا بغيره ، وتقديمه للحصر والفاصلة ( يعْدِلونَ ) يحكمون فيما بينهم ، فالحق المذكور شامل لما ليس من أمر الحكومة كالتوحيد والصلاة ، ولما هو من أمر الحكومة كالحكم بالقتل ، والحكم بين المتنازعين ، ومن عادة القرآن تعقيب ذكر المبطلين بذكر المحقين ، وذكر المحقين بذكر المبطلين ، تنبيها على تزاحم الخير والشر ، والحق والباطل ، ما أراد الله بالناس خيرا وإذا أراد بهم شرا اتفقوا على الشر والباطل .

وهؤلاء القوم هم من ثبت على دين موسى من أهل زمانه وبعده أخبر أن فى بنى إسرائيل ، على شدة عوهم وخلافهم ، من ثبت على الدين ، وقيل : هم من كان فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وآمن به ، ككعب وعبد الله بن سلام وغيرهما ، ممن آمن بجميع الكتب والأنبياء ، واعترض بقلتهم ، فلا يسمون أمة ، ويجاب بجواز تسمية الثلاثة أمة ، بل أجيز أيضا تسمية الاثنين جماعة ، وقد فسروا الأمة

بالجماعة ، وأيضا لو سلمنا أنه لا تسمى أمة إلا الكثير ، فإنهم سموا أمة تعظيما لإخلاصهم وتشبثهم فى الدين ، ولمخالفتهم سائر اليهود ، والمخالف للكثير يسمى فى اللغة أمة ، ولو واحدا وفى ذلك استجلاب وترغيب للباقين فى الإسلام .

وقال السدى ، وابن جريج وغيرهما : إنه لما قتلوا أنبياءهم ، وتفرقوا اثنى عشر سبطا ، اعتزل منهم سبط وتمسكوا بدين الله ، وسألوا الله أن يبعدهم ، ففتح لهم سربا فى الأرض ، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين ، وساروا فيه على ما رواه الطرى ، عن ابن جريج ، عن ابن عباس سنة ونصفا ، فهم هنالك حنفاء مستقبلون قبلتنا .

قال السدى ، وابن جريج : هم خلف وادٍ من شهد ، وقال الاكلبى ، والضحاك ، والربيع : قوم خلف الصين بأقصى المشرق على على نهر يجرى بالرمل يسمى أردان ، مستوون فى المال ، لا يحبون الزيادة فيه ، يمطرون بالليل ويصحون بالنهار ، ويزرعون ولا يصلهم أحد منا ، وإنما جاءنا خبرهم بإخبار النبى صلى الله عليه وسلم عنهم ، وقد كلمهم ليلة الإسراء ، فقال جبريل : هل تعرفون من كلمكم ؟ قالوا : لا ، قال : إنه محمد النبى الأمى فآمنوا به ، وقالوا : يا رسول الله إن موسى أوصانا أن من أدرك منكم محمداً فليقرئه السلام ، فرد عليه السلام .

وإنما أوصاهم بذلك لأنه لا يعلم أنه سيجتمعون به فى السماء السادسة ، أو علم وأوصاهم رغبة ، وأقرأهم عشر سور مما نزل عليه بمكة وقد نزل عليه أكثر ، واقتصر عليها ، وأمرهم بالصلاة والزكاة ، ولو كان فرض الزكاة بالمدينة إذ لا مانع من أن تفرض على هؤلاء قبل

غيرهم ، لتعذر الوصول إليهم بعد ذلك ، بل قال بعض العلماء : إن الزكاة فرضت بمكة ، بقيد أن الإخبار بها والحمل عليها لا يكون بمكة ، وأمرهم أن يقيموا مكانهم ، ويتركوا السبت ويأخذوا بالجمعة ، وليس ذلك ببعيد ، وقد صح أنه نزل ليلة الإسراء بالمدينة ومدين وبيت لحم ، وصلى فيهن ، وليس بعيدا عن قدرة الله أن يمر بهؤلاء ولو لم يكونوا على طريقه بأن يعدل إليهم ، نعم ذلك كلام لم تروه الثقات أعنى كلام القوم وراء الصين ، وكونهم المراد بالآية ، فالمختار القول الأول ويليه الثانى .

( وقطّعْناهم ) بالتشديد للتأكيد ، أى فرقناهم وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بتخفيفه ، ووراه إبان عن عاصم ( اثْنَتَى عَشْرة ) بإسكان اثنتين حال من الهاء ، أو مفعول ثان لقطعنا ، لتضمنه معنى صيرنا ، وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش ، وطلحة بن سليمان بخلاف فتح الشين قرأت هذه الجماعة أيضا ، وطلحة بن مصرف ، وأبو حيوة بكسرها ، وهى لغة تميم ، مع أن من عادتهم إسكان الوسط المكسور من اللفظ الثالث ، والجمهور على الإسكان وهو لغة الحجاز ، وليس أصلها عندهم الكسر ، فضلا عن أن يقال : ليس من عادتهم إسكان الوسط المذكور ، فكيف أسكنوا هنا خلافا لما يتوهمه أبو حاتم .

( أسْباطاً ) بدل من اثنتى عشرة بدل كل لا تمييز ، لأن تمييز العدد المركب مفرد ، والأسباط جمع ، والتمييز محذوف أى اثنتى عشرة أمة أو فرقة أو قطعة ، قاله ابن أبى الربيع ، والشلوبين ، وابن هشام وغيرهم ، لكن قدروا فرقة ، وكذا قال ابن مالك فى شرح التسهيل : إنه بدل ، وضعف بأن المبدل منه فى نية الطرح غالبا ، وليس هنا فى نيته ، لأنه لو طرح لفاتت الكمية ، ولا يحسن حمل القرآن على غير الغالب .

قلت : ليس كون المبدل فى نية الطرح بمعنى أنه يصح إسقاطه ، بل بمعنى أن المقصود بالذات هو معنى البدل ، فالمقصود بالذات هنا كون التقطيع على أسباطا لا كمية الأسباط ، وقد يخرج القرآن على غير الغالب ، ولتعذير التمييز مؤنثا أنث العدد ، لأن مادون الثلاثة يؤنث مع المؤنث ، ويذكر مع المذكر ، وكذا عشرة مع ما دون الثلاثة ، ولو كان تمييزا لقيل : اثنى عشرة سبطا بتذكير اثنى وعشر ، وأفرد سبط ، وقال ابن مالك فى شرح الكافية ، إن أسباطا تمييز ، وإن ذكر أمما رجح حكم التأنيث فى أسباطا ، لكونه وصف بأمما جمع أمة ، ويرده أن تمييز العدد المركب مفرد ، نعم أجاز الفراء جمعه ، وظاهر الآية وقول ابن مسعود قضى فى ديـــة الخطأ عشرين بنت مخـــاض ، وعشرين ابن مخـــاض ، يشهدان لـــه .

وتخريج أبى حبان أن بنى حال عشرين أو نعته ، وتقدير التمييز خلاف الأصل ، وقال الحوفى : يجوز كون أسباطا نعتا لفرقة ، حـــذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه على أن فى الكل فرقة من الاثنتى عشرة أسباط لا سبطا واحدا ، وأنث العدد لأن السبط الفرقة والأمة ، وفيه أن النعت بالجامد خلاف الكثير ، والسبط فى ولد إسحاق كالقبيلة فى ولد إسماعيل ، قال الزجاج : السبط فى الأصل اسم شجر ، والأظهر أنـــه عربى عرب ، قيل : كانوا اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام ، كل واحدة توءم خلاف ما توءمه الآخر ، ولا تكاد تتألف ولذلك قال :

( أمماً ) جمع أمة بدل ثان ، أو بدل من البدل أو نعته ، لكنه جامد ، أو بدل لم يتقدمه بدل إذا جعلنا أسباطا تمييزا ، وبدل من التمييز أو نعته ، وكم من تمييز يتم البيان بقيده من تابع أو غيره ، فبطل إنكار

شيخ الإسلام كونه نعتا للتمييز ( وأوْحَيْنا إلى مُوسَى إذ اسْتَسقاه قَومهُ ) طلبوا منه ماء للشرب فى التيه ، وعن الحسن أن الآية فى خروجهم من البحر إذ خرجوا فى أرض بيضاء لا ماء ولا بناء ولا طعام ( أنِ اضْرِب بعَصَاكَ الحَجَرِ ) المعهود عندك الحاضر ، قيل : هو حجر واحتمله معه من الطور •

( فانْبَجَسَتْ ) انفجرت ، والمراد الافتتاح بسعة وكثرة ، وزعم بعض أن الانبجاس أخف من الانفجار ، ولا تعارض فإنها تسيل أولا قليلا ثم كثيرا ، والأصل فضرب فانبجست ، وحذف العاطف والمعطوف لعدم اللبس ، وليكون الكلام بصورة تسبب الانبجاس عن الإيحاء بالضرب ، دلالة على أن موسى لم يتوقف عن اتباع الأمر ، وأن ضربه لم يوقف الله الانبجاس عليه بالذات ، بل بالعرض لأن يكون معجزة ، ويجوز أن يكون التقدير ، : فإن ضربت بها فقد انفجرت •

( منْهُ اثْنتا عَشْرة عيناً ) لكل سبط عين يخرج ماؤه عذبا يضرب الحجر كلما نزلوا ( قَدْ عَلم كلُّ أناسٍ ) كل سبط وهو اسم جمع أو جمع تكسير لناس ، على أن أصله أناس بكسر الهمزة أبدلت الهمزة ضمة ( مَشْربهم ) موضع شربهم ، لا يشرب سبط من مشرب آخر •

( وظلَّلْنا عَليهمُ الغَمامَ ) جعلناه ظليلا مشرفا عليهم ، يقيهم من حر الشمس ( وأنزْلنا عَليهم المنّ ) المطر ضعيفا أو دون المطر أو الندى ينعقد لهم حلوا جافا كالصمغ الرطب ، أو ينعقد عسلا لكنه أبيض كالثلج ( والسَّلْوى ) جمع سلوات ككلم وكلمة وهى السمَّان ، وهى طائر ، ومن كلام فى ذلك فى سورة البقرة •

( كلُوا ) أى وقلنا لهم كلوا ( مِنْ طيِّبات ما رزَقْناكم ) وهى المنّ والسلوى ، وقرأ الأعمش ، وعيسى الهمدانى : ما رزقتكم بالتاء ويطروا النعمة ولم يشكروها ، وملوا من طعام واحد ( وما ظَلَمُونا ) ما ضرونا ببطرهم وكفرهم النعمة ( ولكنْ كانُوا أنفُســهم يظْلمونَ ) يضرون بذلك ، لأنه خلاف ما أمروا به .

( وإذْ ) واذكر فى نفسك أو لقومك إذ ( قِيلَ لَهم ) لبنى إسرائيل حين خرجوا من التيه ( اسْكنُوا هذِه القَريةَ ) قرية بيت المقدس ، وقيل : أريحاء ، وقال فى البقرة : « ادخلوا » والمراد ادخلوها للسكون ولا سكون إلا بعد دخول فالمعنى واحد ( وكلُوا ) وقــال فى البقرة : « فكلوا » بالفاء ، وقال : « رغدا » لأنــه ذكر فيها الدخــول ، وداخل البلد من صحراء يكون أحوج إلى الطعام يعاجله متصلا بالدخول وهو الذلة ، كما تدل لفظة رغدا بخلاف الساكن فيها ، ولذا قاله هنا بالواو لذكر السكون مراعاة للفظ ، وترك الرغد لا يناقض إثباته أو لما أفادت الفاء هنالك تسبب سكناها للأكل منها ، اكتفى عن ذكر ذلك هنا ، أو اكتفى بدلالة الحال .

( مِنْها حَيثُ شِئْتمْ ) ليس موضع منها محجورا عليكم طعامه ، ولا محجورا عليكم الأكل فيه من ثمار وحبوب وغيرها ( وقولُوا ) أخره فى البقرة عن ادخلوا ، ومجرد تقديمه هنا لا يفيد تقدمــه فى الوجود ، ومجرد تأخيره هنالك لا يفيد تأخير وجوده ، وإنما يستفاد ذلك من خارج ، والواو لا تفيد الترتيب ، أو فعل ذلك إيذانا بأنه سواء قدموا أو أخروا ( حِطَّةٌ ) خبر لمحذوف ، أى مسألتنا أو طلبتنا ، أو أمرك حطة ، أى محو الذنوب عنا ، أو أمرنا حطة أى إقامة فى القرية ، وقرأ الحسن بالنصب على المفعولية المطلقة ، أى حط عنّا ذنوبنا حطة فمقول القول

مجموع المحذوف والمذكور ، أو على المفعولية للقول ، أى قولوا هـذه اللفظة أى اذكروهـا مريدين بها حط الذنوب ، فهى هنا مفعول بـه للقول ، وفى كلامهم إذا نطقوا بها مفعول مطلق ، هذا ما ظهر لى فى تحقيق المقام ، ويجوز أن يكون مفعولا به على معنى اذكر لفظة تكون محوا لذنوبكم مثل : لا إله إلا الله هو ، فانظر سورة البقرة .

( وادْخُلوا البابَ سُجَّداً ) أى سجود انحناء حتى تستيطعوا الدخول من الباب ( نَغْفر لكُم ) بسبب دعائكم ( خَطِيئاتكُم ) وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى : نغفر بالنون مفتوحة وكسر الفاء لكم خطيئاتكم باليـاء والهمزة وكسر التاء ، وقرأ ابن عمرو : نغفر بالنون كذلك لكم خطاياكم كالقضايا والوصـايا ، وهى قراءة الحسن والأعمش ، وقيل : قراءة أبى عمرو وهى كقراءة نافع ويعقوب بالتاء والبناء للمفعول ، وجمع السلامة المؤنث ، ورفع تاءه وهى رواية محبوب عنه ، وكذا قرأ ابن عامر ، لكنه أفرد ولم يجمع ، قال أبو حاتم : وقرأ الأعرج بالتاء مفتوحة ، وكسر الفاء ، ونصب خطيئاتكم بالكسرة إلا أن فى تغفر ضمير الحطة إذ هى سبب الغفران .

( سَنَزيدُ المحْسنينَ ) نعما فى الدنيا والآخرة ، ولم يقرن سنزيد بالواو ليدل على أنه تفضل محض ، ليس جزاء مقابلا لما أمروا به ، قيل : هو جواب سؤال ، كأنه قيل : وماذا بعد الغفران فقيل : سنزيد المحسنين ، وقرنه بالواو وفى البقرة لا ينافى ذلك ، ولا يدل عليه بل يحتمله .

( فبدَّل الَّذينَ ظلَمُوا ) أنفسهم ( منْهُم ) أى من بنى إسرائيل وهذا زيادة بيان ( قَولاً غَير الَّذى قيلَ لَهم ) وذلك قيل لهم : قولوا حطة فقالوا : حنطة فى شعيرة ، أو حبة فى شعرة ( فأرْسَلنا علَيهم )

أى أنزلنا بدليل على ، فهو مثل أنزلنا عليهم فى البقرة ، وقيل الإنزال إلقاء بنحو عدد أو كيل مما يدل على تقدير ، فهو مشعر بالقلة ، والإرسال الإلقاء جزافا ، فهو للكثرة ، فهو إما مستعمل بمعنى الإرسال فى البقرة ، أو إشار إلى أن العذاب ينزل أولا قليلا ، ثم يرسل كثيرا .

( رِجْزاً ) طاعونا مات منه فى يوم واحد سبعون ألفا ( مِنَ السَّماءِ بما كانُوا يظْلمُونَ ) بسبب كونهم يظمون ، أو بسبب الظلم الذى كانوا يظلمونه ، وهذه الهاء مفعول مطلق ، والمراد ظلم أنفسهم بالتبديل ، وذلك خروج عن الطاعة ، فهو فسق ، فذلك مثل قوله سبحانه فى البقرة : « بما كانوا يفسقون » .

( وأسْألهم ) اسأل بنى إسرائيل الذين فى زمانك يا محمد ، سؤال توبيخ وتقريع وإقرار ، لا سؤال استخبار ، لأنه صلى الله عليه وسلم عالم بما يسألهم عنه من قديم كفرهم وعنادهم ومجاوزتهم حدود الله ، وإذا أعلمهم بما لا يعلم إلا بوحى ، أو تعليم أو قراءة من كتاب ، وليس بمتعلم من أحد ولا بقارىء كتابة كان ذلك معجزة تدل على أنه رسول من الله ، إذ ما يسألهم عنه وهو الاعتداء كان من أسلافهم ، وعن بعض العلماء : أن اليهود قالوا للنبى محمد صلى الله عليه وسلم : إن بنى إسرائيل لم يكن فيهم عصيان ولا معاندة لما أمروا به ، فنزلت الآية موبخة لهم ومقررة .

( عَنِ القَرْيةِ التى كانت حاضِرة البَحْرْ ) قريبة منه على شاطئه ، غير غائبة عنه ، قيل : ويحتمل أن يكون ذلك تعظيما لها بأنها الحاضرة الذكر فى مدن البحر ، وهى أيلة بين مدين والطور ، وعن ابن عباس : أيلة بين مصر والمدينة ، ولا منافاة ، وإنما ذكرها بطرفين أبعد . وقال فى رواية : هى مدين ، وقال الزهرى : طبرية الشام ، وقال وهب :

هى مقنى بقاف ساكنة بين مدين وعيونا ، وبه قال قتادة ، وقال ابن زيد : مقناة كذلك ، لكن زاد تاء ، ويقال فيها : مغنى بغين معجمة مفتوحة ، ونون مشددة ، والمشهور أنها أيلة به ، وقال السدى ، والثورى ، وعكرمة : والعرب تسمى المدينة قرية ، والقرية عندهم المنازل المجتمعة ، قال المعرى : ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، قال جار الله : يعنى رجلين من أهل المدن .

( إذْ ) بدل اشتمال من المضاف المحذوف ، لأن الأصل عن أهل القرية ، أو عن حالها ، وهو اعتداء أهلها ، أو متعلق بكانت أو بحاضرة ، أو بالمضاف المحذوف إذا قدر هكذا عن خبر القرية ، فإنه يجوز التعليق بلفظ الخبر ونحوه ، مما يدل على حدث ، ولو لم يكن مصدرا ، ولا اسم مصدر ، ولا صفة ، ولا فعلا نص عليه الدمامينى ( يعْدُونَ فى السَّبْت ) يجاوزون حد الله فى اليوم المسمى بالسبت ، وذلك أنهم منعوا من الاشتغال فيه بغير الطاعة ، ومنعوا من الاصطياد فيه منعا أقوى ، ويجوز إبقاء السبت على المصدرية وهو القطع ، فإنهم يقطعون الاشتغال عن أنفسهم فى اليوم بعد الجمعة تعظيما له ، ويقال : سبت اليهود وعظمت يومها بترك الاشتغال ، وقرأ شهر بن حوشب ، وأبو نهيد : يعدون بفتح الياء والعين وتشديد الدال ، وأصله يعتدون ، نقلت فتحة التاء للعين وأبدلت التاء دالا ، وأدغمت فى الدال ، وقرىء : يعدون بضم الياء وكسر العين وتشديد الدال مضارع أعد بمعنى هيأ ، وكانوا يعدون آلة الصيد يوم السبت .

( إذْ ) متعلق بيعدون أو بدل من إذ بدل كل ، أو بدل ثان بدل اشتمال ( تأتيهِم حِيتانُهم ) جمع حوت وهو السمك ( يَوْم سَبْتِهم ) مصدر بمعنى القطع أو التعظيم ، وذلك أنهم يعظمون اليوم بعد الجمعة ،

ويقطعون فيه أشغال الدنيا كما ، ويدل لذلك قراءة عمر بن عبد العزيز إسباتهم بكسر الهمزة مصدر أسبت بمعنى دخل فى القطع ، أو التعظيم ولا تحتمل أن يكون المعنى يوم دخولهم فى اليوم المسمى سبتا ، إذ لا معنى صحيحا لذلك ، لأنه لا يمكن دخول اليوم فى اليوم ، ولا سيما دخول يوم فى نفسه ، ثم ظهر معنى محتمل ، وهو أن يراد باليوم الوقت مطلقا ، لا يقيد كونه الموالى للجمعة ، ولو كان هو المراد .

أو أن يراد أول الوقت من اليوم بعد الجمعة ، إذ بــه يســمعون داخلين فى اليوم يجىء الحوت فى أوله ولا ينقطع حتى يتم وقيل : إذا تم قل ولم ينقطع ( شُرَّعا ) ظاهرة على وجه الماء قريبة منهم ، تنالها اليد ، يقال : شرع أى دنا وأشرف ، وعن الحسن : تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض ، وعن بعض : كأنها المخاض ، أو مصطفة ممتدة ، وروى لا يرى الماء من كثرتها وهو جمع شارع أو شارعة حال من حيتانهم ، والحوت يذكر ويؤنث ، يقال : ظهر الحوت وظهرت الحوت ، لأنه مثل نخل وشجر ، بدل على المصدرية أيضا قوله سبحانه :

( ويَومَ لا يسْبتُونَ ) لا يعظمون أو لا يقطعون الأشغال ، وهو غير يوم السبت ، وقرأ عيسى بن عمر ، وعاصم بخلاف بضم الباء ، وقرأ على والحسن وعاصم : بخلاف بضم الياء وكسر الباء من أسـبت إذا دخل فى التعظيم أو القطع ، وعن الحسن بالبناء للمفعول أى لا يؤمرون بالتعظيم أو القطع ، ويحتمل الفعل معنى الدخول فى ذلك اليوم على تلك القراآت ، ولكن ما ذكرت من المعنى المصدرى أولى ، وإذا جعلنا السبت اسما لليوم فى « ويوم سبتهم » فإضافة يوم إليه إضافة عام لخاص وهى للبيان ، وإضافة السبت للهاء لاختصاصهم بأحكام فيه ، كما تقول

جمعتنا يوم عظيم ، وأضيفت الحيتان أيضا إليهم لظهورها لهم ، ولأنها فى بحرهم على ساحله ، ولأنها بلاء لهم ، ويوم الثانى متعلق بقوله :

( لا تأتيهِمْ ) ولا صدر للا النافية إذا لم تعمل ، والمعنى لا تأتيهم لا كثير ولا قليل ، وقال قتادة : لا تأتيهم شرعا وتأتيهم قليلا ( كَذلكَ ) مثل ذلك الاختبار الشديد ( نَبْلوهُم ) نختبرهم ونحن أعلم بهم ، ويجوز أن يكون الوقف على كذلك ، فتكون الإشارة إلى إتيانها شرعا أى ويوم لا يسبتون لا تأتيهم مثل ذلك الإتيان ، وهو إتانها شرعا ، بل تأتيهم قليلا وتنقطع وتقل أول ليلة الأحد .

( بما كانُوا يفْسُقُون ) بكونهم يفسقون أو بالفسق الذى يفسقونه ، وزعم بعض أن المراد بيوم سبتهم شهر فى السنة هو وقت تعظيمهم الدين ، وترك الأشغال يجعلونه عيدا يجتمع فيه الحوت ما يجتمع فى سائر السنة ، وروى أن اليهود أمروا بالجمعة فتركوه واختاروا السبت فأمرهم الله بأن يشتغلوا فيه بالطاعة ، وحرم عليهم الصيد فيه ، فكان الحوت يكثر ويقل فى غيره حتى لا ينال إلا بتعب ، أو ينقطع فى غيره بالكلية كما مر لما أراد الله من بلائهم ، وذلك إما أن يرسله الله عز وجل يوم السبت كما يرسل السحاب ، أو يوحى إليه بإلهام أو لشعوره بالسلامة فيه ، أو لإشعار الله إياه بها ، وبقوا على ذلك برهة من الدهر ، ثم جاءهم إبليس فقال : إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا حياضا يسوقونها إليها يوم السبت ، ويأخذونها فى غيره ، ولا يقدر على الخروج منها لسدها بالحجر ، أو لصنعه وقيل : قال لهم : لم ينهكم عن الاصطياد ، بل عن الأكل فاصطادوا .

وروى أشهب عن مالك أنه قال : زعم ابن رومان أنه كان الرجل

يأخذ خيطا ويصنع مه وهقة وألقاها فى ذنب الحوت ، ويعلقون الطرف الآخر من الخيط بوتد ، فيأخذه فى الأحد ، فبقوا على ذلك الاحتيال مدة ، ورآى الناس أنهم لا يبتلون فأكثروا صيده ومشوا به فى الأسواق ، وباعوا وملحوا ، وأعلن الفسقة بصيده ، وقالوا : ذهبت حرمة السبت واستبشروا بذهابها ، وقال إنما يعاقب به آباءنا فى زمان موسى ، ثم استسن الأبناء سنة الآباء ، وخافوا العقوبة ولما فعلوا لم يضرهم شىء ، وروى أنهم عملوا بذلك سنين ، وكثر مالهم به ، وتزوجوا .

وروى أن رجلا أخذ سمكة وربط فى ذنبها خيطا إلى خشبة فشواها يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى تنوره فقال له : إنى أرى الله سيعذبك ، فلما لم يره عذب أخذ فى السبت القابل سمكتين ، ولم يروا العقاب عاجلهم فاجترءوا على الصيد ، وقد نهاهم الصالحون من بلدهم وغيره فى كل ذلك واجتهدوا ، ولم ينتهوا ، وكان أهل البلد سبعين ألفا ، فقال الصالحون منهم : لا نساكنكم ، فقسموا القرية بجدار فيه باب ، وللمعتدين باب إلى خارج ، وللصالحين باب كذلك ، فطائفة من الصالحين نهوا بما صعب وما سهل حتى أيسوا من قبولهم فانقطعوا عن النهى ، والطائفة الباقية نهوا كذلك ، ورجوا القبول أو رغبوا ولم ينقطعوا عنه ، فقالت لهم الطائفة المنقطعة : ما ذكر الله عنهم فى قوله :

( وإذْ ) عطف على إذ المضافة إلى يعدون ، أو على المضافة إلى تأتيهم حيتانهم ، سواء علقت بيعدون أو أبدلت من الأولى ، ولا يلزم من عطفها على هذه أن يدخل هؤلاء فى حكم أهل العدوان كما توهم شيخ الإسلام ( قالَتْ طائفةٌ ) هى الناهية المنقطعة ( منْهُمْ ) من جملة أهل البلد للطائفة التى لم تنقطع (لم تعِظُونَ قوماً ) لا يقبلون الوعظ ، ولا ينفع فيهم ، والاستفهام حقيق أو تعجب ( الله مُهلكَهم )

لاعتدائهم وإصرارهم ، مستأصلهم بالموت ( مُعذِّبهُم عَذاباً شَدِيداً ) فى الدنيا ، ومن ورائه عذاب الآخرة ، أو فى الآخرة ، والجملة نعت قوما ، أو مستأنفة لبيان أمرهم فتنكيره تحقير ، وقالوا ذلك على غلبة الظن ، وما عهد من فعل الله فى تلك الأزمان بالأمم العاصية .

( قالُوا ) أى الطائفة التى لم تنقطع عن النهى ( مَعْذِرةٌ ) خبر لمحذوف ، أى موعظتنا معذرة ، أى عذر اعتذار ، فهو مصدر ميمى ، وقرأ حفص فى رواية عنه ، وعيسى بن عمر ، وطلحة بن مصرف بالنصب على أنه مفعول لأجله ، وناصبه محذوف ، أى نعظهم للمعذرة ، أو مفعول مطلق كذلك ، أى نعتذر بوعظهم معذرة ( إلى ربِّكُم ) أيتها الفرقة المنقطعة فلا تنسب إلى بعض تفريط ( ولَعلَّهم يَتَّقُون ) ما هم فيه بالتوبة عنه ، أى وأيضا نطمع فى تقواهم لإمكانه ما لم يموتوا .

( فلمَّا نسُوا ما ذكِّروا بهِ ) ما وعظهم به الطائفتان ، أى تركوا تركا شبيها بزوال الشىء من الحافظة بالكلية ، ويجوز وقوع ما على التذكير ( أنجينا الَّذينَ ينْهوْنَ عَنِ السُّوء ) من نهى وانقطع ، ومن نهى ودام على النهى ، والسوء صيد الحوت يوم السبت ، أو المعصية مطلقا الشاملة لذلك ( وأخَذْنا الَّذين ظَلمُوا ) أنفسهم بمخالفة أمر الله ( بعَذابٍ بئَيسٍ ) أى شديد بكسر الباء وإسكان الياء منقلبة عن الهمزة ، وهو وصف بوزن فعل بكسر الفاء وإسكان العين ، وقال القاضى : يجوز أن يكون فعل ذم وصف به فجعل اسما مجرورا منونا ، وذلك قراءة نافع وأبى جعفر وشيبة وغيرهما من أهل المدينة .

وروى خارجة عن نافع أنه فتح الباء وأسكن الياء وكسر السين منونة ، وقرأ ابن عامر بكسر الباء وهمزة ساكنة بعدها تخفيفا بالنقل وكسر السين منونة ، وقرأ أبو بكر فى رواية عاصم عنه بفتح الباء وإسكان الياء

بعدها وهمزة مفتوحة بعد الياء ، وكسر السين منونة بوزن فيعل ، وبه قرأ الأعمش فى رواية ، وقرأ باقى السبعة بفتح البـاء وكسر الهمزة بعدها أو ياء ساكنة بعد الهمزة وكسر السين منونة ، وهو رواية عن أبى بكر ، ورواه أبو قرة أيضا عن نافع ، ورواه حفص عن عاصم ، وبه قرأ الأعرج ومجاهد ، وأهل الحجاز ، وأبو عبد الرحمن ، ونصر ابن عاصم ، والأعمش فى رواية ، وهى التى رجح أبو حاتم ، وقرأ أبو رجاء بائس كقائل وبائع وسائل .

وروى مالك بن دينار ، عن نصر بن عاصم بيس بباء وياء مفتوحتين وسين مكسورة منونة ، وروى عنه بفتح الباء وكسر الياء وكسر السين منونة ، وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة بن مصرف بباء مفتوحة وهمزة مكسورة وكسر السين منونة ، ونسبها أبو عمرو الدانى إلى نصر بن عاصم ، وقرأ الأعمش فى رواية بئس بباء مفتوحة وهمزة مكسورة مشددة وسين مكسورة منونة ، وقرأت فرقة بئس بباء مفتوحة وهمزة مكسورة وسين مفتحة ، وهو فعل كما روى عن الحسن بيس بباء مكسورة وياء ساكنة وسين مفتوحة ، وقرأ أهل مكة بيس بباء مكسورة بعدها يـاء ساكنة وسين مكسورة منونة ، وكسر الباء تبعا للهمزة .

قال أبو حاتم : هو لغة ، وقرأ عيسى بن عمر والأعمش فى رواية بئيس بباء مفتوحة فياء ساكنة فهمزة مكسورة ، وكسر السين منونة وهو شاذ ، لأن فيعلا بكسر العين بابه المعتل كسيد ، ولكن بعض يعد الهمزة حرف علة ، أو هو من البوس بالواو والباس بالألف بلا همزهما ، وروى نصر ، عن عاصم بيس بفتح الباء وكسر الياء مشددة ، وكسر السين منونة ، وفيها ما فى التى قبلها ، وعن الحسن والأعمش بئس بكسر الباء وإسكان الهمزة وفتح الياء وكسر السين منونة ، وضعفها أبو حاتم ،

وعن الحسن بأس بفتح الباء وإسكان الهمزة وكسر السين منونة ، وقرأت فرقة باس كذلك بألف ، وفرقة بيس بالياء بوزن قعد وهو فعل ، وكذا فى قراءة مالك بن دينار باس بألف بوزن قال •

( بما كانـُوا يفـْسـُقونَ ) بسبب كونهم يفسقون ، أو بالفسق الذى يفسقونه ، وفسقهم الاعتداء فى السبت وغيره من المعاصى •

وزعم بعضهم أن القائلين : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا الطائفة العاصية ، قالوا للناهين : إذا كان الأمر كما تقولون فلم تعظوننا ونحن قوم مهلكون أو معذبون ، والخطاب بالكاف للعاصية ، ويرده بقاء قوله : « ولعلهم يتقون » حينئذ متعطلا ، إلا أن يقال التفات من الخطاب للغيبة ، أو القائلون لم تعظون فرقة من العاصية ، والخطاب لها ، والغيبة فى لعلهم يتقون لجملة العاصين ، وقيل : فرقة عصت وفرقة نهت وهى نحو اثنى عشر ألفا ، وفرقة لم تنه وهى القائلة لم تعظون الخ •

أخبر الله أن الناهين نجوا ، والعاصين هلكوا ، ولم يخبر عـن التى لم تنه ، فقال الحسن وعكرمة وغيرهما : إنها نجت ووجه أنهم لم ينهوا لعلمهم أنه لا يقبل عنهم ، والنهى ساقط إذا علم ذلك ، ويجب الترك إذ كان سببا للتلهى به زيادة عن عدم القبول ، أو لم ينهوا لأن النهى على الكفاية ، وقد نهاهم غيرهم ، وإن قالوا : لم تعظون إلخ بمحضرة العاصين فهو كاف فى النهى عند الحسن إذا ثبتوا لهم الوعيد على فعلهم •

ودخل عكرمة على ابن عباس وهو يقرأ فى المصحف هذه الآية ويبكى ويقول : والله ما أدرى ما فعلت الفرقة الساكتة ؟ فقال عكرمة : جعلنى الله فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا : « لم تعظون قوما الله مهلكهم » وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم ، فاعجبه

قوله ، ورضى به ، وكساه بردين ، وقال نجت الساكتة ، وقال ابن زيد : هلكت الساكتة ، فهذه أشد آيــة فى ترك النهى ، وما ذكرته مــن أنهم افترقوا فرقتين نسبه الطبرى لابن الكلبى ، واختار بعضهم أنهم افترقوا ثلاثا وبين ذلك العذاب البئيس بقوله :

( فلمَّا عَتَوْا ) أفسدوا وعصوا ، وعداه بعن لأنه خروج عــن الحد وتكبر عنه ( عَنْ ما نهُوا عنْهُ ) من ترك الصيد فى يوم السبت ( قُلْنا لَهم كُونوا قِردةً خَاسِئِينَ ) مبعدين عن الخير ، وخاسئين خبر ثان أو حال من الواو أو نعت قردة ، وضعفه أبو الفتح قيل : لأن القصد ليس التشبيه بقردة مبعدات ، فالعذاب البئيس هو المسخ ، فالفاء لتفصيل مجمل ، أو العذاب البئيس عذاب أصابهم ولم ينتهوا ، وجاء بعده المسخ كذا ظهر لى ، ثم رأيته والحمد لله فى الكشاف لكنه اختار الاحتمال الثانى ، وحكى الأول قولا .

وروى ابن الكلبى أنهم كانوا فى زمان داود عليه السلام ، ولعنهم بعد ما نهاهم أشد النهى ، فأجاب الله دعاءه فمســخهم قردة ، ومعنى قوله : « قلنا لهم كونوا قردة » قضينا عليهم بذلك فكانوا ، أو خلق كلمة كن فكانوا عقبها قردة ، أصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد بعد ارتفاع النهــار فقالوا : إن لهم شــأنا ، لعل الخمر غلبتهم فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قرة تتعــاوى ، ففتحوا البــاب وخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها والناس لا يعرفه منها ، وقيل : كل يعرف الآخر فتأتى تشمهم وتتمسح بثيابهم ويبكون ، يفعلون ذلك بأنسابهم فيقولون : ألم ننهكم فيقول برءوسها : بلا ، وقال ابن عباس ، وقتادة : مسخ الشاب قردا والشيخ خنزيرا ، وكذا ما فوق الشاب ،

وروى أن مسخهم كان بعد المعصية فى صيد البحر بعامين ، وبقوا ثلاثة أيام ينظر الناس إليهم وهلكوا جميعا .

وقال الزجاج : قال قوم : يجوز أن تكون هذه القردة من نسلهم ، وأجازوا بقاء الممسوخ أكثر من ثلاثة أيام متعلقين بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن أمة فقدت ولا أراها إلا الفأر » قال الحسن أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها وأثقلها خزيا فى الدنيا ، وأطولها عذابا فى الآخرة ، وايم الله ما حوت ، أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل مسلم ، ولكن الله جعل موعدا والساعة أدهى وأمر .

وزعم مجاهد أنه مسخت قلوبهم لا ابدانهم وذكر فى عرائس القرآن : أنه سئل الحسن بن فضيل : هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا ، والحرام يأتيك جرفا أو جزافا ؟ قال : نعم فى قصة داود وآياته « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » وأن الحوت لم يطق الخروج من الحياض التى حفروها لعمقها وقلة الماء ، وأنه قيل : كانوا ينصبون الحبال يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد ، وأنهم مغرمون بحب الحوت ، وأن أهل القرية كانوا أكثر من سبعين ألفا ، وأن المعتدين قالوا : إنما حرم الصيد يوم السبت على آبائنا لأنهم قتلوا أنبياءهم ، وإن الناهين والساكتين قالوا : والله لانساكنكم ، فقسموا القرية بجدار ، ومكثوا سنتين ، فلعنهم داود عليه السلام لإصرارهم ، وأن الممسوخين برزوا من المدينة وهاموا على وجوههم متحيرين ، وهلكوا لما تمت ثلاثة أيام ، وبعث الله عليهم ريحا ومطرا فقذفاهم فى البحر ، ويعودون يوم القيامة إلى صورهم البشرية ويدخلون النار .

( وإذْ ) واذكر يا محمد إذ ( تأذَّنَ ربكَ ) ويجوز العطف على إذ ، ومعنى تأذَّن علم وهو تفعَّل بمعنى فعل ، فكأنه قيل أذن أو معناه أعلم الملائكة أو غيرهم ، فكأنه قيل آذن بلد كأوعد وتوعد بمعنى ، أو معناه عزم ، والعازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله ، وقال مجاهد : معناه قال ، وعنه معناه أمر ، وقالت فرقة : معناه أقسم ، وعليه فقوله : ( ليبعَثنَّ ) جواب له ، وعلى الأوجه قبله فهو جواب لقسم محذوف ، أو لذلك الفعل ، لأن علم الله وإعلامه وعزمه ، وقوله وأمره متأكدة ، وقد نص غير واحد من النحاة أن أفعال التحقيق كعلم وعزم وحتم وكتب على نفسه تجاب كالقسم ، لأنها فى التأكيد مثله ، لكن وصف الله بالعزم مجاز عبر باللازم وهو الإيذان عن الملزوم وهو العزم ، ومعنى عزمه قضاه وحتمه ، ولا يخفى بعد كون تأذن بمعنى أقسم عن اللغة إلا إن قيل : إنه مجاز .

( عَلَيْهِم ) أى على اليهود مطلقا ( إلى يومِ القِيَامةِ ) متعلق بيبعثن أى يسلطن ، ولذلك عدى بعلى ، ويحتمل أن يكون تعديه بإلى لكون المراد به الاستمرار التجددى ( مَنْ يَسومُهم سُوء العَذابِ ) وقد سامهم بخت نصر وسنحاريب وملوك الروم سوء العذاب ، وكذا غيرهم ، ومازالوا يعطون الجزية للمجوس حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم واستمرت ، ولا يزالون فى ذل ، فسوء العذاب يشمل الذل والجزية ، وكل إهانة وسبى وغنيمة ، ومذ فعل بهم ذلك بخت نصر .

قال ابن المسيب : يستحب أن يتعب اليهود فى الجزية ، ولقد حدثت أن طائفة من الروم افتقرت فباعت اليهود الساكنة معهم ، وأما العزة التى تصيبهم عند الدجال فتدريج إلى إهانة لم تتقدم لهم ، وذلك يعتزون

عنده فيجتمعون عنده ، فيقتل الدجال ويقتلون عن آخرهم ، وزعم بعضهم : أن المراد بهؤلاء الذين يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب من فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده من اليهود ، يسامون بالذل والهوان والجزية ، ونسب هذا لابن عباس ، والصحيح أن المراد اليهود مطلقا فى أى زمان ، ولو كانوا مؤمنين ، لكن من آمن لا يصيبه إلا هذا العذاب الدنيوى ، إلا من آمن فى عصر نبينا أو بعده ، فلا ذل عليه ولا إهانة ولا جزية ، وقيل : المراد من لم ينه .

( إنَّ ربَّكَ لَسريعُ العِقابِ ) وقد عاجل عقابهم فى الدنيا ، ويوصل به عقابهم فى الآخرة ( وإنَّه لغفورٌ رَحيمٌ ) لمن تاب منهم فلا عقاب عليه فى الآخرة ، ولو أصابهم فى الدنيا .

( وقطَّعْناهُم ) فرَّقناهم ( فى الأرْضِ أمماً ) جماعات لا بلد إلا وفيه من اليهود طائفة قليلة أو كثيرة تحت الذمة ، وذلك كسر لشوكتهم ، ولا تقوم لهم راية ، ولا ينفردون بمدينة أو قرية أو محلة ، وأمما حال أو مفعول ثان لقطع لتضمنه معنى صير ( مِنْهم الصَّالحُونَ ) وهم من وراء الصين ، منهم ومن لم يكفر بنبى أو كتاب ( ومنْهُم دُونَ ذَلكَ ) أى قوم ثابتون دون ذلك ، فدون ظرف متعلق بمحذوف نعت لمبتدأ محذوف وهو منصوب على الاستقرار ، قيل ومحله رفع لأنه نائب عن مرفوع ، والإشارة إلى الصلاح أو إلى المذكور من هو الصالحون ، فالذى دون ذلك هو النفاق والشرك ، والمنافقون والمشركون قبل نبينا أو فى عصره أو بعده ، فهم منحطون رتبة عن الصالحين ، وقوله : « منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » استئناف فى معنى غير ما قبله ، ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة فى بيان تفريقهم أمما ، فيكون معنى تفريقهم

أمما جعلهم صالحا وطالحا ، وعلى هذا يجوز أن تكون نعتا لأمما أو بدلا من قطعناهم أمما .

واعلم أن من كان منهم مؤمنا بالأنبياء والكتب كلها فهو المراد بالصالحين ، ومن كان كافرا فهو المراد بدون ذلك فى أى زمان كانوا ، ولا يشترطون فى تقطيعهم أمما وجود الفريقين فى كل عصر ، ولا سيما إذا فسرنا التقطيع بالتفريق فى البلاد ، فلا حاجة إلى قول بعض : إن المراد ما قبل عيسى لوجود المؤمن والكافر فيه ، ولأن من بعده كفار لكفرهم به ، ولا إلى قول بعضهم المراد بالصالحين ودون ذلك من كان منهم بعد بعث نبينا ، ويجوز أن يراد بقوله : « ومنهم دون ذلك » منهم قوم آمنوا وعملوا لكن لم يصلوا درجة هؤلاء .

( وبلَوْناهُم بالحَسَنات ) كالصحة والرزق الواسع ( والسَّيِّئات ) ضد ذلك ( لعلَّهم يرْجِعُونَ ) عن الكفر والمعاصى ، فإن النعمة مرغبة فى طاعة المنعم ، والشدة زاجرة عن معصيته .

( فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهم ) أى من بعد اليهود الموصوفين ، والمراد من بعد من تقدم منهم ، ويدل على هذه الإرادة أن الكلام المذكور على العموم إلى يوم القيامة ( خَلْفٌ ) هو من جملة العموم السابق ، ورجح بعضهم بقوله : « فخلف من بعدهم خلف » قول الطبرى أن المراد بالصالحين من كان قبل بعث عيسى ثابتا على الدين ، وإن قلت : إذا كانت هذه الهاء شاملة لغير المؤمنين ، فما فائدة الكلام ؟

قلت : فائدته التنبيه على فعل سوء من أفعالهم إعظاما له ، وهو أخذ الرشوة ، وإذا جعلنا قوله : « ومنهم دون ذلك » فيمن آمن وعمل

ولم يصل درجة الصالحين المذكورين ، فلا إشكال أصلا ، والخلف بإسكان اللام بدل سوء ، قال لبيد :

ذهبَ الّذين يُعاش فى أكنافهم
وبَقيتُ فى خَلفٍ كجلْدِ الأجرب

يتحدثون مخانة وملاذة
ويعاب قائلهم إن لم يشغب

يقال ولد خلف وقوم خلف ، أى أردياء ، والخلف بفتح اللام بدل خير يقال : ولد خلف وقوم خلف أى صالحون ، وفى الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » ذكر ذلك فى السؤالات ، وأصل الخلف بالإسكان الفساد والتغيير ، خلف اللبن فسد ، وخلف فم الصائم تغير ، وذلك هو الأشهر ، وقد تسكن فى المدح كقول حسان :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا
لا ولنا فى طاعة الله تابع

وليس ضرورة ، وقد تفتح فى الذم قاله أبو عبيدة والزجاج ، ويجوز قراءة بيت لبيد بالفتح ، وكلاهما يطلق على الواحد والجمع ، لأنه مصدر ، وقيل : جمع ، والمراد به فى الآية من يأخذ الرشوة من اليهود قبل سيدنا محمد أو بعد بعثه ، وقيل : المراد الذين فى عصره ، وقال مجاهد : النصارى ، وضعفه الطبرى ، وقيل : بدل السوء من أى ناس جاءوا مفسدين بعد صلاح من صلح من اليهود .

( وَرِثُوا الكِتابَ ) التوراة عمرة قبلهم يقفون على ما فيها ،

ولا يعملون به ، وقرأ الحسن بن أبى الحسن البصرى بضم الواو وتشديد الراء ، فالكتاب مفعول ثان لتعديه بالتضعيف إلى اثنين ، والأول الواو النائب ( يأخُذونَ عَرَضَ هَذا الأدْنى ) متاع هذا الشىء الأدنى الذى هو الدنيا وعرضها متاعها ، والمراد به الرشا على الحكم ، وعلى تبديل كلام الله تسهيلا على الضعفاء والعامة ، وسمى متاع الدنيا عرضا لأنه لا يبقى ولا سيما الحرام كالرشوة ، وفى الحديث : « الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر » وحقره وخسسه بقوله : « هذا الأدنى » حيث أشار إليه إشارة قرب إشارة بعد المنزلة وعلوها ، ووصفه بأنه أدنى أى قريب عاجل يعقبه زوال أو دنى ساقط ، والجملة صفة ثابتة لخلف ، والأولى ورثوا أو حال منه أو من الواو .

( ويقُولُون سيُغْفر لنا ) نائب يغفر أو نائبه ضمير مستتر عائد إلى الأخذ المدلول عليه بيأخذون ، والقول قول بألسنتهم ، أو اعتقاد أو ظن ورجاء ، وعلى الأول فإنما نطقوا بذلك رجاء وظنا أو اعتقادا ، والواو عاطفة أو حالية بتقدير المبتدأ ، أو قد أو بلا تقدير ، وقولهم : « سيغفر لنا » داخل فى جملة الذم من حيث إنهم يقولون : « سيغفر لنا » وهم مصرون على ذلك العرض شديد أو الحرص عليه كما قال ( وإنْ تأتيهِم عَرَضٌ مثْلُه ) على الارتشاء أو التبديل بعد أخذ العرض قبله وبعد قولهم سيغفر لنا ( يأخُذُوه ) وهذه الواو حالية ، وصاحب الحال فاعل ، يقول : أو استئنافية ، والهاء فى مثله عائدة إلى العرض المدلول عليه بقولهم : « سيغفر لنا » لأن المراد يغفر لنا أخذ عرض خاص أخذناه ، وهو جميع ما أخذوا ، أو إلى العرض المذكور قبل ، لأنه مراد به الحقيقة ، فهذا الضمير إلى حصة منها .

وقال السدى : المعنى أنه إن يأتهم عرض مثل العرض الذى أخذه

الحكام المتقدمون عليهم ، أخذوه وكانوا لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى ، فيقال له : مالك ترتشى ؟ فيقال : سيغفر لى ، وإذا استقضى من كان يظعن عليه ارتشى أيضا .

( أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثَاقُ الْكِتَابِ ) المذكور وهو التوراة ( أن لا يَقُولُوا ) إن مصدرية ، والمصدر بدل ميثاق أو عطف بيان عليه ، أو مقدر بالباء او بلام التعليل متعلقة بيؤخذ أو بميثاق ، ولا نافية ، ويجوز كونها ناهية ، فأن مفسرة أو مصدرية على الأوجه المذكورة ، بناء على جواز دخولها على الأمر والنهى ، وقرأ الجحدرى : أن لا تقولوا بالفوقية على طريق الالتفات ، وإن روعى جانب معنى القول فيما قبلها فلا التفات ، كأنه قيل ألم تقل لهم لا تقولوا .

( عَلَى اللهِ إلا الحقَّ ) وهو ما فى التوراة لا يملككم الهوى وحب العرض عنه ، ومعنى أخذ الميثاق عليهم إلزام الله إياهم العمل بما فى التوراة ، وكأنهم قالوا : نعم نعمل ، لأنه لا اختيار لهم فى فرض الفرائض أو أخذه إذ خرجوا ذرًّا من ظهر آدم ، فالكتاب ما يحكم الله به ، أو قالوا لموسى : لو أنزل الله عليك كتابا نعمل بما فيه ، أو قال لهم موسى : ينزل الله كتابا ، فقالوا : نعم نعمل به .

( ودَرَسُوا ما فيهِ ) عطف على ما بعد همزة الإنكار أو التقرير ، فيتسلط عليه الإنكار أو التقرير ، وكأنه قيل : لستم غير دارسين ، أو قيل : أقروا بالدرس ، أو عطف على ورثوا ، فيكون « ألم يؤخذ » الخ معترضا ، ولا يضعف هذا بالبعد كما قال بعض ، لأنه بعد غير مفرط ، ولا بأن قوله : « ودرسوا ما فيه » ليست فيه إقامة الحجة كما قال البعض ، بل إقامتها وزيادة ذم ، كأنه قيل : ورثوا الكتاب ودرسوه ،

ومع ذلك كله خالفوه ، ولا يضعف بزوال إقامة الحجة بالتقرير بالهمزة قبله ، لأنه لا ضير فى زوالها عن هذا الكلام .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وادارسوا ، الأصل تدارسوا أبدلت التاء دالا وسكنت وأدغمت فجىء بهمزة الوصل ، وقد خالفوا التوراة رضاء لأكابرهم وسلاطينهم ، واتباعا للهوى ، وحبا للعرض ، ومن مخالفتهم قولهم : سيغفر لنا ، مع أنهم لم يتوبوا ، وفى التوراة أن من ارتكب ذنبا عظيما لا يغفر له إلا بالتوبة وقد درسوه ، وفى الحديث : « الكيس — أى الحاذق المشمر — من دان نفسه — أى ذللها للأوامر والنواهى أو حاسبها — وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » فهؤلاء اليهود عاجزون إذ خالفوا كتاب الله ، وتمنوا المغفران ، وهم لم يتوبوا ، والمرجئة إخوانهم فى ذلك إذ قصروا عما أمروا بـه قالوا : سيغفر لنا ، لأنا لم نشرك بالله شيئا ، كل أمرهم إلى الطمع خيارهم فيه المداهنة كما قاله مالك بن دينار رحمه الله ، قال الحسن : لو عرضت لليهود الدنيا ومثلها معها لاصطلموها ولتمنوا المغفرة مع ذلك .

( والدَّارُ الآخرةُ ) الجنة ( خيرٌ للَّذين يتَّقُون ) المحارم مما يأخذ هؤلاء ( أفلا تعْقِلونَ ) أنها خير فيتقوا بترك العرض وغيره من المحارم ، وهو بالتاء الفوقية على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقرأ غير نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتحتية .

( والَّذينَ ) مبتدأ ( يُمسِّكُون ) من اليهود ، وقرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأبو العالية ، وأبو بكر بإسكان الميم مضارع أمسك ، وقرأ أبىّ : والذين مسكوا بالتشديد ، والمعنى واحد من حيث إن أمسك بالهمـز ، ومسّك بالشـد بمعنى ، وقرأ ابن مسـعود الأعمش والذين

استمسكوا ( بالكتَابِ ) القرآن ، آمنوا به وعملوا بما فيه ، ككعب وابن سلام ( وأقامُوا الصَّلاة ) إقامتها داخلة فى التمسك بالكتاب ، لكن أفردها بالذكر لشرفها على سائر أنواع التمسكات بعد الإيمان ، وقوله : ( إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ المصْلحِينَ ) خبر المبتدأ والرابط المصلحين ، فإنه ظاهر وضع موضع الضمير ، أى إنا لا نضيع أجرهم ، فهو من الربط بإعادة المبتدأ بمعناه قاله الأخفش ، وأنكره غيره •

ونكتة وضعه موضع الضمير أن الإصلاح كالمانع من التضييع ، وإن فسرت المصلحين بكل مصلح من اليهود أو غيرهم فالرابط العموم ، وأجيز كون الخبر محذوفا ، أى مأجورون دلت عليه الجملة ، ذكره ابن هشام ، وأما أن يقدر المصلحون هم المتمسكون المقيمون ، ويقدر الرابط محذوفا ، أى المصلحين منهم ، فلا يصح لأن هؤلاء كلهم مصلحون إلا إن جعلت من المقدرة بيانية لا تبعيضية ، ويجوز عطف الذين يمسكون على الذين يتقون ، وما بينهما معترض عطف خاص على عام ، لأن الذين يتقون شامل للمتقين قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم •

( و ) اذكر يا محمد ( إذْ نَتَقْنا ) رفعنا كما فى الآية الأخرى ، وأصل النتق الجذب واقتلاع الشىء ، وانانتق الرحم التى تجلب الولد من الرجل ، قال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بتزوج الأبكار فإنهن انتقى أرحاما وأطيب أفواها » ( الجَبَلَ ) قال ابن عباس فى رواية عطاء : هو جبل الطور كما ذكر فى لآية الأخرى بلفظ الطور ، لكن ليست نصا فيه ، لأن الجبل مطلقا يسمى طورا فقيل : هو جبل الطور ، وقيل : جبل من الجبال لا ندرى ما هـو ، وقيل : جبل من فلسطين ، وعليـه أبو العالية عن ابن عباس ( فَوْقَهم ) بينهم وبين رءوسهم قامة الرجل •

( كأنهُ ظُلَّة ) هى كل ما أظلك وأشرف عليك من سقف أو سحاب

أو غيرهما ، فإنما شبهه بالظلة مع أنه ظلة ، لأن الجبل ليس مما يكون ظلة فى العادة ، فشبه بالظلة التى اعتادوها كسقف وسحاب ، أو المراد الظلة التى هى أشهر وأشد اعتيادا وهى السقف المعتمد على نحو جدار فصح التشبيه ، فيكون شبه بظلة كانت عمدا ، وقرىء طلة بالطاء المهملة ، والمعنى واحد ( وظَنّوا ) رجحوا ، وقيل : أيقنوا ، وعليه الجمهور ولا وجه له إلا إن علق الإيقان بعدم قبول التوراة ، ثم رأيت شيخ الإسلام وجهه بهذا ، والحمد لله ، وعليه فإنما عبر بالظن ليناسب عدم وقوع الجبل ، فإنه لم يقع ( أنّه واقعٌ بِهِم ) أى عليهم أو الباء للإلصاق .

( خُذُوا ) قلنا لهم خذوا ، فالكلام مفعول لقول محذوف على الاستئناف ، أو قدر بعاطف ، أى وقلنا أو فقلنا ، أو يقدر حال من نا فى قوله : « نتقنا » أى قائلين خذوا الخ ، والقائل الملك أو موسى بأمر الله ( مَا آتيْناكُم ) وهو التوراة ( بقوّةٍ ) متعلق بخذوا ، أو بمحذوف حال من الواو ، والقوة الجد والعزم على تحمل مشاقه ( واذكُرُوا ما فيهِ ) من الأمر والنهى والقدرة ، وغير ذلك ولا تنسوه ، واعملوا به ، أو اذكروه بالعمل ولا تتركوه ، أو اذكروا ما فيه من الثواب العظيم فترغبوا ، وزعم جار الله أنه يجوز أن يكون ذلك تعجيزا كقوله : « فانفذوا » وقرأ الأعمش فيما حكى عنه أبو الفتح : واذكروا بتشديد الذال وكسر الكاف ، الأصل اذتكروا بوزن افتعلوا ، قلبت التاء ذالا وأدغمت فيها الذال ، وقيل عنه : إنه قرأ واذكروا بفتح الكاف وهو أيضا أمر أصله تذكروا ، أبدلت التاء ذالا وسكنت وأدغمت فى الذال ، فجىء بهمزة الوصل ، وقد قرأ ابن مسعود : وتذكروا على هذا الأصل .

( لعلّكُم تتّقُونَ ) قبائح الأعمال والأخلاق ، ولعل للترجى بالنسبة إليهم ، أو للتعليل ، وفى عرائس القرآن : كانت التوراة شريعة

ثقيلة فأبوا أن يعملوا بها ، فأمر الله جبريل فقلع جبلا على قدرهم ، وكان فرسخا فى فرسخ ، ورفعه فوقهم ، قال عطاء ، عن ابن عباس : وبعث نارا من قبل وجوههم ، والبحر من خلفهم ، وقيل لهم : « خذوا ما آتيناكم بقوة » فإن قبلتموه وفعلتم به ، وإلا رضختكم بهذا الجبل ، وغرقتكم فى هذا البحر ، وأحرقتكم بهذه النار ، فلما رأوا أن لا مهرب قبلوا ذلك وسجدوا على شق وجوههم ، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود ، فصارت سنة اليهود ألا يسجدوا إلا على نصف وجوههم ، ولما زال الجبل قالوا : يا موسى سمعنا وأطعنا ، ولولا الجبل ما أطعناك اه .

وروى : أنهم لما نظروا إلى الجبل خروا سُجداً على الخد الأيسر الحاجب الأيسر ناظرين بالعين اليمنى للجبل خوف السقوط ، فلذا لا ترى يهوديا يسجد إلا على الخد والحاجب الأيسرين ، ويقولون لعنهم الله : هى السجدة التى رُفعت عنا بها العقوبة ، ولما نشر موسى الألواح لم يبق شجر ولا حجر إلا اهتز لما كتب فيها ، فلا ترى يهوديا يقرأ التوراة إلا اهتز ورفع رأسه وخفضه .

وروى : أن موسى لما جاء بالتوراة قال عن الله : هذا كتاب الله أتقبلونه بما فيه ؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم ، وما أمركم به وما نهاكم عنه ؟ قالوا : انشر علينا ما فيها ، فإن كانت فرائضها يسيرة ، وحدودها خفيفة ، قبلناها ، قال : اقبلوها بما فيها ، قالوا : لا ، فراجعهم موسى فراجعوه ثلاثا ، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع وارتفع فوق رءوسهم ، فقال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى ، لئن لم تقبلوا بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل ، فلما رأوه خروا سُجداً على الحاجب والخد الأيسرين ، ناظرين إليه بالعين اليمنى مخافة السقوط .

( وإذْ ) عطف على إذ قبله ( أخذَ ربُّكَ ) أخرج ( مِنْ بَنِى آدمَ )

فى زمانك وقبله اليهود وغيرهم ، أو المراد اليهود الماضية الذين أشركوا بقتل الأنبياء ، وقولهم : عزير ابن الله ، وغير ذلك ، لأن الكلام قبل وبعد فى اليهود ، والذرية ذريتهم مطلقا ، وقيل : ذريتهم فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ( مِنْ ظُهُورِهِم ) بدل بعض ، لأن ظهر الإنسان بعضه لا بدل اشتمال كما قال السيوطى ( ذُرِّيَّاتِهِم ) وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى ذريتهم بالإفراد وفتح التاء ، والمعنى أخرج من أصلابهم نسولهم فى الأوقات التى علم الله بها فى الأزل أنهم يخرجون فيها .

( وأشْهَدَهم عَلَى أنفُسِهِم ) أظهر لهم دلائل الوحدانية والربوبية ، وأوضحهما حتى شهدت بهما عقولهم ، فهذا إشهاد حقيق ، أو ركب فى عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بهما ، حتى كأنه أشهدهم إشهادا ولقوة الإظهار والإيضاح صاروا بمنزلة من قيل لهم ( ألَسْتُ بِرَبِّكُم ) وبالمنفرد بالألوهية ، ونزل شهادة عقولهم أو تركيب ما يدعوهم إلى الإقرار فيها منزلة القول فقال : ( قَالُوا بَلَى ) أى أنت ربنا وإلهنا وقوله : ( شَهِدْنا ) إنك ربنا وإلهنا ، تأكيد لمعنى بلى ، فذلك كله مجاز مركب استعارة تمثيلية ، وهى أن تؤخذ أمور متعددة من المشبه ، وتجمع فى الخاطر ، وكذا من المشبه به ، ويجعل المجموعان متشاركين فى مجموع متنزع يشملهما ، وذلك فى الكلام العربى شائع كقوله سبحانه :« إنما قولنا لشىء » الخ « فقال لها » إلى « طائعين » إذ قلنا إنه لا قول ، ثم وقول الشاعر :

وقالت الأنساع للبطن الحق
قالت لـه ريح الصباء قرقار

وهذا تحقيق المقام ، وفسره بعضهم بل الجمهور بأنه لما خلق الله

آدم أخرج من ظهره ذرية كالذر متحركة ، السعداء بيض ، والأشقياء سود ، وروى كالخردل ، وعن محمد بن كعب : أنها الأرواح جعلت بصورة ذلك ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « أنه أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس » وعن ابن عباس : أخرجها بعد هبوطه بدهناء أرض الهند ، وعنه : بنعمان وهو عرفة ، وقيل : عرفة وما يليها ، وقيل : جبل وراءها .

وقال السدى : إن ذلك فى السماء بعد دخول الجنة ، وأنه مسح صفحة ظهره اليمنى فخرج كهيئة الذر بيضا ، وقال : إلى الجنة برحمتى ، وهم أصحاب اليمين ، وبعمل أهلها يعملون ، ثم على اليسرى فخرج كهيئة الذر سودا ، وقال : إلى النار ولا أبالى ، وبعمل أهلها يعملون كما فى الحديث : « إن السعيد يختم له بعمل أهل الجنة والشقى بعمل أهل النار فهم أصحاب الشمال » وأعادهم فى صلبه وقد عرفه أنهم ذريته ، ولم يبق واحد منهم لم يخرج .

وروى : ضرب على منكبه ، وفى رواية مسح بيمينه على ظهره ، وكل من المسح والضرب ونحوه عبارة عن إيجاد الذرية منه فى الخارج ، واليمين القدرة أو الماسح ، والضارب ملك بأمر الله ، وأصل الحديث رواه عمر وابن عباس رضى الله عنهم ، وفسرا به الآية مع أنه ليس فى الآية ذكر آدم ، ووجه بعضهم ذلك بأن الإخراج من ظهر آدم الذى هو الأصل إخراج من ظهور بنيه الذين هم الفرع ، وهذا رد للآية إلى الحديث ، وبعضهم بأن المخرج من ظهورهم مخرج من ظهره ، لأن بنى آدم من ظهره ، وهذا رد للحديث إلى الآية ، وعلى كل حال فذرياتهم مفعول أخذ ، وقيل : بدل اشتمال من بنى آدم بدل البعض ، ومفعول أخذ محذوف أى عهدا أو ميثاقا ، وهذا رد للآية إلى الحديث ، ولا يلزم

من كون الأخذ من الذرية عدم الأخذ من الآباء ، بل أخذ من الكل كما بينه الحديث ، ولو لم يذكر فى الآية إلا الذرية .

ووجه الاقتصار عليها فى الآية على هـذا أن المراد إلزام اليهود بمقتضى الميثاق العام بعد إلزامهم بالميثاق الخـاص بهم والمذكور فى الآية قبل ، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ، والتحقيق تفسير الآية بما فسرتها به الاستعارة التمثيلية ، وأشار إليه الزجاج ، ونسبه لقوم ، وزعم بعضهم أنه ضعيف مناف للحديث ، وأقول : إنه لا يخفى أنه غير مناف له ، لأن الحديث فى حال خروجهم كالذر ، والآية فى زيادة ميثاق آخر مذكر للأول ، فلا يقولون : إن الأول إن كان فقد نسيناه ، وقد ثبت أنه لمـا أخرجهم كالذر أشـهدهم على أنفسـهم ، وأشهد عليهم فيما قيل : السموات ، قيل : والأرض ، وأشهد الملائكة وقيل : أنفسهم والملائكة ، وقيل : أشهد بعضهم على بعض ، وأنـه المراد فى الآية .

وقرأ السعداء رضى ، والأشقياء تقية وسأرسل إليكم رسلا بكتب تذكركم عهدى وميثاقى ، وكتب أرزاقهم وآجالهم ، وما يصيبهم ، ومنهم غنى وفقير ، وحسن وقبيح ، وأبيض وأسود ، وغير ذلك ، فقال آدم : هلاَّ سويت بينهم ؟ فقال : أحب أن أشكر ، ومن بلغ وصح عقله فقد أدرك الميثاق الأول والثانى ، ومن لا فهو إلى الجنة ، ولو كان ولد مشرك أو منافق على ما صحح ، ولو كان المشـهور الوقف وذر الأنبياء بين الذر كالمصابيح ، وبين عينى كل إنسان وبيص أى لمع وبرق ، فأعجب آدم وبيص إنسان منهم فقال : يا رب من هذا ؟ فقال : نبى من ذريتك اسمه داود .

وفى العرائس : أنه عرض على آدم ذريته حين خرجت ، فرأى قوما

عليهم نور فسأل فقيل : أنبياء ، ورأى داود أشدهم نورا فسأل عنه كما مر ، وهو مشكل ، فإن نبينا أولى بأن يكون أعظم نورا ، فقال : كم عمره ؟ قال : ستون سنة ، فقال : يا رب زده من عمرى أربعين ، وكان عمر آدم ألفا ، ولما مضى له تسعمائة وستون أتاه ملك الموت فقال : بقى لى أربعون سنة ، فرجع إلى الله فقال : قل له ألم تعطها ابنك داود ؟ فقال : لا ، وذلك منه نسيان ، فكنا ننسى ، وأكل من الشجرة التى نهى عنها فكنا نخطىء ، وأحضر الله الملائكة شهودا بالإعطاء ، ومن ذلك أمر له بالكتابة والشهادة ، وأكمل الله له ألفا ولداود مائة ، وقد علم الله فى الأزل مال الأمر إلى ذلك ، وقيل قوله : « شهدنا » من قول الملائكة لما أشهدهم الله ، وقال السدى : من قول الله والملائكة ، وعليهما فالوقف على بلى .

( أنْ تقُولُوا ) مفعول لأجله لأشهدهم ، أو لفعلنا ذلك محذوفا على حذف مضاف ، أى حذر أن تقولوا أو كراهة أن تقولوا ، أو مقدر بلام التعليل ولا النافية على ضعف عند ابن هشام ، ويعلق بأشهدهم أى لئلا تقولوا ، والخطاب التفات من الغيبة ، وإن جعلناه مفعولا لأجله لشهدنا أو مقدرا بلام متعلقة به ، على أن شهدنا من قول الملائكة ، أو من قولهم وقول الله ، فلا التفات ، وقرأ أبو عمرو ، وابن عباس ، وابن جبير ، وابن محيصن بالتحتية ( يَومْ القيامةِ إنَّا كنَّا ) فى الدنيا ( عَنْ هَذا ) أى عن هذا العهد المتضمن للإيمان والطاعة ، الذى عهدناه أولا ( غَافِلِينَ ) لم ننبه عليه برسول ولا كتاب . .

( أو تَقُولوا ) عطف على تقولوا وقرأ هؤلاء أيضا بالتحتية ( إنَّما أشْرَكَ آبَاؤنَا مِن قَبْلُ وكنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِم ) مقتدين بهم ( أفتَهلِكُنا بما فَعَلَ المبْطِلُون ) الآباء الذين أسسوا الشرك حتى قلدوهم فيه ، وبتذكيرهم بالرسل والكتب ، لم يصح أن يقولوا : غفلنا

ونسينا ، ولا أن يقلدوا الآباء وينسبوا الذنب إليهم ، لأن التقليد مع قيام الدليل ، والتمكن من العلم به ، لا يكون عذرا عقلا ولا شرعا ، فالآية تتضمن قطع عذر كل مشرك ، ومنع التقليد ، وإن فرضنا إنسانا فى جزيرة لم يلق من يتعلم منه التوحيد ، فليس بمعذور ، لأن الله سبحانه قد نصب له دلائل التوحيد ، فلو عمل بها لنجا فهى مذكرة له للعهد الأول ، قال أبو بكر الطرطوشى : إن هذا العهد يلزم البشر ، وإن كانوا لا يذكرونه فى هذه الحياة ، كما يلزم الطلاق من شهد عليه وقد نسيه .

( وكذَلكَ ) مثل ذلك التفصيل ( نُفصّلُ ) وقرىء بالياء ( الآياتِ ) نوضحها أو ننوعها إلى سمعية وعقلية ( ولَعلّهم ) ترج بالنظر إليهم ، أو تعليل ( يرْجعُونَ ) عن الباطل من كفر وشرك وتقليد وسائر المعاصى .

( واتْلُ عَلَيْهِمِ ) على بنى إسرائيل أو عليهم وعلى غيرهم من الكفار قولان ( نَبَأَ ) خبر ( الَّذِى آتيْناه آياتِنا ) هو بلعام بن باعوراء عند ابن عباس ، أتاه الله بعض علم الكتب المنزلة ، وكان يحسن اسم الله الأعظم فلا ترد له دعوة دعا به فيها ، وعن بعضهم : كان عنده علم من صحف إبراهيم ونحوها ، وفسر بعضهم الآيات بالاسم الأعظم ، لأنه عبارة عن دعاء فيه اسم من أسماء الله ، أو لتضمنه دلائل ، وزعم بعضهم عن مجاهد أنها آيات النبوة ، وكان مرشحا لها ، وهذا خطأ ، فإن النبى معصوم ، ومن كان عند الله نبيا لم يخرج عن النبوة ، وقيل فى اسمه : بلعم بدون ألف ، وقال مجاهد : بلعام بن عابر ، وقال ابن مسعود : ابن إبر ، وهو من بلد الجبارين من الكنعانيين قاله ابن عباس .

وروى عنه : أنه من بنى إسرائيل ، وعن مقاتل أنه من البلقاء ، قال ابن مسعود : هو من بنى إسرائيل وهو المشهور فيما قيل ، بعثه

موسى إلى ملك مدين بآيات علمه إياهن ، يدعوه إلى الإيمان ، ولما وصل رشاه الملك على أن يترك دين موسى ويتبع دين الملك ففعل ، ففتن بـه الناس ، وقيل : عالم من بنى إسرائيل ، وقيل : هو أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وكان قد قرأ الكتب القديمة ، وكان صاحب شعر وحكمة ومواعظ حسان ، وقيل : البسوس أعطاه له ثلاث دعوات يجاب فيهن سيأتين ، وقيل : عامر بن النعمان ، كان يعرف شيئا من دين إبراهيم وزاد فيه .

( فانْسَلَخ ) خرج ( مِنْها ) بعمله بغير مقتضاها كانسلاخ الشاة من جلدها ، قال ابن عباس : خرج من العلم ( فأتْبعه الشَّيْطان ) أى تبعه فهو من الرباعى الموافق للثلاثى ، لكنه أبلغ منه ، أو المعنى أنه أدركه ، وكان قرينه ، يقال : تبعه حتى أتبعه أى لحقه ، أو الهمزة للسلب أى أزال عنه تبع الآيات أو للتعدية ، فالثانى محذوف أى اتبعه الضلالة أو للصيرورة ، أى صار الشيطان تابعا له لا يفارقه يضله ويغويه ، وقرأ الحسن فى رواية هارون عنه وطلحة بن مصرف فى رواية بوصل الهمزة وتشديد التاء .

( فَكانَ مِنَ الغَاوِينَ ) الضالين ، قال فى عرائس القرآن : قال أكثر المفسرين : الآية فى بلعام بن عوراء بن عامر بن مازن بن لوط عليه السلام من الكنعانيين من مدينة البلقاء ، وهى مدينة الجبارين ، وسميت بلقاء لأن ملكها يقال له بالق بن ضافوراء .

وكانت قصة بلعام على مـا ذكره ابن عباس ، وابن إسـحاق ، والسدى ، والكلبى وغيرهم : إن موسى لمـا قصد حرب الجبارين ، ونزل أرض كنعان من أرض الشام ، أتى قوم بلعام إلى بلعام ، وكان عنده اسم الله الأعظم ، فقالوا له : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة ،

وقد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ، ويحلها بنى إسرائيل ، وإنّا قومك وجيرانك وبنو عمك ، وليس لنا ملجأ ، وأنت رجل مجاب الدعوة فاقدم علينا وأشر علينا فى أمر هذا العدو الذى رهقنا ، وادعو الله أن يرده عنّا ، فقال : ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم ؟ وإنى أعلم من الله ما أعلم ، وإنى إن فعلت هذا ذهبت عنى دنياى وآخرتى ، فلم يزالوا به حتى قال : اصبروا حتى أُآمر ربى ، وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام ، فقيل له فى المنام : لا تدع عليهم ، فقال لهم : آمرت ربى فنهيت عن ذلك ، فراجعوه فقال لهم : حتى أُآمر ثانية ، وأمر فلم يجب إليه فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك فى المرة الأولى ، فلم يزالوا به حتى افتتن ، ويقال : إنهم أهدوا إليه هدية فقبلها .

وروى أن بلعام لما أبى أن يدعو على موسى ، اجتمع قومه على أن يحملوا شيئا لامرأته لأنها فقيرة ، وأنه لا يصـدر عن رأيها ، فانطلق عشرة من عظمائهم ، وعمل كل واحد منهم صفحة من ذهب وملأها ورقا ، فقبلت ذلك ، فأقبلت على زوجها وألحت وقالت : راجع ربك واسأله أن يأذن لك فى مؤازرتهم والدعاء لهم على عدوهم ، فلم تزل به حتى آمر فلم يجب بشىء ، فقالت له : لقد خيرك فى الدعاء عليهم ، ولو لم يأذن لك ربك لنهاك ، قالوا : فركب متوجها إلى جبل [ من ] يطلعه يشرف على بنى إسرائيل يقال له جبل حسبان ، وكانت مراكب الأولين الأتن ، فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت به فنزل عنها فضربها ، فقامت فركبها ، فسارت غير بعيد فربضت فنزل عنها فضربها ضربا شديدا ، فأنطقها الله حجة عليه قالت له : ويحك يا بلعام أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا ، تذهب إلى الدعاء على نبى الله والمؤمنين ، فخر ساجداً فلم يزل باكيا متضرعا حتى غاب عنه الملائكة .

فجاء الشيطان فقال امض فإن ربك أذن لك ، ولو لم يأذن لك ما ذهبت الملائكة وما خلى سبيلها ، فانطلقت به حتى إذا أشرفت على جبل حسبان ، وجعل لا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل ، فقال له قومه : أتدوى يا بلعام ما تصنع ، وكانوا معه فى الجبل ، فقال : هذا ما لا أملك قد غلبنى الله عليه ، فاندلق لسانه واقعا على صدره ، فعلم ما حل به فقال لقومه : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم ، زينوا النساء وأعطوهن السلع وأرسلوهن إلى العسكر يبعنها ، ومروهن أن لا يمتنعن ممن أرادهن ، فإنه إن زنى رجل واحد منهم كفيتموهم ، ففعلوا فمرت امرأة منهم اسمها كستا بنت صور برجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له زمر بن شالوم ، وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب ، فأعجبته فأخذ بيدها فأقبل بها حتى وقف على موسى فقال : أظنك تقول هذه حرام علىّ ؟ فقال : نعم هى حرام عليك لا تقدر بها ، قال : فوالله لا نطيعك فى هذا ، ودخل بها قبته فوقع عليها ، فأرسل الله الطاعون على بنى إسرائيل فى الوقت .

وكان فنحاص بن العيزار صاحب موسى ، قد أعطى بسطة فى الخلق ، وقوة فى البطش ، وكان غائبا حين صنع زمر ما صنع ، فأخبروه فأخذ حربته ، وكانت من حديد كلها ، فدخل عليهما القبة وهما متضاجعان ، فانتظمهما بحربته وخرج بهما ، ورفعهما إلى السماء والحربة قد أخذت بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته ، وأسند الحربة إلى لحيته وجعل يقول : اللهم هكذا نصنع بمن يعصيك ، فرفع الطاعون ، فوجد من مات بين إصابة زمر المرأة وقتلهما سبعين ألفا ، وذلك فى ساعة ، فمن ذلك تعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة وهى الخاصرة وما يليها إلى الفرج والذراع واللحى ، لاعتماده على

خاصرته بالحربة ، وأخذ إياها بذراعه وإسناده إياها على لحيه ، والبكر وهو الجمل الصغير الشاب ، لأنه كان بكرا لأبيه ألعيزار .

وقال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام : ادع الله على موسى ، فقال : إنه من أهل دينى لا أدعو عليه ، فنصب له خشبة ليصلبه عليها ، فلما رأى ذلك خرج على أتانه ليدعو عليه ، فلما عاين عسكرهم وقفت الأتان فضربها فقالت : لم تضربنى أنا مأمورة فلا تظلمنى ، وهذه الملائكة أمامى قد منعتنى أن أمشى ، فرجع إلى الملك فأخبره ، فقال : لتدعون عليه أو لأصلبنك ، فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة ، فاستجيب له ، ووقع فى التيه بدعائه ، فقال موسى : يا رب بأى ذنب وقعت فى التيه ؟ فقال : بدعاء بلعام ، فقال : يا رب كما سمعت دعاءه فاسمع دعائى ، فدعا عليه أن ينزع منه الاسم الأعظم ، قيل : والإيمان ، فنزع منه المعرفة ، خرجت من صدره كحمامة بيضاء اه كلام عرائس القرآن .

وأظن هذه القصة إسرائيلية ، فإن صحت فما دعا موسى عليه بنزع الإيمان إلا بإذن الله له فى الدعاء ، أو بعد إخباره بأنه كفر مرتد شقى ، وإيمانه ضرر على غيره ، والصحيح أن سبب التيه قولهم : « اذهب أنت وربك فقاتلا » أو قولهم : « اجعل لنا إلهاً » أو عبادة العجل ، قال فى عرائس القرآن : وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، وزيد بن أسلم ، وأبو روق ونسبه غيره إلى سعيد بن المسيب : نزلت الآية فى أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وكان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله يرسل رسولا فى الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول ، ولما أرسل الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم حسده وكذبه ، وكان قد قصد إلى بعض

الملوك ، ولما رجع مرّ على قتلى بدر بعد الوقعة بيوم أو نحوه ، فسأل عنهم فقيل : قتلهم محمد ، فقال : لو كان نبيا ما قتل أقاربه .

وروى : أنه جاء يريد الإسلام ، فوصل إلى بدر بعد الوقعة بيوم أو نحوه ، فقال : من قتل هؤلاء ؟ فقيل : محمد ، فقال : لا حاجة بدين من قتل هؤلاء ، فرجع وقال : الآن حلت لى الخمر ، وكان قد حرمها على نفسه ، فلحق بقوم من ملوك حمير فنادمهم حتى مات ، ولما مات أتت أخته فازعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحدثته عن وفاة أخيها فقالت : بينما هو راقد أتاه اثنان فكشطا سقف البيت ونزلا ، فقعد أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، وقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : أوعى ؟ قال : وعى ، فقال أذكى ؟ قال : ذكى قلت : لعلهما شيطانان ، لأنه ليس بذكى ، لأنه مكذب فسألته عن ذلك قال : خير أريد بى ، فصرف عنى ثم غشى عليه ولما أفاق قال :

كل عيش وإن تطاول دهراً
صائر مرة إلى أن يزولا

ليتنى كنت قبل ما قد بدالى
فى قلال الجبال أرعى الوعلا

إن يوم الحساب يوم عبوس
شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها : « أنشدنى من شعر أخيك » فأنشدت :

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا
ولا شيء أعْلَى منك حداً وأمجدا

ومن قصيدة طويلة حتى أتت على آخرها ثم أنشدت قصيدته التى هى :

عنــد ذى العرش تعرضون وقــد
يعلم مــا كــان جهركم والخفيــا

يوم نأتى الرحمن وهــو رحيم
إنــه كـــان وعـــده مأتيا

يوم نأتيه مثل مـــا قال فردا
ورشــــيداً بعض وبعض غــويا

وســعيداً ســعادة أنا أرجــو
ومهــاناً بكســـبه وشـــقيا

إن أخذت بمــا اجترمت فــإنى
ســوف ألقى من العذاب قويــا

رب إن تعف فالمعـــافاة ظنى
أو تعاقب فلم تعاقب بريـــا

فقال صلى الله عليه وسلم : « آمن شعر أخيك » أى اشتمل على أمر الإيمان وكفر قلبه فنزلت الآية .

وقال سعيد بن المسيب : نزلت فى عامر بن النعمــان بن صــيفى الراهب ، الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ، ولبس المسوح وقدم المدينة ، فقال للنبى صلى

الله عليه وسلم : ما هـذا الذى جئت به ؟ قـال « جئت بالحنيفية دين إبراهيم » قال : فأنا عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها » فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا ، فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أعدوا القوة والسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ، وآتى بجنود لنخرج محمدا وأصحابه من المدينة ، فذلك قوله : « وإرصادا لمن حارب الله ورسوله » ومـات بالشام طريدا وحيدا كما يأتى إن شاء الله فى براءة .

ومنهم من يقول : لقد أنزلت فى البسوس ، وكان قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات ، ونسبه بعض إلى ابن عباس ، وهو من بنى إسرائيل فقالت له امرأته : اجعل لى منهن دعوة ، فقال : ما تريدين ؟ قالت له : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فدعا فكانت كذلك ، فرغبت عنه فغضب ، فدعا عليها فصارت كلبة نباحة ، فجاء بنوها فقالوا : لا قرار لنا مع هذا ، صارت أمنا كلبة والناس يعيروننا بها ، ادع الله أن يردها إلى حالها التى كانت عليها ، فدعا فردها كما كانت ، فذهبت فيها الدعوات كلها ، وقيل : إن البسوس اسم للمرأة وكان يضرب بها الأمثال فى الشؤم ، وقد سميت به خالة جساس بن مرة الشيبانى ، كانت لها ناقة يقال لها سراب ، فرآها كليب وائل فى حماه ، وقد كسرت بيض طير قد أجاره ، فرمى ضرعها بسهم فوثب جساس عـلى كليب فقتله ، فهاجت حرب بكر وتغلب ابنى وائل أربعين عاما بسببها .

قال الزجـاج : وقيل : الإشارة إلى منافقى أهل الكتـاب الذين يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم وأنكروه ، وبه قال ابن كيسـان والحسن ، فالمراد بالـذى الجنس أو الفريق ، وصواب هذا أن يقول إلى كفار أهل الكتاب ، لأنه لم يكن منهم

مافق ، إنما كانوا مجاهرين اللهم إلا إن سماهم منافقين بالنسبة إلى دينهم حيث آمنوا به ، واقترفوا الكبيرة هى إنكار النبى بألسنتهم ، وقال قتادة : ذلك مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله •

( ولَو شِئْنا لرفَعْناهُ ) شأنا ومنزلة بتقدير التمييز ، أو لرفعنا درجته أو شأنه بتقدير مضاف ، أو رفعناه عن الكفر ، وعلى كل حال فالرفع إلى منازل الأبرار من العلماء ( بِها ) بسبب الآيات وعلمه إياها ، وملازمتها بأن نثبته عليها ، والأصل ولو لزم العمل بها لرفعناه بها ، ولكنه عبر بما هو السبب فى لزومه وهو المشيئة ، وجاء على طبق الأصل المذكور قوله : ( ولكنَّه أخْلدَ إلى الأرْضِ ) أى مال إلى الدنيا أو السفالة ورغب فيها ، وهذا ترك للزوم العمل بها ، كأنه قيل : ولكنه لم يعمل بها ، ولو أراد طبق ما عبر به لقال : ولكنا لم نشأ ، ولو قال : ولكنه أعرض عنها لكان طبقا للأصل أيضا ، ولكنه طبق بما هو أشد مبالغة وتنبيها على حامله على ترك العمل بها ، وهو حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة ، وفى الحديث : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » اه •

واتباع الهوى كما قال : ( واتَّبع هَواهُ ) فى اختيار الدنيا وإرضاء قومه أو زوجته على ما مر فى بلعام ، فليحذر المرء أن يميل عن مقتضى علمه ، وقيل الرفع الأخذ تقول : رفع الله ظالما أى أخذه وأذهبه ، فيكون الضمير عائدا إلى معصية أو إلى الآيات ، لأن بها كفره إذ لم يعمل بها ، فيكون قوله : « ولكنه أخلد إلى الأرض » عبارة عن إمهال الله عز وجل له ، وكذا فى قول ابن أبى نجيح : إن معنى « لرفعناه بها » لتوفيناه قبل أن يقع فى المعصية ، ودفعناه عنها بالآيات •

( فمثَلُه ) أى صفته ( كَمثَل ) كصفة ( الكلْبِ ) أو الصفة التى

شبيهة بالمثل الذى هو كلام مشهور يشبه مضربه بمورده كصفة الكلب الشبيهة بالمثل المذكور ، أو صفتاهما هما فى أنفسهما مثلان متشابهان ، وعلى كل حال فوجه الشبه الخسة ، فهو كالكلب فى أخس أحواله ، ضل قبل أن يؤتى الآيات ، وضل بعد ما أوتيها ، كما أن الكلب يلهث أبدا ( إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ ) بالزجر والطرد ( يَلْهَثْ ) بفتح الثاء نقلا من الهمزة بعدها على طريق ورش وسكونها مقدرة ( أو تَتْرُكْهُ ) عطف على تحمل عن الزجر والطرد ( يَلْهث ) عطف على يلهث ، وذلك لضعف فؤاده وانقطاعه ، كما قال ابن عباس ، بخلاف سائر الحيوان فإنما يلهث إذا حمل عليه .

واللهث إدلاع اللسان من التنفس الشديد ، أو تنفس بسرعة ، وتحرك أعضاء الفم معه ، وامتداد اللسان ، وأكثر ما يعترى ذلك مع الحر والتعب وشدة العطش ، أو هو فى حرصه على المال وأمر الدنيا ، مع أن الله قد أعطاه وأغناه عن التعرض لهما ، وفى ميلها إليها عن الآيات كالكلب فى اتصال لهثه ، أو هو حريص عليهما وعظته أو لم تعظه ، كالكلب يلهث حملت عليه أو لم تحمل ، وذلك أقوال الجمهور ، والأول أكثر ، وليحذر عالم الدنيا الذى يدلع لسانه فى تقرير العلم عطشا إليها وحرصا ، فالآية شاملة له بالمعنى .

وقال السدى وغيره : إن بلعام عوقب بأنه كان يلهث كالكلب ، وإن قلت : ذكر بعض أنه شبه بأخس الحيوان فى أخس أحواله ، وأخس الحيوان الخنزير ؟ قلت : نعم أخسها الخنزير لكن بالشريعة ، وأما بالطبع فأخسها الكلب ، وترى كفارا يأكلونه ولا يأكلون الكلب ، وأنسب بقوله : « ولو شئنا لرفعناه بها » أن يقال : ولكنه أخلد إلى الأرض فوضعنا منزلته ، ولكنه عبر بقوله : « فمثله كمثل الكلب » لأنه أبلغ

فى وضع المنزلة ، وتشبيهه بالكلب يلزم منه وضعها ، وجملة إن والشرط والجواب مع ما عطف عليهما بيان لمثل الكلب ، وإيضاح مستأنفة أو حال على تقدير المبتدأ ، أى وهو إن تحمل الخ ، أو لأنه بمنزلة عطف النقيض كأنه قيل : أو لا تحمل عليه يلهث أو للتأويل بالمفرد أى ذليلا أو لاهثا أبدا •

وهكذا شرطوا فى مجىء الشرط والجواب حالا ، وآثار ذلك فنعم تصدر الجملة الحالية بدليل استقبال ، وإن الشرطة دليل استقبال ، ويأتى إن شاء الله كلام فى ذلك ، وصاحب الحال الكلب ، لأنه ولو كان مضافا إليه لكن المضاف كجزئه فى صحة الاستغناء عنه •

( ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتنا ) ضـلوا قبل أن تجيئهم بالآيات ، وبعد ما جئتهم بها ، والمراد بالقوم كل قوم مكذب قبل النبى أو معه أو بعده ، أو المراد من فى زمانه من الكفار مطلقا ، أو اليهود وكانوا يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتابهم كما هـو والقرآن ، وبشروا الناس باقترابه ، وإذا أضرتهم العرب قالوا : أظل زمان رسول نقاتلكم معه ، ولما بعث بقوا على كفرهم بل ازدادوا •

( فاقْصُصِ ) اسرد ( القَصَصَ ) قصته الذى آتيناه آباتنا ، فإنها مشتملة على أشياء كل منها قصة فإيتاءه الآيات قصة ، وانسلاخه منها قصة ، واتباع الشيطان قصة ، وهكذا جمع قصة أو المراد القصص المذكورة فى القرآن هذه وغيرها ، والمراد اقصصها على الكفار مطلقا أو قومك واليهود ( لَعَلَّهم يتفكَّرُون ) يتعظون أو يستعملون الفكر لموصل إلى الاتعاظ ، فيؤمنوا بك ، ويعلموا أن ذلكَ بالوحى ، لأنه إنما يعلمه أهل الكتب الماضية وتقوى الحجة •

( سَاءَ ) بئس ( مَثَلاً ) تمييز لضمير مستتر فى ساء ( لِلقَوْمُ ) مخصوص بالذم مبالغة حيث جعلهم بأنفسهم مثلا ، أو على حذف مضاف أى مثلا القوم ، ومن أجاز الجمع بين التمييز والفاعل الظاهر فى باب نعم وبئس أجاز كون القوم فاعلا ، وقرأ الجحدرى : ساء مثل القوم برفع مثل على الفاعلية ، وإضافته للقوم مع فتح الميم والتاء على حذف المخصوص بالذم ، أى ذلك المثل ، وادعى بعض أن ساء لا تجرى مجرى بئس إلا إذا كان بعدها تمييز ، وقال الإمام أبو عمرو الدانى : قرأ الجحدرى : ساء مثل القوم بالرفع والإضافة ، لكن بكسر الميم وإسكان الثاء ، وقرأ الأعمش كذلك ، وبفتح الميم والثاء ، قال عياض وهذا خلاف ما ذكر أبو حاتم ، فإنه قال : قرأ الجحدرى والأعمش ساء مثل القوم بالرفع انتهى .

قلت : ليس مخالفا ، فإن مراده اتفاق الجحدرى والأعمش على الرفع والإضافة فى قطع النظر عن هيئة الميم والثاء ، فيكون لفظ مثل فى كلامه بالنظر إلى هيئتها كالشىء الذى يرى ولا يقرأ ، ذكر بعضهم مثل هذا لكنه يقبل البحث ، وأظن أنى قد بحثت فيه فى حاشية القطر وشرحه .

( الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِنا ) مع وضوحها ( وأنفُسَهم ) لا غيرها يظلمون ، والتقديم للحصر والفاصلة مفعول ( كانُوا يظْلمُونَ ) بالتكذيب ، وذلك مستأنف أو معطوف على كذبوا بآياتنا ، وأشار إلى أن الاهتداء بتوفيق الله والضلالة بخذلانه بقوله :

( مَنْ يَهْدِ اللهُ ) يرشده ويعنه ( فَهُوَ ) لا غيره لتعريف الطرفين ( المهْتَدِى ) والإفراد بالجنس أو للفظ من ، ونكتته التنبيه على أن المهتدين كالجسد الواحد لاتحاد طريقتهم ، وإنما اكتفى بقوله : « المهتدى » عن أن يقول : الرابح أو الفائز أو نحو ذلك ، تعظيما لشأن

الاهتداء ، حتى كأنه لو لم يحصل له ثواب لكفاه لحسنه فى نفسه ، وللسلامة من النار ، وأيضا الاهتداء ملزوم النعم الدايمة والفوز ، وسبب لها فذكره إشارة لها .

( ومَنْ يُضْلِلِ ) لم يوفقه ( فَأولئكَ ) البعداء عن مقام الخير ( هُم الخَاسِرُونَ ) لا غيرهم لتعريف الطرفين ، والضمير المعترض توكيدا ، والجمع باعتبار معنى من ، ونكتته التنبيه على تخالف الكفار ، لأن مدارهم على الأهواء ليس لهم دين يجمعهم .

( ولَقَدْ ذَرَأنا ) خلقنا ونشرنا ( لجهنَّم ) هذه اللام لشبه التمليك أو لام العاقبة ، لأنها تتصور فيما إذا كان الفاعل لم يقصد بفعله ما يصير إليه الأمر ، سواء علم مصير الأمر كما هنا ، فإن الله سبحانه أوجد الخلق ليعرفوه ويعبدوه لا ليعذبهم ويرحمهم ، وهو عالم بمصير فريق إلى النار ، وفريق إلى الجنة ، أو لم يعلم مصير الأمر كقوله : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » فإن آل فرعون لم يلتقطوه ليكون كذلك ، ولم يعلموا أنه يكون كذلك ، نعم لو صح أن الفعل وهو خلق الكثير قصد به ما يصير إليه الأمر من سكون جهنم ، وكان بسكونها علة لم يصح أن يكون للعاقبة كما قال بعضهم ، لكن الواضح أنه قصد بخلقهم العبادة والمعرفة معهما العلة ، ومصيرهم النار لعدمهما منهم ، نعم يجوز أن تكون للتعليل مجازاً أو مبالغة كما تقول لكثير الأكل : ما خلق إلا للأكل ، ولكثير النوم : ما خلق إلا للنوم وهكذا ، فاليهود وغيرهم مما توغلوا وغاصوا فى الكفر صاروا كأنهم خلقوا للنار ، حيث لم يتأت منهم إلا أفعال أهل النار ، وفعلوها باختيارهم لا باضطرار .

( كَثيراً من الجنِّ والإنْسِ ) ليس نصا فى أن أهل النار أكثر من أهل الجنة ، لأن الكثير يطلق على النصف والثلث ، كما يطلق على أكثر

من النصف ، بل الكثرة قد تكون نسبية فتطلق على ما هو قليل نظرا إلى ما هو أقل ، وإنما الذى هو نص فى أنهم أكثر من أهل الجنة حديث التسعمائة والتسعة والتسعون إلى النار ، وهى بعث النار ، والواحد إلى الجنة ، فيجوز تفسير الآية على ذلك بمعونة الحديث ، وأجمع علماء الأمة أن أطفال المسلمين فى الجنة إلا من لا يعتد به ، فانه توقف فيهم ، متمسكا بما روى أن عائشة رضى الله عنها قالت فى صبى من الأنصار دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازته : طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً ، أو لم يدركه ، فقال : « إن الله خلق للجنة والنار أهلا فى أصلاب آبائهم » وأجيب بأنه قال ذلك نهيا لها عن المسارعة إلى القطع من غير دليل قاطع ، وبأنه قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين فى الجنة ، وقوله : « والذين آموا واتبعتهم » الخ ولو كان مكيا لكنه محتمل لأن يكون فى أطفال المسلمين ، ومحتمل أن لا يكون فيمن بلغ منهم ولم يصل درجة أبيه فى العمل .

وأما أطفال المشركين والمنافقين فجمهور أصحابنا على الوقف فيهم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم وقف فيهم ، والتحقيق أنهم من أهل الجنة فضلا ، وليسوا بمكلفين فيدخلوا النار بعمل أو اعتقاد ، ولأنهم ولدوا على الفطرة ، والعهد الأول ، ولأنه بعد ما توقف فيهم سأل الله فيهم فأعطاه إياهم ، ولأنه رأى إبراهيم الخليل فى الجنة ، وحوله أولاد المؤمنين والمشركين ، فإذا كان حوله أولادهم فأولاد المنافقين أولى بأن يكونوا حوله سواء ، وقال قوم من المخالفين : إنهم من أهل النار ، ونسبه بعضهم للأكثر وهو خطأ إذا لم يكلفوا ، وقيل يختبرون يوم القيامة ، باقتحام نار توقد لهم ، فمن اقتحمها نجا ، وهو خطأ لأنه لا تكليف فى الآخرة .

ولا دليل على أنهم من أهل النار فى : « ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا »
لأن المعنى لا يلدوا إلا من يصل حد التكليف فيكفر ويفجر ، وما ذكره
الطبرى عن سعيد بن جبير ، ورواه بن عمر حديثا من أن أولاد الزنى
من أهل النار ، وممن ذراه الله لجهنم ، معناه أن الأرقى تراع وأن كونه
من الزنى سبب لمعصيتهم الله بعد اللوغ فيدخلون النار ، ومن أطاع الله فله
الجنة ، وروى أن ابن الزنى لا يدخل الجنة ، ومعناه ما ذكر ، أو أنه
لا يدخل الجنة وهو مبهم ، بل يدخل وقد علم الله الخلائق أنه ابن فلان ،
أو معنى ولد الزنى وابن الزنى البالغ الذى هو صاحب زنى بمعنى أنه
زان ، تأويلات .

( لهم قلـُوبٌ لا يفـْقهـُون بـِها ) لا يعلمون بها الهدى ، ولو علموا
بها أمر الدنيا لإعراضهم بها عن دلائله فلا ينظرون فيها ، أو لما كانوا
لا يفقهون الهدى جعلوا كأنهم لا يفقهون شيئا أصلا إذ دخلوا عما هو
المعتبر ، وأصل الفقه العلم بالشىء مطلقا ، ثم غلب على علم الدين لشرفه
على علم الدنيا وجاء بعد ذلك سائر علوم الإسلام من النحو والصرف
والبيان وغيرها .

( ولـَهم أعين لا يبـْصِرُون بـِها ) إبصارا يؤدى بهم إلى التوحيد
والطاعة ، فإنهم ولو كانوا ينظرون إلى السماء والجبال والأرض وأنفسهم
وغير ذلك ، لكن بغير اعتبار ، أو المراد لا يبصرون بها طريق الهدى بأن
يشبه طريقه لوضوحه بطريق فى الأرض تراه عين الوجه ، أو لمـا كانوا
لا يبصرون إبصارا يؤدى إلى التوحيد والطاعة ، ولا يتبين لهم طـريق
الهدى ، جعلهم كأنهم لا يبصرون شيئا ، إذ لم يبصروا الإبصار المعتبر .

( ولـَهم آذانٌ لا يسـْمعُون بـِها ) القرآن والوحى والوعظ ، سماعا
يؤثر فى قلوبهم ، أو لما كانوا لا يسمعون ذلك السماع ، جعلوا كأنهم

صم إذ خلوا عن السماع المعتبر ، كما تقول إذا سمعت سببا : إنى أصم عنه ، تريد أنه لم يؤثر فيك ولو قرع سمعك قال الشاعر :

وعوراء الكـــلام صمت عنها
وإنى لــو أشــاء بهــا ســميع

وبادرة وزعت النفس عنهــا
وقــد لقيت من الغضب الضــلوع

( أولئكَ كالأنْعامِ ) فى أن لها قلوبا وأعينا وآذانا لا تستعملها فى أمر الآخرة ، بل فى أمر المعيشة ، وإنما يفضل الإنسان باستعمال ذلك فى أمر الآخرة ( بَلْ هُم أضلُّ ) أى بل هم ضــالون دونها ، فهى خــير عنهم ، فاسم التفضيل خارج من بابه ، أو بل هم أضل منها ، لأنها ولو حصل لها ضلال فى بعض أمر الدنيا من حيث إنها لا تهتدى إلى ما يهتدى إليه العاقل فى أمر الدنيا ، لكن ضلالهم عن أمر الآخرة أشد ، لأنه مهلك لهم الإهلاك الدائم ، وقد علم أكثرهم به وعاند ، فهم أضل منها ، فاسم التفضيل على بابه ( أولئِكَ هُم الغَافلُونَ ) أى الكاملون فى الغفلة .

( ولله الأسْماء الحُسْنى ) أى التى هى أحسن من كل اسم ، فإن الحسنى مؤنث اسم التفضيل الذى هو لفظ أحسن ، أو التى هى حسنة ، إخراجا لاسم التفضيل عن بابه ، ولا حاجة إلى جعل الحسنى هنا مصدرا إلا إن أريد المبالغة ، ووجه كون أسمائه حسنى أنها تدل على معانى الحسنى فى اتصاف الله ، سواء كانت كذلك فى طبع المخلوق كالرحمة واللطف والهدى ، أو كالحمد والتقديس والقهر والإجبار .

وزعم بعضهم أن حسنها بتحسين الشرع لإطلاقها والنص عليها ، ويجوز أن يكون المراد أنها حسنة فى ذاتها ، ويظهر حسنها بحسب مرتبة

الذاكر فى صفاء القلب ، والمراد بها الألفاظ ، وقيل : ما تضمنته الألفاظ من الصفات ، كالرحمة والعدل ، وليست هنا بمعنى المسميات إجماعا ، والمعنى أن هذه الأسماء مثل : الله ، والرحمن ، والرحيم التى نتلفظ بها هى لله ، وهو واجب الوجود لذاته ، وهى أيضا أسماؤه فى الأزل ، ولا تدل الآية على أن الاسم هى المسمى خلافا لما توهمه القشيرى والرازى .

وفى الحديث : « أن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها — أى حفظها كما عبر به فى رواية — حفظا تضمن تعظيمها والعمل بمقتضى معانيها — وقيل : عدها أى عدا تضمن ذلك ، وقيل : حافظ على مقتضى معانيها ، وعمل به ، وقيل : أحضر عند ذكر كل واحد منها معناه معظما راغبا راهبا فيورثه ذلك العمل بمقتضاها دخل الجنة » والله وتر ويحب الوتر ، أى لا شريك لـه فى فعل ، ولا صـفة ، ولا ذات .

هو : الله ، وهو الاسم الأعظم عند كثير ، الرحمن الرحيم ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز ، الجبار المتكبر ، الخالق البارىء ، المصور الغفار القهار ، الوهاب الرزاق ، الفتاح العليم ، القابض الباسط ، الخافض الرافع المعز المذل ، السميع البصير ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، الحليم العظيم ، الغفور الشـكور ، العـلى الكبير ، الحفيظ المقيت ، الحسيب الجليل ، الكريم الرقيب ، المجيب الواسع ، الحكيم الودود ، المجيد الباعث الوارث ، الشهيد الحق ، الوكيل القوى المتين الولى ، الحميد المحصى المبدى المعيد ، المحيى المميت ، الحى القيوم ، الماجد الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، القادر المقتدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الولى المتعـالى ، البر التـواب ، المنتقم العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذى الجلال والإكرام ، المقسط الجامع ، الغنى المغنى ، الضار النافع ، نور السموات والأرض ، الهادى البديع ،

الباقى الرشيد ، والتاسع والتسعون الصبور رواه المخالفون فإن صح فمعناه الحليم •

وليس ذلك حصرا لأسمائه باتفاق ، بل المراد من أحصى هذه التسعة والتسعين دخل الجنة ، وقد قال ابن العربى : إن الله ألف اسم ، وإن الألف قليل ، وجاء فى الحديث : « أسألك بكل اسم سميت به نفسك » أى أظهرت لنا أنه اسم لك ، وإلا فأسماؤه قديمة ، ويدل على ذلك قوله : أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، وهى توقيفية عندنا وعند جمهور قومنا ، وقال ابن الباقلانى : يجوز أن يطلق عليه كل اسم تضمن مدحا خالصا لا شبهة فيه ، وفيه أن هذا لا يدركه إلا أقل العلماء ، فإذا فتح ذلك الباب اجترأ كل من يدعى الإحسان ، فيدخل فيها مالا يجوز •

وذكروا منها حنانا فإن صح فليس بأعظم من الرحمن ، فيوجه بما وجه الرحمن من أن المراد به المنعم ، أو مريد الإنعام ، ولا إشكال فى منان •

واختلف هل يجوز أخذ اسم له مما ذكر فى القرآن مثل : « يستهزىء بهم » و « ويمكرون ويمكر الله » فقيل : يجوز بالتقييد فيقال : مستهزىء بالكافرين ، وماكر بالذين يمكرون ، وقيل : لا يجوز واما بلا تقييد فلا يجوز إجماعا •

وأما النور فيجوز عندنا بشرط إضافته إلى السموات والأرض ، وأجازه قومنا بلا إضافة ، ورووه فى الحديث ، ويجوز جواد بتخفيف الواو ، ولا يجوز سخى ، ويجوز عالم ، ولا يجوز عاقل ، ولذلك ترى

بعضا يقولون فى باب الموصول : من لم يعلم وما لغير العالم ، لأن من تطلق على الله ، ولا يقال فيه عاقل .

وفى التاج : ولا يجوز فى صفاته المتعزز ولا المتكبر ، وفيه نظر لورود المتكبر فى القرآن ، ولا تعزز ولا تكبر ولا تجبر لما تفعل من التكلف ، وجاز تنزه من كذا ، ولا يجوز افتخر ، لأن الافتخار إنما يقع بين المتضادين . انتهى .

قلت : قد ورد فى الحديث وصفه بما معناه المفاخرة ، ويصرف إلى ما يليق ، ومثل تنزه تقدس ، ومنعه بعض ، والواضح جواب التفاعل ، وما اشتق منه لا بمعنى التكلف ، بل بمعنى المبالغة والتأكيد ، وقد عبر أبو نصر بتقدس فى النونية ، قال الشيخ إسماعيل فى شرحها : فإن قيل : ما الذى أطلقته العلماء على الله عز وجل مما ليس باسم ولا صفة ولا إثبات ؟ فقل : تبارك وتعالى وجل وعز وتعظم وتقدس وتجبر فهؤلاء تنزيه . انتهى .

وقد أثبت فى آخر السؤال الثانى والأربعين من كتاب السؤالات : التكبر والتعظم والتقدس والتجبر صفات متجبر ومتعظم ومتقدس ومتكبر أسماء الله .

( فادْعُوهُ بِهَا ) أى سموه بها ، أو اذكروها فى طلبكم إياه ، وروى أن أبا جهل سمع صحابيا يقرأ فتارة يذكر الله ، وتارة الرحمن ونحو ذلك ، فقال : يزعم محمد أنه يعبد إلهاً واحدا وهو يعبد آلهة كثيرة ، فنزلت الآية .

ولا يجوز فى الدعاء أن يقال : بحقك على نفسك ، ولا بحق نبيك ،

ولا بحق سورة كذا عليك ، ويجوز بنبيك ، أو رسولك ، أو بسورة كذا ، أو باسمك الأعظم ، أو باسمائك أو بأنبيائك أو رسلك ، أو بكتابك أو بغير ذلك مما عظمه الله ، وفى بعض الكتب : لا يجوز باسمك الأعظم ، وفى أسمائك وملائكتك خلاف انتهى .

وذكر بعضهم صفة الدعاء للأسماء أن يقال :

يا ألله يا ألله يا إله الأولين والآخرين ، وقامع المردة والجبارين ، ومذل العظماء والمتكبرين ، يا رب العالمين ، بإحسانك نستعين ، فأنت خير ولى وخير معين .

يا رحمن الدنيا والآخرة ، وجامع العظام النخرة ، ومولى النعم الفاخرة .

يا رحيما بالمؤمنين ، وغـافر ذنوب العاصين ، ومخلـد فى جهنم الكـافرين .

يا مالك الأمر فى يوم الدين ، الطُف بنافى ذلك اليوم ، واجعلنا من أهل الصلاة والصوم ، واسلك بنا سبيل المهتدين ، وجنبنا عن كل شىء يشين ، إنك على كل شىء قدير .

يا محيط يا محيط ، أحاط علمك بجميع المعلومات ، وأقرت بألوهيتك الكائنات ، وسبقت إرادتك فى المخلوقات .

يا قدير يا قدير ، تعلقت قدرتك بالجائز من الموجودات ، فظهرت فى الأحياء والجمادات ، وأقربها المماليك والسادات .

يا عليما يا عليما بالجزئيات والكليات ، والسفليات والعلويات ، والموجودات والمعلومات •

يا حكيم يا حكيم ، ظهر إحكام صنعتك فى خلقك ، وبان بذلك مـا يجب لك ، فـلا مخلص لكبير ولا صـغير مـن رقك •

يا تواب يا تواب على الآيبين يا رب العالمين ، وسلطان السلاطين ، نسألك أن ترفعنا إلى أعلى عليين ، وتنظمنا فى سلك أحبابك المقربين •

يا بصير يا بصيرا بعيوبنا استرها ، وعليما بذنوبنا اغفرها ومحيطا بأحوالنا دبرها •

يا واسـع يا واسع وسـع أرزاقنا ، وحسـن أخلاقنا •

يا بديع يا بديع بصر عقولنا ، فى بديع مصنوعاتك ، وثبت قلوبنا على الحب لذاتك وصفاتك ، وطهر نفوسنا بما تواليه علينا من بركاتك •

يا خبير يا خبيرا بأحـوال المخلوقين ، اجعل حالنا مـن أحـوال الصديقين •

يا خالق يا خالق اخلق فى قلوبنا هيبة لجلالك ، وحياء من ارتداء كمالك •

يا مصور يا مصور صورت العالم على ما سبق فى سابق إرادتك وعلمك ، وأظهرت الحكمة ، فى صغيره وكبيره على وفق حكمته ، وحكمتك ، وأجريته فى ميدان قهر القدرة ، فلا ملجأ منه ولا مفر •

يا غفار يا غفار إن ذنوبنا جمة فاغفرها ، وعيوبنا كثيرة فاسترها ، وأنفسنا كبيرة فاجبرها ، وشيطانيننا متمردة علينا فازجرها .

يا قهار يا قهــار قهرت العبــاد بالموت فليس لهم منــه مهرب ، ولا فوت ، ذلت لجبروتك رقاب الجبابرة ، وخضعت لكبريائك كبريــاء الأكــاسرة .

يا وهاب يا وهاب هب لنا من طرق نعمتك ما تطهر به نفوسنا ، وتقرب منك كسير قلوبنا ، وجنين أرواحنا ، وتنور بنوره ما أظلم من بصائرنا .

يا رزاق يا رزاق ارزقنا من خزائنك الواسعة ، وأدم علينا رحمتك القريبة السابقة ، وأدم نعمتك الكثيرة ، ومننتك الوثيرة .

يا فتاح يا فتاح افتح علينا من علومك اللدنية ، واصرف إلينا مــا يرقينا إلى الأنوار السنية ، وارفع عن بصائرنا ما ردّ من الحجاب ، وأدخل علينا الملائكة بالتحية والإكرام من كل باب .

يا قابض يا قابض اقبض عنا يد الوساوس الشيطانية ، واكفف جماح جهالات الخواطر الإنسانية ، ولذذنا بحلاوة تلاوة كتابك ، واكتبنا فى زمرة أحبابك .

يا باسط يا باسط ابسط أرزاقنا الجسمانية والروحانية ، ووسع لنا سرادقات أسرارك اللدنية ، وأقمنا على بساط انبساط المشاهدة ، ولذذنا بطيب دوام المراقبة .

يا حافظ يا حافظ حفظت بجلالك المخلوقــات ، وتلاشت لجبروتك

المحدثات ، فاحفظ أعياننا مما يضرنا ، وأنلنا من العـافية والمعافاة فى الدنيا والآخرة ما به نفعنا •

يا رافع يا رافع ارفع حقـير مـا انخفض من أحوالنـا ، وبارك فى قليل ما لا يؤبه به من أعمالنا ، وأيدنا واحشرنا فى زمرة المقربين من أحبـابك البررة ، وأغثنا بالملائكة الكـرام السفرة •

يا معز يا معز أعزنا بعز الطاعة ، وأمتنا على سبيل السنة والجماعة المصائبة ، ويسر علينا إتيان خير الخيرات ، وجنبنا ما كبر وصغير مـن المنكرات •

يا مذل يا مذل لا تذلنا بذل المعاصى ، واكفنا أليم عقابك إنك على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير •

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه القائمين على العهد ، والتابعين بإحسان الى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين •

ولا يجوز أن يقال : ما أعلمك وما أعظمك ونحو ذلك ، كذلك قالوا ، قلت : بل يجوز ذلك لقول جابر بن زيد : إن الله ملكا رأسه فى السماء السابعة ، ورجلاه فى الأرض السفلى إحدى زوايا العرش على كاهله يقول : سبحانك ما أعظمك ، قال بعضهم : الله والإله ، والرب والخالق ، والبارىء والمصور ، والمبدىء والمعيد ، والمحيى والمميت ، تصلح أذكارا للذاكرين ، فالله والإله ذكر لأكابر المؤلهين فى الغالبين ، والرب والخالق والبارىء ذكر لأكابر السالكين والمربين ، والمصـور والمبدىء والمعيـد والمحيى والمميت ، ذكر عباد الله المعتبرين والمتبصرين •

( وذَرُوا الذَّينَ يُلْحدونَ فى أسمائـهِ ) قال ابن زيد : اتركوا الذين يميلون عن الحق فى أسماء الله سبحانه وتعـالى لا تحاجوهم ، ولا تتعرضوا لهم ، فهى منسوخة بآية السيف ، وأقول : ليس الأمر كذلك لجواز أن يكون ذلك وعيدا وتهديدا لقوله : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » وصرح بالوعيد فى قوله : ( سيُجْزونَ ) فى الآخرة ( مـا ) مفعول ثان أو على تقدير البـاء ( كانـُوا يعْمَلونَ ) من الإلحـاد فى أسمائه وغيرها ، ولجواز أن يكون المعنى لا تتابعوهم فى إلحادهم فى أسمائه ، أو ذروا إلحاد الذين يلحدون فيها ، والإلحاد فيها إما بتسمية غيره بها كما سموا الصنم اللات اشتقاقا من لفظ الجلالة ، وسموا الآخر العزى اشتقاقا من لفظ العزيز ، وسموا الثالث مناة اشتقاقا من المنان ، ويسمون الأصنام آلهة وأربابا ، وبذلك قال ابن عباس .

وإما تسمية بما لا يجوز كقولهم : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، يا سخى ، وقول البربر : باب رب ، ولو كان الصحيح عدم إشراكهم بذلك ، لأنهم أرادوا المولى والسيد لا الوالد ، وإما بإنكارهم بعض الأسماء كانوا يقولون الله ولا يقولون الرحمن ، ويقولون لا نعرف إلا رحمن اليمامة ، وإما بوصفه بما لا يجوز كوصفه بالجبر على الأعمال ، ووصفه بأنه غير خالق لأفعال العباد ، أو بأنه غير خالق للشر والفحشاء والمنكر ، ووصفه بأنه غير شاء للقبائح ، فإن الحق أنه شاءها بمعنى كانت ممن كانت بإرادته وقضائه .

ولا يخلو جواب جار الله من ذلك ، ووصفه بجواز رؤيته ، وقـد قالات العرب وغيرها : أرنا ربك يا محمد ، ولا يخلو من هذا إخـوان القاضى قبل ، وإما بعدم لمراعاة الأوب فيها مثل أن يقول : يا ضار ولا يذكر يا نافع ، ويقول : يا مانع ولا يقول يا معطى ، ويقول : يا خالق

القردة ، والصواب يا خالق الخلق ، وإما بتسميته بما لا يعرف معناه لئلا يقع فيما لا يليق ، وقرأ حمزة وحده ، وابن وثاب ، وطلحة ، وعيسى ، والأعمش هنا وفى النحل والسجدة بفتح الباء والحاء من لحد ، والمعنى واحد ، وقرأ الكسائى فى القرآن بضم الباء وكسر الحاء إلا فى النحل فيفتحهما ، ويقول : ألحد بمعنى مال وانحرف ، ولحد بمعنى ركن ، وجعل منه ما فى النحل ذكره الفارسى •

( وممَّن خَلَقْنا أمــةٌ يهدُونَ بالحَقِّ وبهِ يعدِلونَ ) هـم المهاجرون والأنصار الذين لم يبدلوا ولم يغيروا ، والتابعون بإحسان إلى يوم الدين ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا قرأ الآية قال : « هذه لكم وقد أعطى قوم موسى قبلكم مثلها » وقال : « لا تزال طائفة بالمغرب قائمة بأمر الله لا يضرهم من ناوأهم حتى يأتى أمر الله » أى لا يضرهم فى الدين ، فلا تخلو الأمة من قائم بالحق عامل به هادٍ إليه ، وروى : « أن من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى » وقال الكلبى : هـم فى الآية : « الذين آمنوا من أهل الكتاب » وقيل : العلماء والدعاة إلى الدين ، وقال النحاس : إن ذلك من لدن آدم إلى قيام الساعة ، فلا تخلو الدنيا فى وقت من داع إلى الحق ، ويقويه ما قيل : إن الآية فى مقابلة : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا » الخ فكأنه قيل : وذرنا للجنة أمــة يهدون بالحق الخ ، ولو أريد طائفة منقطعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو غيره لم يكن لذكر ذلك فائدة لأنه معلوم •

( والَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنا ) المراد جميع الكفار ، وقيل : كفار مكة ، ويرده أنه لا دليل على تخصيصهم ( سَنَستَدرِجُهم ) نقربهم إلى ما يهلكم قليلا قليلا ( من حَيثُ لا يعلَمُونَ ) بأن نوسع عليهم النعم ، مع انهماكهم فى الغى ، ونجدد لهم نعما كلما جددوا عصيانا ، فيظنوا أنهم على حق ، وأن النعم لا تنقطع عنهم ، فيزدادوا غيا ، أو

نستدرجهم فى الذنوب بذلك ، أو نفتح لهم نعما فيركنون إليها فنأخذهم أغفل ما كانوا ، وقال الكلبى : نقربهم بتزيين أعمالهم ، ثم نهلكهم ، وقال سفيان الثورى : نسبغ عليهم النعم ثم نسلبهم الشكر ، وماصدق هذه الأقوال واحد .

ولما حُملت كنوز كسرى إلى عمر رضى الله عنه قال : اللهم إنى أعوذ بك أن أكون مستدرجا ، فإنى سمعتك تقول : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » وأصل الاستدراج الاستصعاد ، أو الاستنزال درجة بعد درجة ، فهو استفعال من الدرجة ، والكلام استعارة تمثيلية ، وقرأ ابن وثاب ، والنخعى : يستدرجهم بالتحتية .

( وأمْلِى ) معطوف على مدخول السين فهو مستقبل ، فكأنه قيل وسأملى ( لَهم ) أى أمهلهم ولا أعاجلهم بالعقوبة ، وإن قلت : الإملاء واقع فى الحين مستمر إلى ما شاء الله ، فما معنى الاستقبال ؟

قلت : الإملاء إبطاء وليس موجود فى الوقت ، بل لا يحصل حتى يمضى زمان واسع ، ولك أن تقول : المضارع هنا للحال المستمر ، فيكون العطف على السين وما دخلت عليه ، فلا يتسلط عليه الاستقبال .

( إنَّ كَيْدى ) أى أخذى ، وسماه كيدا مع أن الكيد الخداع بالأخذ تشبيها بالكيد ، لأنه فى الظاهر إحسان ، وفى الباطن خذلان ، وقرأ عبد الحميد ، عن ابن عامر : بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل ( مَتين ) شديد قوى ، قيل : هو من المتن الذى يحمل عليه وهو الظهر ، وزعموا أن الآية نزلت فى المستهزئين من قريش ، أمهلهم ثم قتلهم فى ليلة واحدة ، وزعم بعض أن « أملى لهم » منسوخ بآية

السيف ، وأن المعنى لا آمرك بقتالهم أو لا أقتلهم بيدك ، وهذا خطأ فإن النسخ لا يدخل الاخبار ، وصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا ليلا ، فجعل ينادى قريشا فخذا فخذا : « يا بنى فلان ، إنى لكم نذير مبين » وحذرهم بأمر الله ، فلما أصبحوا قال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون ، بات يصوت إلى الصباح ، ألا ترون دوامه على ذلك ، ومخالفته لكم قولا وفعلا وعزوف نفسه عن الدنيا ولذاتها فنزل :

( أوَلَم ) أى قالوا ذلك ولم ، أو أعرضوا ولم ( يتفكَّروا وامَا ) نافية ( بصَاحِبِهِم ) محمد أى فيه أو الباء للإلصاق ( مِنْ جنَّةٍ ) من جنون ، ومن صلة مؤكدة للنفى مستغرقة ، وجملة المبتدأ والخبر ، أو الجار والمجرور فإنه علهما مع حرف النفى مفعول ليتفكروا ، مستعملا فى معنى يعلموا استعمال الملزوم والسبب ، مقام اللازم والمسبب ، أو ليعلموا محذوفا أى فيعلموا ما به من جنون ، ويجوز جعل ذلك مفعولا للتفكر بلا تأويل على تقدير المعادل ، أى أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّة أم به جِنَّة على تقدير الاستفهام قبل حرف النفى ، ولو تفكروا لم يقولوا ذلك ، لأنه ليس فيه من الجنون شىء ما ، وقد خالطوه وعاشروه ، وما رأوا به شيئا يوهم الجنون ، ولذلك عبر بلفظ دال على الهيئة وهو الجنة بكسر الجيم بوزن فعله بكسر فإسكان ( إنْ ) ما ( هُو إلا نَذيرٌ مُبينٌ ) واضح لا يلتبس بلاعب أولاه ، أو مجنون أو موضح لإنذاره بحيث لا يخفى على من ينذرهم لفصاحته وإكثاره وإدمانه ، والإنذار فى الشر ولا يستعمل فى الخير إلا مقيدا به .

( أوَلَم ينْظُرُوا ) بأعينهم نظر استدلال واعتبار أو بقلوبهم ( فى مَلَكُوت السَّموات والأرضِ ) أى فى ملكه العظيم الذى هو السموات والأرض ، والإضافة للبيان ، والعظم مستفاد من زيادة الواو

والتاء فى ملكوت ، أو الإضافة ظرفية أى فى أعظم ما ملكه فيهن ( وَمَا ) عطف على ملكوت ، أو على السموات أو الأرض بمعنى الذى ( خَلَقَ اللهُ مِنْ ) بيانية متعلقة بمحذوف حال من ما ، أو من رابطها المحذوف ( شَىْءٍ ) وتلك الحال مؤكدة لعموم ما كأنه قيل : لو نظروا فى مخلوق ما من مخلوقاته كائنا ما كان مما يقع عليه اسم الشىء ، وهو فى هذه الآية كل موجود من ذات وفعل وعرض ، لعرفوا به الله قال أبو العتاهية :

وفى كل شىء له آية
تدلُّ على أنه واحد

( وأنْ ) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، وهى مع هذا مصدرية ، ولا يجوز أن تكون هى الخفيفة الناصبة للمضارع إذا دخلت عليه هى التى مصدرية ، لأنها داخلة على جامد خلافا للقاضى ، والعطف على ملكوت ( عَسَى ) توقع بالنظر إليهم ، واسمها ضمير الشأن أيضا وما بعدها خبرها ، أو هى تامة فى ما بعدها فاعل ( أنْ يكونَ ) اسمها أيضا ضمير الشأن وخبرها ( قَدِ اقْتَرَب أجَلُهم ) ويجوز كون أجل اسم يكون ، فيكون ضميره فى اقترب ، وكونه اسم عسى فيكون ضميره فى يكون وفى اقترب ، وسيأتى بحث فى ذلك ، فإذا كانوا على توقع من اقتراب أجلهم وهو الموت قيل : أو الساعة فمالهم لا يسارعون إلى طلب الحق ، وما ينجيهم قبل حلوله ، فانه لا ينفعهم بعده نظر ولا إيمان كما قال :

( فَبأىِّ حَديثٍ بَعْده ) أى بعد أجلهم ( يُؤمنُون ) إيمانا نافعا ، أى لا حديث ينفعهم الإيمان به بعده ، فانهم بعده يؤمنون بجميع الآيات ، ولا ينفعهم ذلك ، فالكلام متصل بما قبله ، والاستفهام إنكار

وتوبيخ وتعجيب ، وبعده نعت حديث ، أو متعلق بيؤمنون كما تعلقت به الباء ، ويجوز عود الهاء لمحمد أو لأمره ، ويجوز عوده للقرآن ولو لم يذكره لحضوره فى الذهن بقوله : « فبأى حديث » والمعنى فبأى حديث يؤمنون بعد القرآن الذى جاء به محمد ، فإنه لا أفصح من القرآن ولا من محمد ، فإذا لم يؤمنوا بهما لم يكن غيرهما سببا فى إيمانهم ، ولأنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد ، فلا حديث يأتيهم بعدهما من الله ، فيجوز أن يكون الكلام راجعا إلى محذوف أى إذا لم يؤمنوا بالقرآن أو بمحمد فبأى حديث بعده يؤمنون .

( من يُضْلِلِ اللهُ فلاَ هادِىَ لَهُ ) إخبار برسوخ كفرهم تصميمهم على الكفر ، وبأن علته إضلال الله لهم ( ويذَرهُم ) وفى قراء [ ونذرهم ] بالنون مستأنف أو معطوف على مجموع من وما بعدها ، ولا حاجة إلى ما ذكره بعضهم من أنه خبر لمحذوف ، أى ونحن نذرهم ، وذلك قراءة نافع ، وابن عامر ، وابن كثير ، وأبو جعفر وغيرهم ، وعاصم فى رواية ، وروى خارجة عن نافع جزمه عطفا على محل جملة الجواب ، وقراء عاصم فى رواية ، وأبو عمرو ، ويعقوب : بالياء المثناة تحت والرفع ، وفيه الأوجه المذكورة ، وقرأ حمزة ، والكسائى ، وأبو عمرو فيما قال أبو حاتم : بالمثناة تحت والجزم عطفا على محل الجملة ، وكذا قرأ طلحة بن مصرف والأعمش .

( فى طُغْيانِهِم ) متعلق بما بعده ، أو بما قبله وهو الإفراط فى الكفر هنا ، وأصله الإفراط فى شىء ما ( يعْمهُونَ ) حال من هاء يذرهم أى يترددون ويتحيرون .

( يسْألونكَ عنِ السَّاعةِ ) أى وقت موت الخليقة كلها ، وهو

اسم مغلب على ذلك الوقت ، وسمى ساعة لوقوعه بغتة ، والعرب تمثل في لأمر السريع بالساعة ، أو لسرعة حسابه فينقضى فى ساعة ، أو لأنه على طوله كساعة عند الله ، أو للتضاد بأنه طويل سمى باسم القصير ، كما قد يسمى السماء أرضا ، والطويل قصيرا ، وما ذكرته من سرعة الحساب والطول إنما هو بالنظر إلى ما بعد الموت من البعث ، والساعة تطلق على وقت موت الخليقة ، وعلى وقت البعث ، وعلى وقت الموت إلى ما لا ينتهى ، وقيل : إلى دخول أهل الجنة والنار إياهما ، وكذلك يوم القيامة إطلاقا أو خلافا .

( أيَّانَ ) نونه أصل لا زائد ، وقرأ أو أبو عبد الرحمن السلمى بكسر الهمزة أى متى ( مُرْسَاها ) أى إرساءها ، أو زمان إرسائها ، كما تقول : متى يوم الجمعة ، والإرساء إثبات الجسم الثقيل ، والرسو ثبوته ، واستعمل الإرساء فى الساعة تشبيها لها بالجسم الثقيل ، ولا اشتقاق ولا أخذ لأيان ، ولا لأى من شىء ، وقال ابن جنى : أيان مشتق من أى ، وأى مشتق من أوى إليه أى انضم ، وأراد بالاشتقاق الاشتقاق الكبير أو الأخذ وإلا فالاشتقاق فى غير المتصرف يأباه الأكثرون ، نعم أى متصرف وقد اختلف : هل الاشتقاق من الفعل أو المصدر ؟ وعليه فالنون زائد ، ولم يقل مشتق من أين ، لأن أين للمكان ، وقيل : أصل أيان أى آن ، ومرســاها مبتدأ أو أيان متعلق بمحذوف خبر ، وقال المبرد : مرساها فاعل لمحذوف أى يجىء أو يحضر وأيان متعلق بالمحذوف .

روى عن ابن عباس : أن جبل بن أبى قشـــير ، وسمويل بن زيد اليهوديين قالا : إن كنت نبيا فأخبرنا متى الساعة فإنا نعلم متى هى ،

فإن صدقت آمنا بك ؟ فنزلت الآية كلها فى ذلك ، وكذبهم فى ادعاء علمها بقوله :

( قُلْ إنَّما عِلْمها عِنْدَ ربِّى ) لا يعلم وقتها ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، وهو جواب مفصح عن رسالته صلى الله عليه وسلم ، لأنها كانت مبهمة أيضا فى كتابهم ، لا يعلم أحد وقتها ، وحكمة إخفائها أن يكون المكلف على شفقة منها ، فيستعد لها ، وضربت لها علامات تـدل على قربها ، فيشتد استعداد من حضر تلك العلامات من الموفقين ، ومن علاماتها : أن تلد الأمـة ربَّتها ، أى يكثر التسرى ، فإن بنت الأمـة المتسراة سيدة لها ، مالكة لها بمـوت أبيها فتعتق عنهـا ، أو يكثر حتى إنها لتلد بنتا ستملكها إذا افترقتا ، بأن لا تعلم أنها أمها أو غير ذلك ، وقال قتادة بن دعامة : سألته قريش وقالوا : إنا قرابتك فأخبرنا عنها وهو قول الحسن :

( لا يُجلِّيها ) لا يظهرها بإحضارها ( لوقْتِها ) هى لام التوقيت ، واختار بعض أن يكون المعنى عند وقتها أو فى وقتها ، ونقول لا يخرج ذلك عن معنى لام التوقيت ، وعلى كل فليس فى الآيـة ظرفية الشىء لنفسه ، بأن نعتبر أن المراد لا يجلى أمرها ، أو نعتبر عموم وقتها وسعته حتى يكون ذلك من ظرفية الجزء فى الكل ، فالساعة وقت موت الناس ، والوقت هو هذا الوقت وما بعده .

( إلاَّ هُوَ ) أو لا يخبر بوقتها إلا الله لو لم يسبق علمه أنـه يخفيها ، وتشديد يجلى للمبالغة ، وهى راجعة إلى النفى أى ننفى انتفاء بليغا أن يظهرها غير الله ، فهى خفية عن كل أحد حتى يحضرها ، أو غير راجعة إلى النفى ، فيكون المعنى إن إظهارها أمر عظيم لا يفعله إلا ربى

( ثَقُلَتْ فى السَّموات والأرْضِ ) ثقل أمرها أى اشتد على أهل السموات والأرض ، لعظم هولها وخفائها ، والفناء ثقيل فى القلوب ، وإذا كانت هكذا فليستعدوا لها ، ففى ذلك إشارة إلى حكمة إخفائها ، والآية مثل قولك : خيف العدو فى ثغر وشقة ، تريد خيف على من فيه ، أو خافه من فيه ، كذا يظهر وهو قول الحسن ، وقال السدى ، ومعمر عن بعضهم : ثقل أن تعلم ويوقف على حقيقة وقتها ، أى امتنع ذلك فعبر عن الامتناع بالثقل ، لأن الثقيل متعاص ، وقال قتادة وابن جريج : ثقلت على السموات والأرض لتفطر السموات ، وتبدل الأرض ، ولنسف الجبال ، ولا مانع من أن يقال : المراد مجموع هذا القول والأول .

( لا تَأتيكُم إلا بغْتةً ) فجأة حال مبالغة أو مؤول بباغتة إذا أتى بغتة ، أو مفعول مطلق أى الإتيان بغتة بالإضافة ، وفى الحديث : « تقوم وقد نشر الرجلان الثوب للبيع فلا يباع ولا يشترى ولا يطوى ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ، أى ناقته القريبة العهد بانتاج ، بفتح اللام وكسرها ، فلا يطعمه ، والرجل يلوط حوضه أو قال : بليطوها لغتان ، أى يصلحه لتشرب دوابه فلا تشرب ، والرجل يسقى ماشيته فما يتم سقيها ، والرجل يقوم سلعته فى سوقه ، وروى يقم والمعنى على هذه الرواية يصلحها بنقض الغبرة أو بغيره ، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه يخفضه ، والرجل قد رفع أكلته إلى فيه بضم الهمزة أى لقمته فما تصل فاه » .

( يَسْألونكَ ) عنها ( كأنكَ حَفىٌ ) مستقص وباحث جدا ( عَنْها ) بالسؤال ، فعنها متعلق بحفى ، ومتعلق بيسألونك مقدر كما رأيت يقال : حفى عن الشىء أى سأل عنه سؤالا بليغا يستحكم علمه فيه ، وقيل : متعلق بمحذوف أى حفى بالسؤال عنها ، أى مستقص به لحبك أن يسألونك عنها ، أو أن تسأل عنه غيرك ، مع أنك تكره ذلك

لاستئثار الله سبحانه بها ، وقيل : متعلق بحفى على أن عن بمعنى الباء ، أى كأنك عالم بها علما بليغا إطلاقا للسبب ، والملزوم وهو السؤال البليغ على اللازم ، والمسبب وهو العلم وقد قرأ ابن مسعود : كأنك حفى بها ، لكن تحتمل قراءته كون الباء بمعنى عن أى سائل جدا عنها ، ونسب أبو حاتم هذه القراءة لابن عباس ، وقيل : عن متعلق بيسألونك ، ومتعلق حفى محذوف ، أى يسألونك عنها كأنك حفى بها ، أى عليم ، وقيل : حفى من الحفاوة وهى الشفقة ، فعن متعلق بيسألونك ، ومتعلق حفى محذوف أيضا ، أى رحيم بهم بحيث تخصهم بالإخبار بها مع أنك لو علمت بها وكنت تخبر لأخبرت القاصى والدانى سواء ، وهذا أنسب بقول قريش : إنا قرابتك فأخبرنا بها ، وإنما كرر ذكر السؤال للمبالغة ، وليزيد فى الثانى كأنك حفى عنها ؛ وقيل : لأن الأول عن وقت قيامها ، والثانى عن حالها انتهى بتصرف .

( قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ) كرر لتكرير ذكر السؤال والمبالغة ، وقيل : لأن العلم الأول علم وقت قيامها ، والثانى علم حالها وشدائدها ، ولذا عبر فيه بلفظ الجلالة لأنه أعظم الأسماء ( ولَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ) أن علمها مختص بالله سبحانه ، قاله الطبرى ، وهو أولى من قول بعضهم : لا يعلمون الحكمة فى إخفائها ، إذ لا دليل على هذا .

( قُلْ لا أمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا ولا ضَرًّا ) أى جلب نفع ولا دفع ضر ، بل أنا عبد ضعيف كسائر المماليك ، وذلك انتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب ، كوقت الساعة ، والقدرة على النفع والضر على الإطلاق ( إلا ما شَاءَ اللهُ ) أن أملكه وأقدر عليه من جلب أو نفع ، فالاستثناء متصل باعتبار إنما سبق فى علم الله أنه يجلبه أو يدفعه

بإلهام الله وتوفيه قد ملكه ، وإن أريد إلا ما شاء الله أن يكون فإنه يكون ، أو إلا ما شاء الله من إلهام وتوفيق فالاستثناء منقطع .

( ولَوْ كنتُ أعلمُ الغَيْبَ ) على الإطلاق ، وإنما علمت بعضه فقط وهو ما أخبرنى الله به ، فلا حاجة إلى قول بعضهم : إنه قال ذلك قبل أن يطلعه الله على غيب ، بل لا يصح ( لاسْتَكثَرتُ مِنَ الخَيْرْ ) كالمال فآخذ منه الكفاف لنفسى ، وأبثه فى المسلمين حتى أغنيهم عن غيرهم ، وكالصحة فأجتنب أنا والمسلمون ما يزايلها ، وكالثناء الحسن فأتوصل إلى أسبابه أنا والمسلمون تقوية للدين ، فأجتنب كل ما يكون لعدوى مدخلا إلى تنقيصى ، وكالرأى الحسن فلا أخطأ فى تدبير ، وكالنصر والسلامة فأكون أبدا غالبا لأعدائى إذا أمرت بحربهم وغير ذلك ، وكاغتنام المصالح الأخروية ، فأعلم ما يضعفنى عنها أو يفوتها أو يفوت أعلاها فأجتنبه مثل أن يعلم أنه إن نام بعد العشاء فلا ينتبه إلا للفجر فيترك النوم ونحو ذلك .

( ومَا مسَّنِىَ السُّوءُ ) عطف على جواب لو فهو مستقبل مثبت لنفى نفيه بلو ، أى ولما مسنى السوء وهو فوات نفع دنيوى أحتاج إليه ، أو أخروى ولحوق ضر دنيوى أو أخروى ( إنْ أنا إلا نَذِيرٌ وبَشِيرٌ ) تنازعا فى قوله : ( لقومٍ يؤْمنُونَ ) ولغيرهم ، ولكن اقتصر عليهم لأنهم المنتفعون بالنذارة والبشارة ، وصح تسليط النذارة على المؤمنين ، لأنهم يوعظون بها ، يقول لهم : إن فعلتم كذا عاقبكم الله بالنار ، أو بكذا وكذا ، وتسليط البشارة على غيرهم لأنهم يوعظون بها ترغيبا إن فعلتم كذا فلكم الجنة ، وكذا وكذا ، أو يقدر لنذير محذوف أى إلا نذير للكافرين ، ويراد بقوم مؤمنون قوم يطلب منهم الإيمان ، ويشمل من آمن ومن كفر ، فتصرف النذارة لمن كفر ، والبشارة لمن آمن ، وكأنه قال :

لا أتجاوز النذارة والبشارة إلى ملك النفع والضر وعلم الغيب ، بل أنا فى ذلك مثلكم .

ويجوز أن يكون قوله : « وما مسنى السوء » مستأنفا فيراد بالسوء الجنون بلغة هذيل كما فسر به قوله تعالى : « إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » كأنه قال : ولست بمجنون ، بل نذير بشير ، وما فسرت به الآية من العموم هو ما ظهر لى ، واستحسنه ولا يشكل عليه شىء منها .

وروى عن ابن عباس : أن أهل مكة قالوا : يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص فنشتريه قبل أن يغلوا فنتربح فيه ، وبالسنة المجدية فنعد لها من المخصبة ، وبالأرض التى تجدب فنترحل إلى أرض تخصب ، فنزلت الآية ، وليس المراد فى الآية فقط ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب على الصحيح ، ويحتمل أن يكون معنى « لاستكثرت من الخير » الأخروى متوصلا إليه بعلم الغيب لو علمته ، لا من الدنيوى كما تقولون أنتم ، وقال ابن جريج ومجاهد : المراد بالنفع الهدى ، وبالضر الضلالة ، وبالغيب وقت الموت وبالخير العمل الصالح ، فإنه كما يجتهد فى الصالحات لخفاء وقت الموت مخافة هجومه يجتهد لعلم وقته ، لأنه يظهر ظهورا واضحا حينئذ أن كل وقت مضى فقد انتقص من الأجل ، وهذا موجود فى خفائه ، لكن ظهوره دون ذلك ، وقيل : لو كنت أعلم الغيب لأعلمتكم بوقت قيام الساعة حتى تؤمنوا فيكثر خيرى دنيا وأخرى بذلك ، وما مسنى السوء وهو قولكم لو كنت نبيا لعلمت متى تقوم .

( هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ ) ذاتٍ ( وَاحِدَةٍ ) هى آدم ، والخطاب لجميع الناس ( وَجَعَلَ ) خلق ( مِنْهَا ) أى من النفس

الواحدة ( زَوْجَهَا ) حواء الأم وخلقها من ضلعه القصير الأيسر ، قيل : أخرج الضلع فخلقت منها ، وذلك فى الجنة ، فانظر ما مر فى غير هذه السورة ( لِيَسْكُنَ ) أى النفس ، وإنما ذكّر ولم يؤنث فيما مضى نظرا إلى ما أريد به وهو آدم ، وإنما نظر إلى هذا هنا ليتبين المراد بالنفس ، فإن الذكر هو الذى يسكن إلى الأنثى ويقصدها للجماع ويعلوها ، وأنها خلقت ليأنس بها ، والتذكير أنسب بذلك أى ليطمئن ( إليْها ) أى إلى الزوج وهو حواء ، ويأنس بها فإن الجنس أميل إلى الجنس وآنس به ، ولا سيما أنها بعض منه .

( فلمَّا تغَشَّاها ) علاها للجماع فى الدنيا ، فلما أهبطا وألقيت الشهوة فى قلبه ، والصحيح أنه كان يجامعها أيضا فى الجنة ، فهذه كناية لطيفة عن الجماع ( حَمَلَت حَمْلاً ) مصدر باق على معناه أو بمعنى مفعول ، أى محمولا وهو النطفة ، وقرأ حماد بن سلمة حملا بكسر الحاء عن ابن كثير ، ومعناه محمولا ( خَفِيفاً ) لأن الولد أول ما يكون فى الرحم خفيفا ثم يثقل لكبره ، أو المراد بخفته أنها لم تلق به ما تكره كما تلقى النساء من نتن يتصاعد ، وفى بعض الأوجاع ونحو ذلك .

( فَمرَّت بهِ ) أى لم يمنعها عن التصرف بالقيام والقعود والمشى لخفته ، ولو ثقل أو أصابها منه ما تكره لأعجزها أو أحزنها ، فتلزم موضعها ، أو المعنى استمرت به كما قرأ ابن عباس ، وكما قرأ ابن مسعود ، فاستمرت بحملها والاستمرار الدوام ، أى لم تنقطع عنه ، قيل : وقت الميلاد بوقوعه ، وقيل : إن هذا قلب وإن الباء بمعنى فى ، والأصل فاستمر بها ، وقرأ يحيى بن عمير ، وابن عباس فيما ذكر النقاش عنه : فمرت به بالتخفيف وهو فعل من المرية ، يقال مرى أى شك أى

ظنت الحمل وارتابت به ، وكانت لا تعرف ذلك ، وقيل : شكت أشىء فى بطنها أم مرض ، وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاص : فمارت به أى جاءت وذهبت ، يقال مارت الريح تمور أى جاءت وذهبت .

( فلمَّا أثْقلتْ ) دخلت فى الثقل لكبره ، كقولك : أصبح أى دخل فى الصبح ، وأشأم أى دخل فى الشام ، أو صارت ذات ثقل كقولك : ألبن الرجل وأتمر أى صار ذا لبن وتمر ، وقيل : حان وقت ثقلها بالحمل لكبره ، كقولك : أقربت هند إذا حان أن تكون قريبا ، وقرىء بالبناء للمفعول أى أثقلها الحمل ، أو أثقلها الله به ( دَعَوَا ) أى النفس الواحدة وزوجها ، وهما آدم وحواء ( الله ربَّهما ) الذى رباهما وملك أمرهما ، فهو أحق بأن يدعواه ويلتجئا إليه .

( لَئِن آتيْتَنا صَالحاً ) بشرا سويا صالح الجسم مثلنا ، لا حجرا وحمارا أو كلبا أو نحو ذلك مما ليس من جنسنا ذكرا أو أنثى ، وقال الحسن : لئن آتيتنا ذكرا لأن الذكورة من الصلاح والجودة ، وهو مفعول ثان ، وقال مكى : إيتاء صالحا فهو مفعول مطلق ( لنكوننَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ) لك على هذه النعمة المجددة ، وضمير آتيتنا وضمير نكون لآدم وحواء ، وقال جار الله : لهما ولمن يتناسل من ذريتهما .

( فَلمَّا آتاهمَا ) أى آدم وحواء ( صَالحاً ) كما أرادا وكان ذكرا ( جَعَلا ) أى آدم وحواء ( لَهُ ) أى الله ( شُرَكاءَ ) أى شركة ( فِيما آتاهُمَا ) متعلق بجعلا أو بشركاء ، وفى ظرفية أو سببية ، وقرأ أبىّ شركاء فيه ، وكذا فى مصحفه ، وهذه الشركة هى اتباعهما إبليس فى قوله : سمياه عبد الحارث ، وكان اسم إبليس فى الملائكة الحارث ، أو هى إضافته للحارث لا إشراك فى العبادة ، وسمى ذلك شركا بالنظر

إلى اللغة إذ اتبعناه كما يتبعان أمر الله ، وأضافاه للحارث كما تضاف الأشياء لله ، وفى ذلك تلويح بعتابهما عـلى ذلك ، أو بالنظر إلى علـو مرتبتهما ، حتى يعد ذلك إشراكا مع أنه ليس بإشراك ، ولا سيما أن آدم نبى ، وإنما أراد بتسميته عبد الحـارث أنه كان سبب حياته ، وسلامة أمة الحارث والإضافة تكون لأدنى ملابسة .

وقد قال يوسف فى العزيز : « إنه ربى » وأراد إنه مربينى وكافلى لا معبودى ، وتقول : أنا عبد فلان تريد أنك تخدمه وتقوم بحقه ، لا أنه معبودك فعوتبا على التسمية بما يوهم الشرك ، وعلى النظر إلى السبب ، وقد فسر أبو عبيدة الشرك هنا بالحظ والنصيب .

روى أن حواء لما حملت أول حمل لم تدر ما هو كما قرىء فمرت به بتخفيف الراء فجزعت لذلك ، فوجد إبليس لها سبيلا فقال لها حين أثقلت : ما يدريك ما فى جوفك ؟ لعله خنزير أو حية أو بهيمة أو كلب أو حمار ، وروى أنه قال لها : ما الذى فى بطنك ؟ فقالت : ما أدرى ، قال : إنى أخاف أن يكون بهيمة أو كلبا أو خنزيرا أترين فى الأرض إلا بهيمة أو نحوها ، قالت : إنى أخاف بعض ذلك ، وكان فى صورة رجل لا تعرفه ، فقال : وما يدريك من أين يخرج ؟ أينشق له بطنك فتموتى أو من فيك أو أنفك ؟ ولكن إن أطعتينى وسميتيه عبد الحارث فسأخلصه لك ، وأجعله بشرا مثلك ، فان لم تفعلى قتلته لك .

فأخبرت آدم فقال لها : ذلك صاحبنا الذى أغوانا فى الجنة ، لا نطيعه ، وقيل : قال لها : ما يدريك ما هو ؟ ومن أين يخرج ؟ خافت وذكرت لآدم فلم يرَ إلا فى غـم ، ثم عاد إليهـا إبليس فقال لهـا : إنى من الله بمنزلة ، فإن دعوت الله أن يجعله خلقا سويًّا مثلك ويسهل

خروجه فسميه عبد الحارث ، فذكرت ذلك لآدم فقال : لعل ذلك صاحبنا فلا تطيعيه ، ولم يزل بها حتى سمياه عبد الحارث ٠

وقال ابن عباس : سمياه عبد الله فمات ، وولد آخر فسمياه عبيد الله فمات ، وولد آخر فسمياه عبد الرحمن فمات ، فقال لهما : إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ، فسميا الرابع عبد الحارث فعاش ، وقيل : قال لهما هذا بعد موت الثانى ، فسميا الثالث عبد الحارث فعاش ، وروى أن الله سلطه على أولادهما فيموتون ، فقال ذلك ٠

وفى رواية عن ابن عباس : أتى آدم حين ولد له أول ولد فقال : أنصحك فى شأن ولدك هذا سمه عبد الحارث ، فقال : أعوذ بالله من طاعتك ، أطعتك فى أكلى من الشجرة فأخرجتنى من الجنة ، فلن أطيعك ، فمات وولد له ثان فقال : أطعنى وإلا مات كما مات الأول فعصاه فمات ، فقال : لا أزل أقتلهم حتى تسميه عبد الحارث ، وروى أنه لما ولدت أول أول ولد وقد قال لها ما خوفها به مما مر قال لها : ألا تسميه بى كما وعدتنى ؟ قالت : فما اسمك ؟ قال : اسمى الحارث ، فسمته عبد الحارث ، وذلك أنه جاءها لما كانت حاملا فقال لها : يا حواء ما الذى فى بطنك ؟ قلت : لا أدرى ، قال : لعله بهيمة من هذه البهائم ، قالت : لا أدرى ، فأعرض عنها حتى أثقلت فقال لها : كيف تجدين نفسك يا حواء ؟ قالت : إنى أخاف أن يكون الذى خوفتنى ما أستطيع القيام إذا قعدت ، قال أفرأيت إن دعوت الله فجعله إنسانا مثلك أو مثل آدم أتسميه بى ؟ قالت : نعم ، وقالت لآدم : إن الذى فى بطنى بهيمة ، وإنى لا أجد له ثقلا ٠

وروى أنه أتى آدم وقد مات له ولد اسمه عبد الله ، فقال : إن

شئت أن يعيش لك الولد فسمه عبد شمس فسماه ، وتم الكلام فى آدم وحواء واستأنفه فى مشركى مكـة وغيرها بقولـه :

( فَتَعَالَى اللهُ عمَّا يُشْرِكونَ ) وهو حسن ، وعليه الطبرى ، لكن خصه بمشركى العرب وهو تحكم ، وقيل : هذا فيهما أيضا ، وعبر عنهما بصيغة الجماعة مجازا أو لأن ألفها اثنان ، وقيل الضمير لهمـا ولإبليس لا اشتراكهم فى التسمية بعبد الحارث ، أو عبد شمس ، وهما قولان مقبولان أيضا ، وعلى هذا تم الكلام هنا ، أو فى ينصرون عليهما ، أو على إبليس .

وقال الحسن ، وعكرمة : إن فى الكلام حذفا الأصل جعل أولادهما له شركاء فيما آتاهم فحذف المضاف وهو أولاد ، فناب عنه المضاف إليه ، فاعتبر المضاف إليه دون المضاف ، فقيل : فيما آتاهما لا فى ما آتاهم ، وقد اعتبر المضاف فى : « فتعالى الله عما يشركون » الخ أو الأصل جعل أولادهما له شركاء فيما أتى أولادهما ، فحذفنا مضافان ، ولا يخفى إشراك بنى آدم غير الله فى العبادة وفى التسمية ، وقد سموا عبد العزى ، وعبد مناة ، وعبد مناف ، وعبد اللات ، وغير ذلك ، أو خوطب الأبوان آدم وحواء بفعل الأبناء ، كما جاء العكس وأعنى بالخطاب نسبة إليهما أو نسب إليهما فعل الأولاد ، لأنهما السبب فى وجودهم وفعلهم ، ولا ضير عليهما فى هذه السببية .

وفى رواية عن عكرمة : أن الله سبحانه خاطب بقوله : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » كل واحد على حدة ، فأبو زيد نفس واحدة ، وأبو عمرو نفس واحدة ، وأبو بكر نفس واحـدة ، وأبو خـالد نفس واحدة ، وهكذا فان كل واحد أبوه واحد لا متعدد ، أى خلق كل واحد

من أبيه ، وجعل منها زوجها بمعنى وجعل من جنس النفس الواحدة زوجها آدمية مثلها ، ويجوز أن يكون الخطاب لقريش الذين فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم آل قصى ، خلقوا من نفس واحدة هى قصى ، وكان له زوج من جنسه آدمية عربية ، قرشية ، ولما تغشاها حملت حملا خفيفا ، ولما ولد اسميا أولادهما عبد العزى ، وعبد قصى ، وعبد مناف ، وعبد الدار ، فضمير التثنية لهما ، وضمير الجمع لهما ، ولأعقابهما المقتدين بهما ، أو لعامة المشركين ، وبه قال ابن كيسان ، واستحسنه جار الله وغيره .

وقد قرأ غير نافع ، وأبى بكر ، وابن عباس ، وشيبة ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبان بن ثعلب ، وأبى جعفر جعلا له شركاء بضم الشين وفتح الراء والمد ، وهى أنسب بقول الحسن وعكرمة فى روايته ، وهذا الاحتمال الأخير ، وكذا قرأ حفص ، وأهل هذه القراءة لا يقولون بأن آدم وحواء هما بأنفسهما أشركا بالتسمية أو باتباع إبليس فيها ، لأنهما اتبعاه فى تسمية واحدة لولد واحد .

وإن قلت : فما وجه قراءة نافع ، ومن ذكرت معه بكسر الشين وإسكان الراء وتنوين الكاف على تأويل الحسن وعكرمة والوجه الأخير ؟

قلت : وجهها أن الشرك مصدر أو اسمه يصدق على إشراكة واحدة ، وعلى شركاء ، أو الأصل ذوى شرك وهم الشركاء ، وقيل ، كما مر عن الحسن ، وعكرمة : لكن فى اليهود والنصارى ، رزقوا أولادا فهوّدوهم ونصّروهم ، والصحيح أن نافعا وغيره قرءوا : عما يشركون بالتحتية ، وروى عنه وعن الحسن وأبى جعفر وأبى عمرو وعاصم بالفوقية .

( أيُشْركونَ ما لا يخْلُقُ شيئاً ) وهو إبليس أو الشمس على ما

مر أولا ، إذ سموا آدم وحواء ولدهما بعبد الحارث أو عبد شمس ، أو الأصنام وسائر التسميات المشركة على سائر التأويلات بالتحتية أيضا ، وروى عن هؤلاء أيضا بالفوقية خطابا لآدم وحواء أو لسائر المشركين علــى مــا مر ٠

( وهُمْ ) أى الأصنام ، وجمع نظر المعنى ما ، وذكرهم بضمير العقلاء بناء على اعتقاد عابديها فيها ، وتسميتهم إياها آلهة ، وكــذا فيما بعد ، وأما إذا جعلنا الكلام فى آدم وحواء فإنما جمع الضمير ، لأن لفظ يشركون ما لا يخلق شيئا يدل على سائر الأصنام ، وإلا فهما اتبعا إبليس فى ولد واحد بتسمية واحدة ، أو لأنه أوقع لفظ ما على سائر المعبودات ، كما تقول لمن ذبح كبشا بشــماله : أتذبح الكبــاش بالشمال ولو لم يذبح إلا كبشاً واحداً ، وإن يذبح غيره ، وقيل الضمير لعابدى الأصنام ، فالمراد أن يعتبروا أنهم مخلوقون ، فيجعلون إلههم خالقهم لا من لا يخلق ٠

( يـُخلقـُونَ ) أى خلقوا ، فالمضارع للمضى ، ويجوز أن يكون للاستقبال باعتبار الجنس أو للاستمرار التجددى ، والمراد أنهم مخلوقون لله ، أو منحوتون بالأيدى ٠

( ولا يَسـْتطِيعـُون ) أى الأصنام ، أى لعابديها ( نـَصْراً ولا أنفسَهم يـَنْصرُون ) عمن أراد الإفساد فيهم ، فكيف يعبد من لا يدفع الضر عن نفســه ٠

( وإنْ تـَدْعـُوهم ) الخطاب للمؤمنين ، والهاء للكافرين ، وأجاز بعضــهم أن يكون الخطاب للمؤمنين والكافرين ، والهــاء للأصنــام ، على قراءة أيشركون بالتحتية ، وللكافرين فقط ، والهاء للأصنام عــلى

القراءة بالفوقية ( إلى الهدَى ) الإسلام ( لا يتَّبعُوكم ) لأن الله طبع على قلوبهم ، وإذا جعلت الهاء للأصنام فالمعنى إن تدعوا الأصنام إلى أن يهدوكم إلى الرشاد من أمر الدنيا لم يتبعوكم إلى مرادكم ولم يجيبوكم ، وقراء غير نافع بتشديد التاء وفتحها وكسر الباء بعدها .

( سَوَاءٌ عليْكُم أدَعوْتمُوهُم أم أنتُم صامِتُونَ ) ساكتون عن الدعاء ، عطف الاسمية على الفعلية ، مع أن الاسمية للثبات ، والفعلية للحدوث ، ليدل على أن حدوث دعائهم ، وثبوت صمتهم سواء فى عدم التبع ، فدعاؤكم أيها المسلمون لا يفيد إسلام المشركين المطبوع عليهم ، أو دعاؤكم أيها الكافرون فقط ،أو الكافرون والمسلمون الأصنام لو دعوتموها يا مسلمين لا يفيد شيئا ، أو دعاؤكم أيها الكفار الأصنام إذا دهاكم أمر كصمتكم السابق قبل أن يدهاكم .

( إنَّ الذينَ تدْعُونَ ) تعبدون أوْ تطلبون ( مِنْ دُونِ الله ) من الأصنام ( عِبادٌ أمثالُكُم ) مخلوقة لله ، مملوكة له مسخرة ، كما أنكم مخلوقون مملوكون مسخرون ، فكيف تدعون مثلكم ، ويحتمل أن يكون هذا تهكما بهم ، أى هب أن الذين تدعون أحياء عقلاء فما هم إلا أمثالكم فى الحياة والعقل ، فكيف وهم لا حياة ولا عقل ، كما قرأ سعيد ابن جبير بتخفف نون إن وكسرها للساكن بعدها ، على أنها نافية عاملة عمل ليس ، ونصب عبادا على الخبرية ، وأمثالكم على التبعية ، أى ليسوا عبادا أمثالكم ، بل أنتم أفضل بالحياة والعقل ، فكيف تدعونهم .

ومن منع عمل إن النافية عمل ليس وهو سيبويه أو زعم أن إنَّ لا تكون نافية إلا إذا كانت قبل إلا وهو الكسائى خرَّج قراءة سعيد على أن إن مخففة ، وعبادا خبر لكان محذوفة ، أى كانوا عبادا ، وقال مقاتل

فى قراءة التشديد والرفع : إن الآية نزلت فى طائفة من العرب من خزاعة ، كانت تعبد الملائكة ، فأعلمهم الله أنهم عباد أمثالهم لا آلهة ، وكذا يقول على التخريج المذكور فى قراءة سعيد ، والصحيح ما مر لمناسبة السياق السابق واللاحق ، فان للملائكة أرجلا وأيديا وأعينا وآذانا من نور ، يعملون بها أعمالها .

( فادْعُوهُمْ فَلْيستجيبوا لكُم إنْ كُنتم صادِقينَ ) فى كونهم آلهة ، وتفسير الدعاء فى المواضع بالطلب أنسب بلفظ الاستجابة ، فهو أولى ، وليس أمرهم بالدعاء إباحة للشرك ، بل إظهار لعدم استجابتهم .

( ألَهمْ ) الاستفهام إنكار وتوبيخ ( أرْجلٌ يمشُونَ بها أمْ لَهم أيدٍ يبْطشُون بِها ) بكسر الطاء عند نافع ، والحسن ، والأعرج ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع فى رواية عنه بضم الطاء ، والبطش الضرب بشدة ، وعلامة الرفع فى أيدٍ الضمة المقدرة على الياء المحذوفة للتنوين ، وأم منقطعة بمعنى بل والهمزة ، وكذا فيما بعد وليست المتصلة والمنقطعة واحدة فى الصناعة كما زعم عياض .

( أمْ لَهم أعْينٌ يُبْصرونَ بِها أمْ لَهم آذانٌ يَسْمعونَ بِها ) وذلك أن الأصنام ولو صورت بأرجل وأيد وأعين وآذان ، لكن لا تمشى ولا تبطش ، بل لا تتحرك ولا تبصر ولا تسمع ، فكيف تعبدونها أو تطلبونها فى حوائجكم ( قُلْ ادْعُوا شُركاءَكُم ) اعبدوها لتنصركم علىّ أو اطلبوها أن تنصركم علىّ ( ثم كِيدُونِ ) امركوا بى أنتم ، أو أنتم وهى ، حذف نافع وغيره ياء المتكلم هنا وصلا ووقفا ، وكذا غيره إلا أبا عمرو فأثبتها فى الوصل ، وإلا هشاما فأثبتها وصلا ووقفا على خلاف عنه ، وروى عن نافع أيضا إثباتها وصلا ( فلا تُنظِرُونِ )

بحذف الياء وصلا ووقفا ، أى لا تهاونى بل اعجلوا فإنى لا أبالى بكم ، ولا تصلون إلىّ ، قال الحسن : كانوا يخوفونه بآلهتهم فنزلت الآية .

( إنّ ) تعليل مستأنف راجع إلى ما يدل عليه الكلام السابق من عدم مبالاته بهم ، وعدم وصولهم إليه ( وَليّىَ ) بكسر اللام والياء المشددة بعده وفيها ياءان : الأولى ياء فعيل زائدة ، والثانية لام الكلمة ، وفتح الياء بعد ذلك مخففة وهى ياء المتكلم ، وحذف الياء التى هى لام الكلمة من بينهما ، ويضـعف أن تحذف الزائدة ، وتدغم لام الكلمة ومنعـه الفارسى معللا بأن إدغام لام الكلمة يوجب الفك للأولى ( اللهُ ) خبر لإن ، وقرأ الجحدرى فيما قال أبو عمرو الدانى بياء واحدة مفتوحة مشددة ، وجر الله على الإضافة ، فيكون المراد به جبريل وعليه فقوله : ( الّذى ) خبر لإنّ وعلى الأول نعت لله .

( نزّلَ الكِتابَ ) أى لا أبالى بكم ، ولا تصلون إلىّ ، لأن وليى الله الذى نزل القرآن ونصرنى به ، أو لأن وليى جبريل الذى نزل بالكتاب أى جـاء بـه من السـماء إلىّ ( وهُوَ ) أى الله أو جبريل ( يتَولّى الصّالحينَ ) بالنصر والحفظ ، فإن جبريل حافظ وناصر بأمر الله ، والمراد بالصالحين الأنبياء وغيرهم ممن هو صالح أو غيرهم ، فيعلم أنه يتولاهم بالأولى ، أى يتولى الصالحين غير الأنبياء ، فكيف بالأنبياء ، وهذا أبلغ ، وقراءة غير الجحدرى أولى ، لأن الكلام قبل ذلك وبعده فى المعبودات ، والمعبود هو الله لا جبريل ، ولأن إنزال الكتاب وتولى الصالحين أنسب بالله ، ولأن تولى جبريل غير الأنبياء قليل ، إلا إن أراد بالصالحين الأنبيـــاء .

( والّذينَ تدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَستَطيعُون نَصْرَكُم ولا أنفُسَهم ينَصُرونَ ) بخلاف مدعوى فانه المستطيع المنصر ، ولا

يقدر أحد على إضراره ، وكرر لأنه من تمام التعليل المذكور ، ولا ما تقدم قبل تقريع وتوبيخ ، وهذا فرق بين من يجوز أن يعبد ومن لا يجوز .

( وإنْ تدْعُوهم ) الخطاب للنبى والمؤمنين ، أو لهم وللكافرين ، أو للكافرين ، والهاء للأصنام ، والتكرير لما مر آنفا ( إلى الهُدَى ) مثل ما مر ( لا يسْمعُوا ) لأنهم جماد ( وتَرَاهُم ينْظرُون إليْكَ ) أى تراهم بصورة الناظر ( وهُم لا يُبْصِرونَ ) لأنهم جماد وأعينهم جماد مصور بالأيدى ، وقال بعضهم : النظر بمعنى المقابلة ، فيشمل الكلام الصنم المصور بعين ، والذى بلا عين ، وقيل : الضمير المنصوب فى تدعوهم ، والضمائر بعداه للمشركين ، لا يسمعون الهدى سماع قبول ، وكأنهم لا يسمعون أصلا ، إذ لم يؤثر فيهم ما سمعوا ، تراهم ينظرون إليك بأعين وجوههم ، ولا يبصرون بقلوبهم ، أو تراهم ينظرون بأعين وجوههم ، وهم بمنزلة من لا يبصر ، لأن بصر العين لا ينفع فى الآخرة مع عمى القلب .

( خُذِ العَفْو ) ما يتيسر من الناس بلا كلفة من أفعال الناس وأقوالهم وأخلاقهم ، أى اقبله منهم ولا تكلفهم أن يعاملوك بما يشق عليهم فيملوا ، وتتولد العداوة ، ويزيدوا منك ما يشق عليك ، أو ما لا يقبله الدين ، وتضمن ذلك قبول عذرهم ، والغض عن مصايبهم ، وقيل : العفو ما فضل عن نفقة النفس ونفقة العيال ، وقيل : ما يتيسر من صدقاتهم ، وعليهما فهذا منسوخ بآية الزكاة ، ووجه نسخه أنه أمر بأخذ ذلك ، وأمروا بتسليمه ولا بد ، ولما نزلت الزكاة لم يجب عليهم غيرها ، وعليهما تفسير العفو بالفضل والزيادة ، كقولك : عفا الشعر والنبات ، فانما لم يحتج اليه العيال ، وما سهل من الصدقة فضل وزائد .

وقال مجاهد ، فيما ذكر مكى : العفو الزكاة وهو شاذ يلزم منه فرض الزكاة فى مكة وإشاعتها فيها ، وقيل : العفو عمن أساء إليك ، أى تمسك بالعفو عنه ، ولا تعاقبه ، وهذا لا ينسخ ، وأما إن أريد العفو عن المذنبين مطلقا فمنسوخ بآيات الحدود والقتال •

( وَأْمُرْ بالعُرْفِ ) محاسن الأخلاق والأمور الشرعية ، كقول : لا إله إلا الله ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : « ما هذا العرف الذى آمر به ؟ » فقال : لا أدرى حتى أسأل العالم ، فرجع إلى ربه فسأله ، ثم جاء فقال : يا محمد هو أن تعطى من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك • وهذا تمثيل بالغاية والمراد هذا وما دونه من فعل الخير ، كما قال له بعض ، وقرأ عيسى الثقفى ، فيما ذكر أبو حاتم بضم العين والراء ، والجمهور على إسكانها ، وكلاهما بمعنى المعروف •

( وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلينَ ) المشركين ، أى لا تجادلهم ولا تقاتلهم ، ثم نسخ بآية القتال كذا قالوا ، قال صاحب كتاب الناسخ والمنسوخ : هذه الآية من عجيب المنسوخ ، أولها منسوخ ، وآخرها منسوخ ، ووسطها محكم ، وقال ابن زيد : الآية كلها مداراة لكفار قريش ، ثم نسخت بآية السيف ، وأقول : لا نسخ فى الآية لجواز أن يكون العفو ما يسهل على الناس من قول حسن : وفعل حسن ، وخلق حسن ، والإعراض عن الجاهلين : الصبر وعدم المجازاة على ما أساءوا به إليه ، وذلك مأمور به أبدا ، ولا وجه لنسخ الأمر بالعرف •

وأيضا يحتمل أن يكون معنى « خذ العفو » قيل : من الناس ما تفضل به عليك ولا ترده عليهم فتنكسر قلوبهم ، وهذا لا يدخله النسخ ،

وقد صح أنه يقبل الهدية لا الزكاة ، ثم رأيت لبعضهم : أن الجمهور يقولون : إن الإعراض عن الجاهلين أمر مستمر فى الناس ما بقوا ، ويدل على عدم نسخ الآية : أن الحر بن قيس احتج بها على عمر فاقروه على احتجاجه ، ووقف عندها ، قال جار الله : وعن جعفر الصادق أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق ، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ، وفى الحديث : « إن الله سبحانه بعثنى لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال » ويأتى كلام فى خلقه إن شاء الله .

( وإمَّا ) إن الشرطية وما المؤكدة أبدلت النون ميما وأدغمت ( ينزِغنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ ) ينخسنك بالوسوسة فى قلبك ، شبهها بنخس الدابة ، ففى ينزغ استعارة تبعية تصريحية ، وقلَّ ما يستعمل النزغ إلا فى فعل الشيطان ، وقال الزجاج : النزغ أدنى حركة يكون ، ومن الشيطان أدنى وسوسة ، وقيل : النزغ حركة فيها فساد ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح لا ينزغ الشيطان فى يده » على أن النزغ فى يده حقيق ، وبه أشار إلى أخيه بالسلاح ، لكن يحتمل الوسوسة فى القلب ، وأوقعه على اليد لظهور أثرها فى البلد .

( نَزْغٌ ) بأن أمرك بخلاف ما أمرت ، وقيل : المراد التأثير الغضب ، وكانت الكفرة تواجهه بما يغضبه ، وقد روى أنه لما نزل : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » قال : « فكيف فى الغضب يا رب » فنزل : « وإما ينزغنك من الشيطان » إلى « عليم » وإنما أسند النزغ إلى نزغ مبالغة ، كقولك جد جده بضم دال جده ، وصام صومه بضم ميم صومه .

( فاسْتَعِذْ بالله ) اعتصم به أن يدفعه ( إنَّه سَميعٌ ) لدعائك مطلقا ، أو لاستعاذتك ، أو باقوال من آذاك ( عَليمٌ ) بحالك ، أو بما فيه صلاحك فيوفقك إليه ، أو بافعال من يؤذيك فيعاقبه عليها ، معينا لك عن الانتقام ، ومتابعة الشيطان ، واستدل ابن القاسم بالآية على أن الاستعاذة عند القراءة : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وليس كذلك ، بأن قوله : إنه سميع عليم كلام آخر تعليل لأمره بالاستعاذة وبقوله قالت النكّار ، وقد روى أن جبريل نهى النبى صلى الله عليه عنه وإنما يقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كما يتبادر من قوله عز وجل : « وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ولو سلمنا أن آية هذه السورة تدل على ما قال النكّار وابن القاسم ، من أن كيفية الاستعاذة ما ذكر لم نسلم ذلك عند القراءة ، لأن هذه فى نزغ الشيطان .

ولا دليل فى الآية ، على أن الأنبياء غير معصومين ، لأنه جاء النزغ على طريقة العرب فى الشك بإن الشرطية ، وقد علم أنه لا ينزغه الشيطان ، وإنما قال ذلك تأكيداً كما قال : « لئن أشركت ليحبطن عملك » وقد علم أنه لا يشرك أو تعليما للغير ، أو الخطاب للإنسان مطلقا ، أو لأنه ولو نزغه لا يتبعه فى نزغه ، فالعصمة عن قبول الوسوسة لا عنها وهو وهو الأظهر ، وفى الحديث : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن يلم بشر ، وقرينه من الملائكة يلم بخير » قالوا : فأنت ؟ قال : « وأنا لكن أعاننى الله عليه فأسلم » بفتح الميم أى آمن بالله على اختيار عياض وهو المختار عندى ، أو بضمها أى فأنجو من كيده ، واختاره الخطابى فلا يأمرنى إلا بخير ، وهذا دليل على ما اخترت ، لأن الأمر بخير فقط إنما يترتب على الإسلام ، ويتسبب عنه لا على

السلامة وعنها ، إلا إن جعلت الفاء تعليلية لا سببية ، أى فأنجو لأنه لا يأمرنى إلا بخير .

قال عياض : أجمعت الأمة على عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه ، ويبطل ادعاؤه الإجماع بما قال بعض العلماء أنه ألقى الشيطان على لسانه فى شأن الأصنام : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتها لترتجى ، وتأتى قصة ذلك إن شاء الله ، والخلاف فيها .

( إنَّ الذِينَ أتَّقَوا ) تركوا الشرك والمعاصى ( إذا مسَّهم طائفٌ مِنَ الشَّيْطانِ ) نزغ منه خاطر بهم ، وقيل : الطائف أكبر من النزغ ، كأنه طاف بهم من جهاتهم ، وحالة الشيطان مع غير الأنبياء أقوى من حالته معهم ، وقيل : الطائف أدنى نزغ ، وهو اسم فاعل من طاف يطوف ، أو من أطاف يطيف لغتان بمعنى ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائى ، ويعقوب : طيف بفتح الطاء وإسكان الياء وهو مصدر من طاف يطيف ، أى خطرة أو لمسة ، والمراد النزعة ، أو صفة مشبهة مخففة من طيف بتشديد الياء مكسورة ، وهو من طاف يطوف ، أو من طاف يطيف ، وقرأ ابن جبير طيف بالتشديد والكسر ، وذكر الكسائى أن الطيف بالإسكان الوسوسة ، والطائف ما يطوف حول الإنسان ، فكان يقرأ بالإسكان ، والصحيح أن الطائف يطلق أيضا على السوسة ويسمى الغضب ، والوسوسة طيفا لأنهما يشبهان الجنون ، وهما من الشيطان ، والجنون يسمى طيفا .

( تَذَكَّروا ) أن ذلك نزغ من الشيطان فتركوه ، أو تذكروا ما أمر الله به وما نهى عنه مما خالف نزغ الشيطان ، أو تذكروا العقاب

والثواب ، أو تذكروا الاستعاذة أو ذلك كله ، وقرأ ابن الزبير تأملوا ، وفى مصحف أبى : إن طاف من الشيطان طائف تأملوا ، وقال مجاهد : الطائف الغضب ، والصحيح أنه كل ما وسوس به الشيطان من المعاصى .

( فإذا هُم مُبْصرونَ ) بالتذكر والتأمل طريق الهدى ، فتجنبوا كيد الشيطان ، وفى الآية إشارة إلى أنهم قبل التذكر قد خفى عنهم الهدى بوسوسة الشيطان ، فهم غير مبصريه ، ولا سيما إذا كانت النزغة غضبا ، فإن الغضبان لا يدرى أين هو ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « إن الغضب جند من جند الجن ، أما ترون حمرة العين وانتفاخ العروق ، فإذا كان ذلك فالأرض الأرض » وروى الحسن : « أن الغضب جمرة توقد فى الجوف ، ألم تر إلى حمرة العينين ، وانتفاخ الودجين ، فإذا غضب أحدكم فإن كان قاعدا فلا يقم ، وإن كان قائما فليقعد ، وذلك أن الإنسان يجد فيه الشيطان فى حالة الغضب ما لا يجد فى غيرها » وعن الحسن : أن من الناس رجل سريع الغضب سريع الرضا ، ورجل بطيئهما فما للرجلين وما عليهما ؟ ورجل سريع الغضب بطىء الرضا فهذا عليه ورجل سريعه بطىء الغضب وهذا له ، وهذه الآية وما بعدها تأكيد وتقرير لما قبلها .

ومن ابتلى بوسوسة أو خوف أو فزع أو حديث نفس أو خيال فليكتب : « وإما ينزغنك » إلى « مبصرون » بزعفران وماء ورد يوم الجمعة فى سبع ورقات عند طلوع الشمس ، ويبلع كل يوم ورقة ، ويشرب عليها جرعة ماء يبرأ بإذن الله تعالى ، والمراد بالشيطان الجنس ، ولذا عبر عنه بالجمع أو بضمير الجماعة فى قوله :

( وإخْوانـُهم ) الإخْوان الشياطين والهاء الكفار ( يمدُّونهمْ )

الواو للشياطين ، والهاء للكفار ، فالخبر جار على ما هو له ( فى الغَىِّ ) الضلالة ( ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ) لا يمسكون عن إغوائهم ، والواو للشيطاين ، فالمعنى إن الشياطين الذين هم إخوان الكفار فى الكفر ، يزيدون الكفار كفرا ، ويعاضدونهم فيه بالتزيين والحمل ، وعليه الطبرى ، ويجوز أن يراد بالإخوان الكفار ، وبالهاء الشياطين ، فإن رجَّعنا الواو إلى الشياطين ، والهاء الثانية للكفار ، كان الخبر جاريا على غير ما هو له ، وكان واو يقصرون للشياطين أيضا ، وكان المعنى كالذى قبل ، وإن رجَّعنا الواوين للكفار ، والهائين للشياطين ، كان الخبر جاريا على ما هو له ، وكان المعنى إن الكفار يعاضدون الشياطين فى الكفر لاتباعهم للشياطين فيه ، وأمرهم غيرهم به ، ولا يمسكون عن ذلك .

وهذا الاحتمال بوجهيه أولى من حيث إنه يكون فيه إخوانهم فى مقابلة الذين اتقوا ، وعليه بالوجه الثانى لجرى الخبر فيه على ما هو له مع المقابلة جره قتادة ، ولو أريد بالإخوان والهاء الثانية الشياطين ، وبالهاء الأولى والواوين الكفار لجاز ، ويجوز رجع واو يقصرون للشياطين والكفار جميعا ، أى كل لا يقصر عما هو فيه ، وثم بمعنى الواو ، أو للترتيب فى الأخبار أو للترتيب والمهلة لا فى حكم ، بل باعتبار أن الإصرار وهو عدم الإقصار أغرق وأدخل فى الغى والكفر ، ويمد ويقصر مضارعا أمد وأقصر ، وهما مثل مد وقصر ، وقد قرأ غير نافع : يمدونهم بفتح الياء وضم الميم ، وقيل : مد فى الخير مثل : « إنما نمدهم به من مال وبنين » « وامددناهم بفاكهة » « أتمدونني بمال » لا فى الشر إلا بقرينة كالغى هنا ، ومد فى الشر مثل : « ويمدهم فى طغيانهم » ونسبه بعضهم للجمهور .

وقال أبو عبيدة وغيره : يقال مد الشىء بنفسه إذا كانت الزيادة

من نفسه ، وأمده إذا كانت من غـيره ، وليس بمطرد وقرأ الجحدرى بما دونهم وهو مفاعلة كل يمد الآخر ، وقرأ عيسى بن عمر ، وابن أبى عبلة يقصرون بفتح الياء وضم الصاد .

( وإذَا لَم تأتِهِم ) أى المشركين ( بآيةٍ ) معجزة أو آية من القرآن بأن طال ما لم يأتهم بمعجزة ، أو أبطأ الوحى ( قالُوا لَوْلا ) هلا فهى للتحضيض ، فالماضى بعدها للاستقبال أو للتوبيخ ، فالماضى على أصله ( اجْتَبَيْتها ) جمعتها باختيار واصطفاه من نفسك ، تقـولا منك أو سحرا ، فانهم يرمونه بالافتراء والسحر ، أى هلا أتيت بها وجمعتها لنفسك أى لنا تقولا أو سحرا كسائر أمرك ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، وابن زيد ، أو هلا تخيرتها على الله فانك بمنزلة عنده ، إذ تزعم أنك رسوله فيجيبك إليها ، وعليه ابن عبـاس ، ومجاهد فى روايـة ، والضحاك ، وقال الكلبى : كان أهل مكة يسألنه تعنتا ، فإذا تأخر الوحى اتهموه وكان يتأخر أحيانا .

( قُلْ إنَّما أتَّبِعُ ما يُوحَى إلىَّ مِنْ ربِّى ) إذا أوحى إلىَّ بإرادته ، ولست أقول من نفسى ، ولست أطلبه أن ينزل آية ، أو يخلق معجزة أردتها ، وليس الوحى بارادتى فيأتى إذا أردت ، بل بإرادته ، والأمر ولا معقب لحكمه .

( هَذا ) أى القرآن ( بَصَائر مِنْ ربِّكم ) القلوب تبصر بها الحق ، وتدرك الصواب ، وجمع لأنه آيات وسور كل آية أو سـورة بصيرة للقلب وإنما أطلقت عليه بصاير وهى بمعنى العيون ، لأنه للقلوب كالعين للوجه وان جعلت البصيرة بمعنى الإبصار بكسر الهمزة فلأنه سبب للإبصار ، فذكر السبب باسم المسبب فلا حاجة حاجة إلى تقدير بعضهم المضاف ، هكذا ذو بصائر .

( وهُدًى ورحْمة لقومٍ يؤمنُونَ ) وأما من لا يؤمن فهو عليه عمى ، قيل : والمؤمنون فى البصيرة بالغ الغاية كالمشاهد للشىء ، حتى إنه لو انكشف الغطاء لما ازداد معرفة ، وهو صاحب عين اليقين ، وبالغ درجة الاستدلال والنظر ، وهو صاحب علم اليقين ، والقران فى حقهما بصائر ، ومستسلم متابع لأهل الحق ، وهو صاحب حق اليقين ، والقرآن فى حقه رحمة .

( وإذا قُرِىء القُرآنُ ) شرع فى قراءته فى صلاة أو غيرها حين نزول أو بعد ذلك ، وفى أى موضع كما قال الحسن ، والظاهرية ( فاستَمعوا ) ألقُوا أسماعكم ( لهُ ) إعظاما له وتفهما وتدبرا ( وأنصِتُوا ) اسكتوا عن كلام الدنيا حين تسمعونه ، أما فى صلاة السر فليس المأموم بسامع ، بل هو شارع فى قراءة الفاتحة ، لما صح أنه لا صلاة إلا بها ، وأن الصلاة بدونها خداج ، وأما فى صلاة الجهر فشارع فى قراءتها أيضا لذلك ، وإذ أتمها استمع لقراءة الإمام كما فى الآية ، ونص عليه ابن مسعود .

هذا تحقيق المقام عندى ، وأما إذا كان يقرأ الإنسان وآخر مشتغل بكلام الآخرة أو العلم ، فجائز لوقوعه فى مساجد المسلمين ، وبحضرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وما ذكرت من قرأ الفاتحة للمأموم سرا وجهرا ، ومذهبنا معشر الأباضية ، ومذهب الشافعى ، وقيل عنه : إنه يقرأ السورة بعد فراغ الإمام سرا ، وأن هذا السر مراد فى قوله : « واذكر ربك فى نفسك » وهو باطل ، وقال قوم : لا يقرؤها فى السر ولا فى الجهر ، يرده ما ذكر من أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ، وأن الصلاة بدونها خداج ، وقال مالك : يقرؤها فى السر ، ويستمع لها وللسورة فى الجهر لهذه الآية ، ويرده لما ذكر أنهم كانوا يقرءون السورة وراءه صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا يفعلوا إلا بأم القرآن .

وقيل : نزلت فى قراءة سورة خلف الإمام نهيا لهم عنها فيقتصروا على الفاتحة ، وقال الكلبى : كانوا يرفعون أصواتهم فى الصلاة إذا سمعوا ذكر الجنة أو النار ، فأمروا بالاستماع والسكوت ، وقيل : نزلت فى تحريم الكلام فى الصلاة ، وكانوا يسلم بعضهم على بعض وهم فيها ، ويجىء الرجل ويقول لمن فيها : كم صليتم ؟ وكم بقى ؟ فيجيبه ونحو ذلك من حوائجهم .

وقال ابن جبير ، ومجاهد ، وعطاء : نزلت فى السكوت فى خطبة الجمعة إذا قرأ القرآن فى أثنائها ، ويرده أن الآية مكية ، والخطبة فى المدينة ، وأنه يوهم جواز الكلام فيها إذا لم يقرأ ، مع أن السكوت فيها واجب وقت قراءة القرآن وغيره كما صح فى الحديث ، فالسكوت فيها ولو عن الأمر بالإنصات واجب بالسنة .

وزعم بعض : أن الإنصات والاستماع لقراءة القرآن فى غير الصلاة مستحب لا واجب ، ونسب للأكثر ، وأنه سنة وليس كذلك ، بل السنة قراءة واحد على مستمعين ، وأما استماعهم وإنصاتهم فواجب بالقرآن فافهم ، وفى رواية عن ابن جبير : أنهـا نزلت فى إيجاب الاستماع والإنصات فى خطب العيدين والجمعة ، وفى جهر الإمام بالقراءة ، وقيل : المعنى إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وأنصتوا ، وقيل : معنى الاستماع له والإنصات العمل بما فيه ، وأجازه الزجاج ويضعفه قوله : « وإذا قرىء القرآن » إلا إن قيل : إنه ذكر هـذا لأنهم لا يتوصلون إلى علم ما فيه ، فضلا عن العمل بـه إلا بقراءته بمسعهم .

( لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ ) كى ترحموا ، وإشارة إلى أن يرجو الرحمة وهى باتباع الأمر واجتناب النهى .

( واذْكُر ربَّكَ ) بلسانك ( فى نَفْسِكَ ) أى سرا بأن تحرك لسانك ، وتسمع أذنك ، أو يكون بدون أن تسمع ، وهذا عام فى قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل ، وذلك أدخل فى الإخلاص ، والتدبر ، وقيل : الذكر القراءة فى الصلاة ، ويرده أن ليست قراءة الصلاة كلها سرا إلا إن أراد صلاة السر ، وقال : فرقة فى صلاة ركعتين فى الغدو ، وركعتين فى الآصال قبل أن تفرض الخمس .

( تَضَرُّعاً ) خضوعا وهو مفعول لأجله ، أو مفعول مطلقا أو حال على ما مر ( وخِيفَةً ) نوعا عظيما من الخوف ، قلبت الواو وياء لكسر ما قبلها ، ولا يحصل الخوف إلا وقد حصل الرجاء وبالعكس ، وإلا فالحاصل آيس لا خوف ، وقطع لا رجاء ، ولما كان لفظ الرب مشعرا بالتربية المتضمنة للرحمة والفضل والإحسان اتبعه بذكر التضرع والخوف ، ليجمع بين الخوف والرجاء .

( ودُونَ الجَهْرِ ) عطف على فى نفسك ، أو متعلق بمحذوف حال معطوفة على أخرى ، وهى تضرعا إذا جعل تضرعا حالا ، أى وثبوتا وتكلما ، وإنما قدرتها مصدر المناسبة تضرعا فى المصدرية ، ويجوز تقديرها وصفا أى وثابتا أو متكلما ، ومعنى كون الإنسان دون الجهر أنه بمعزل عنه ، ويجوز كونه متعلقا بمحذوف نعت لمصدر محذوف منصوب بحال محذوف ، أى ومتكلما كلاما ثابتا دون الجهر ، وعلى كل حال فهو من حيث المعنى مؤكد لقوله : « فى نفسك » إذا فسرنا فى نفسك كما مر السر ، وذلك إغراء بالسر بذكره مرتين ، هذا ما ظهر بالتأمل .

ويجوز أن يراد بالذكر فى النفس الإسرار بأن يسمع أذنه ، أو

يحرك اللسان بلا إسماعها ، وبقوله : « دون الجهر » إسماع الغير بلا جهر مفرط ، فيكون الكلام إباحة للأمرين ، ومن فسر ذلك فى الصلاة حمل الأول على صلاة السر ، والثانى على صلاة الجهر ، فيكون المراد بالجهر المجتنب الجهر المفرط كما علمت إشارة للتوسط .

ويجوز أن يكون المراد بالذكر فى النفس عدم تحرك اللسان مع تتبع الكلام فى النفس ، وهذا فى غير الصلاة ، وأما فيها فلا إلا لذى علة لم يجد معها سوى ذلك ، لكن إطلاق الذكر على ذلك مجاز عند الجمهور فيما قيل ، وقيل : حقيق وبدون الجهر تحرك اللسان بدون إسماع الآذان ، أو بدون إسماع الغير ، وهذا فى غير الصلاة ، وفى صلاة السر ، ويجوز أن يراد بالذكر فى النفس استحضار جلال الله فى القلب ، وبدون الجهر التكلم سرا ، والمعتبر فى الذكر ذكر القلب .

( مِنَ القَوْل ) متعلق بالجهر ، كقولك : أكلت من الطعام وشربت من المائع ( بالغُدُوِّ ) فى الغدو ، وهو جمع غدوة وهى البكرة ( والآصالِ ) جمع أصيل وهو ما بعد صلاة العصر إلى المغرب كيمين وأيمان ، ووزنه أفعال ، إلا أن ورشا نقل فتحة همزته للام ، وحذف الهمزة ، وقيل : جمع أصل بضم الهمزة والصاد ، وأصل جمع أصيل ، والمراد بالوقتين عموم الأوقات ، كما تقول لمن أردت وصفه بالنوم الكثير ينام بكرة وعشيا ، وهذا على ما مر من أن المراد مطلق الذكر ، وقيل : المراد خصوم الوقتين لفظهما ، فالغدوة وقت بعد الانتباه من النوم الشبيه بالموت ، فيفتح حياته بالذكر ، والأصيل آخر حياته ، بل قريب من آخرها ، لأنه لا ينام بعد العشاء ، والنوم كالموت فيستقبله بالذكر ، وأيضا تصعد أعمال الليل غدوة ، وأعمال النهار قريب المغرب أو فيه .

وأيضا لا تجوز النافلة فى الوقتين فليشتغل فيهما بالذكر ، وقيل : تجوز على كراهة ، وقيل : المراد خصوص الوقتين والذكر فيهما ركعتان فى كل منهما كما مر ، ومن قال : المراد بالذكر الصلوات الخمس الناسخات للركعتين ، قال : المراد عموم أوقاتها فى كل يوم ، فكما يجوز إطلاق الغدو والأصيل على جمع الأزمنة ، ويجوز إطلاقه على جمع أزمنة الصلوات الخمس ، وقيل : الآية فى صلاة الفجر فى الغداة ، وفى صلاة العصر فى الأصيل : أى العشية ، وقرأ أبو مجلز : والإيصال على المصدرية أى الدخول فى الأصيل ، تقول : أصل زيد بمد الهمزة بمعنى دخل فى الأصيل كالإغنام والإصباح والإمساء بمعنى الدخول فى وقت الغنمة ، ووقت الصباح ووقت المساء .

قال جار الله : وهو يطلق الغدو يعنى ، والله أعلم فى المصدرية بناء على أن الغدو مصدر لا جمع غدوة ( ولا تكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ ) عما يقرب إلى الله من الذكر وغيره ، بل قارب حالك بحال الملائكة فلا يغفلون عن الذكر وغيره ان العبادات كما قال :

( إنَّ الَّذين عِنْد ربِّكَ ) وهم الملائكة ، ومعنى العندية شرفهم وقربهم من فضل الله ورحمته ( لا يستَكبِرونَ عَنَ عِبادَتهِ ) مع شرفهم وبعدهم عن الذنب ، فكيف ليستكبر عنها الناس مع انغماسهم فى الذنوب ، واحتياجهم إلى الجنة ، فالآية تعريض بهم ، ولذا شرع السجود لقراءتها .

( ويُسبِّحونه ) فى كل وقت عما لا يليق ، أى ينزهونه فيمن قال سبحان الله فقد نزهه عموما عما لا يليق ، ومن قال : لا إله إلا الله فقد نزهه عن الشركة وهكذا ( ولَهُ يسْجُدونَ ) قدم الجار والمجرور للحصر

والفاصلة ، والتسبيح والسجود تمثيل للعبادة العامة التى لا يستكبرون عنها ، وهذا موضع السجدة ، وزعم النقاش والنخعى : إن شئت ركعت ، وإن شئت سجدت .

قال ابن عمر : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه ، حتى لا يجد بعضنا موضعا لجبهته فى غير وقت صلاة ، وبه يستدل مجىء سجود التلاوة فى الوقت الذى لا تجوز فيه الصلاة ، وليس بقاطع لاحتمال أن يريد فى غير وقت صلاة من الصلوات الخمس ، وفى الحديث : « عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » وأنه ليس فى السماء موضع شبر إلا وعليه ملك راكع ، أو ساجد ، أو مسبح ، أو مهلل ، أو معظم لله ، والله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة الأنفال

وسماها ابن عباس سورة بدر ، وهى مدنية ، قال مقاتل : إلا : « وإذ يمكر بك الذين كفروا » الآية فمكية ، والحق أنها مدنية كما قال ابن عباس ، أنها نزلت بالمدينة تذكيرا بما وقع له من تنجية الله إياه من أهل مكة حين أرادوا قتله فى مكة ، واستثنى بعضهم : « يا أيها النبى حسبك الله » الآية ، وصححه ابن العربى وغيره .

قال ابن عباس : نزلت لما أسلم عمر رضى الله عنه ، واستثنى بعض مع المذكورة أولا ، وهى : « واذ يمكر » الخ وقال السيوطى : الأنفال مدنية إلا : « وإذ يمكر » الآيات السبع فمكيات ، والصحيح أنهن مدنيات ، وأن ما هى تذكير بما وقع بمكة ، وأنها خمس وسبعون آية ، وقيل : ست وسبعون ، وقيل : سبع وسبعون ، وكلمها ألف وخمس وسبعون ، وحروفها خمسة آلاف وثمانون حرفا .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برىء من النفاق ، وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة ، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته » .

بسم الله الرحمن الرحيم

( يَسْأَلونَكَ عَنِ الأَنْفالِ ) السؤال سؤال استخبار ، فعن على : أصلها والأنفال الغنائم ، سميت الغنيمة نفلا بفتح النون والفاء ، أو بسكون الفاء ونافلة ، لأنها زيادة على القيام بالجهاد ، وحماية الحوزة ، والدعاء إلى الله عز وجل ، والنفل والنافلة لغة الزيادة ، ولأنها عطية من الله ، تفضل بها على هذه الأمة فقط ، يقال : نفله الله أو الإمام كذا ، أى أعطاه إياه ، وقيل : لا يقال نفله إلا إذا أعطاه زائدا عن حقه .

وقرأ ابن محيصن علنفال ، بنقل حركة همزة أنفال إلى اللام ، وحذف الهمزة وإدغام النون من عن فى اللام ، وقع اختلاف من المسلمين فى غنائم بدر كيف تقسم ؟ ولمن الحكم فى قسمها للمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا ؟ فجعلوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال : « يسألونك عن الأنفال » وقال جوابا لهم :

( قُلِ الأَنْفالُ للهِ والرَّسولِ ) أمرها مختص بهما ، فقسمتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما يأمره الله به ، فإن شاء قسمها ، وإن شاء أمر من يقسم ، هذا ما يتبين لى فى تفسير الآية ، وعليه الأكثر ، وقيل : السؤال سؤال طلب ، « فعن » إما زائدة مع أنها غير عرض عن أخرى ، أى يطلبونك أن تعطيهم الأنفال ، فالأنفال مفعول ثان ليسألونك ، ويدل لهذا قراءة ابن مسعود ، وسعد بن أبى وقاص ، وعلى ابن الحسن ، وأبى جعفر محمد بن على ، وجعفر بن محمد ، وطلحة بن مصرف ، وعكرمة ، والضحاك ، وعطاء : يسألونك الأنفال ، وأل لاستغراق غنائم بدر على أنها طلبوها كلها ، وللحقيقة على أنهم طلبوا

بعضها ، وإما بعنى من الابتدائية فافهم ، أو التبعضية وذلك أنهم افترقوا ثلاثـــا :

فرقة أقامت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش الذى صنع له ، تحميه وتؤنسه ، وفرقة أحاطت بالعدو ، وفرقة تقاتل فقتلت وأسرت ، وقالت : نحن أولى بالمغنم لأنا القاتلون الآسرون ، وقـــالت المحيطة : هو لنا لأنا الآخذون والمحيطون بالعدو ، وقالت القائمة بالعريش : نقدر أن نقاتل العدو ، ولكن خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم غرة العدو فقمنا معه ، فنزلت الآية •

وذكر الطبرى وغيره ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرض على العدو قبل ذلك [ بقوله ] : « من قتل قتيلا فله كذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا ، ومن أتى مكان كذا فله كذا ، ومن صنع كذا فله كذا ، ومن أخذ شيئا فهو لـــه ، وأن الله وعـــدنى النصر والغنيمة » فسارع الشبان فقتلوا سبعين وأسروا سبعين ، وبقيت الشيوخ تحت الرايات والوجوه ، فقالت الشبان : الغنيمة لنـــا لذلك ، وقالت الشيوخ : والوجوه : كنا ردءًا لكم وجنّة تنحازون إليها لو انهزمتم ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو اليسر بن عمرو الأنصارى من بنى سلمة : أنجز لنا الوعد ، قد قتلنا وأسرنا وفعلنا ، فقال سعيد بن معاذ ، وكان من وجوه [ مَنْ ] قعدوا بالعريش : ما منعنا أن نفعل ذلك زهد عن الآخرة ، ولا جبن ، ولكن كرهنا أن تعطف الخيل فتصيبك والمسلمين ، فأعرض عنهما ، فقال سعد : إن أعطيتهم ذلك فما لسائر أصحابك ، فان المغنم قليل فنزلت ، فقسم على السواء فكان قسمه على السواء إصلاحا لمـــا ساء من أخلاقهم فيه ، وتقوى وإصلاحا لذات البين •

وقال سعد بن أبى وقاص : قتل أخى عمير ، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكنيفة فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : قد شفى الله بهـذا السيف صدرى مـن المشركين فأعطنيه ، وكأنه قاتل به بعـد ما أخـذه ، أو أراد الشـفاء بأخذه وكان عظيما ، فقال لى : « ليس لى ولا لك فاطرحه فى القبض » أى فى جملة المقبوض من سلب المشركين بفتح القاف والباء فطرحته وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى ، وأخذ سلبى ، وخفت أن يعطيه من لم يبل بلائى ، وروى أنه لم يأخذه ، وإنما وجده فى جملة الغنيمة ، فقال : أعطينيه فقد وجدته فى جملة الغنيمة ، فأنا من قد علمت حاله ، فقال : « رده من حيث أخذته » فأردت طرحه فى القبض فرجعت ، فقلت : أعطنيه ، فنهرنى : « رده من حيث أخذته » .

وعلى الروايتين فما جاوز إلا قليلا ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه فقال : أخاف ان ينزل فى شىء ، قال : « اذهب فخذه سألتنيه وليس لى والآن هو لى ، وقد نزل : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » » وعن الكلبى أنه صرع وعد الأنصار المغنم ، فتكلم فيه المهاجرون فنزلت الآية ، فقال مالك بن ربيعة : أصبت سيف بن عائذ يوم بدر ، وكان يسمى المرزبان ، فأمر صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا ما بأيديهم من النفل فطرحته ، فسأله إياه الأرقم المخزومى فأعطاه ، وفى نفسى كراهة ، وكان لا يرد سائلا .

وقضية سعد ونحوها تدل على أن الأنفال فى الآية ما يعطاه القاتل زيادة على سهمه ، وأن معنى كونها لله ورسوله أنها لرسول الله ملكا يعطيها من يشاء ، وقد قيل بذلك فى بدر فقط ، وقال عطاء ، وابن عباس فى رواية عنه : إن الأنفال هنا ما شذ من المشركين إلى المسلمين كالفرس

الغائر ، والعبد الآبق ، والمتاع مما ليس سلبا هو للنبى صلى الله عليه وسم يصنع فيه ما يشاء ، وقال ابن عباس : الأنفال هنا ما وجد من مال المشركين بعد قسم الغنيمة هو له كذلك ، وهذا أن القولان حكمهما مستمر فى غير بدر أيضا ، وقيل : هما فيما ناله الجيش بعد الحرب ، وارتفاع الخوف .

وعن ابن عباس : إن الأنفال ما يعطيه الإمام لمن رآه من سيف أو فرس أو نحوه ، وعنه : الغنيمة ، ونسب للأكثر ، وعنه : ما يعطى الغازى زيادة ، وعن الحسن : الأنفال ما تجىء به السرايا وهو بعيد عن الآية لا يناسب الأسباب المذكورة ، بل خارج عن يوم بدر ، وعن مجاهد : هى الخمس ، قال المهاجرون : لا يخرج منا ، قيل : وهو قليل المناسبة للآية ، أو قيل : الأسارى والغنيمة ، وليست الآية منسوخة بآية الخمس ، بل تضمنت أنها يضعها حيث أمر الله ، وقد أمره فى غنائم بدر بالقسم على السوية ، أو أجاز له أن يفعل فيها ما يشـــاء ، وأمره فى سائر المغـــانم بالتخميس ، وما ذكره فى آيته .

وإذا قلنا : إن السؤال والجواب فى غنائم بدر لم يصح النسخ أيضا ، وقال مجاهد ، وعكرمة ، والسدى : منسوخة بآية الخمس ، وهذا إنما يصح على أن السؤال عن الغنائم مطلقا ، وكذا الجواب ، أو على أن السؤال عن غنائم بدر ، والجواب عام ، وهى أيضا عند ابن زيد ناسخة لتحريم الغنائم على من قبلنا ، وللإمام أو نائبه أن ينقل من الغنيمة قبل التخميس لمن يشاء من أهل الشجاعة وغيرهم ، بحسب نظر المصلحة ، ليحض على مكافحة العدو من أول الغنيمة أو وسطها أو آخرها ، أو بعد الفراغ من القتال بما شاء من دابة أو عبد أو سلاح أو ذهب أو فضة أو لؤلؤ أو غير ذلك من المال ، وأن يقول : من أخذ شيئا فله ،

ومن قتل أحدا فله سلبه ، أو له كذا ، ومن وصل موضع كذا فله كذا ونحو ذلك ، ولو كان لا يحسن لأحد أن يقاتل بنية المال ، ولا يعطى ما يدعى أنه سلبه ، أو قتل صاحبه أو فعل ما يستحقه به إلا بنية .

وقيل : يجرى شاهد واحد كما جرى لأبى قتادة ، ونسب للأكثر ، وقال الأوزاعى : يعطى بمجرد دعواه وهو أوضح إذا نادى منادى الإمام بما ذكر ، من أن من فعل كذا فله كذا ونحوه إذا وجد فى يده ، ولا يجوز له أن يخلف الوعد فى ذلك إلا أن تبين له أن الحق أو الرأى والمصلحة غير ما وعد به ، كما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ترك لأمر الله له ، بخلاف ذلك ، أو لئلا يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصاف ، وقيل : يلزمه الوفاء ولو خالف الرأى والمصلحة إن لم يخالف الحق .

وقال مالك لا ينفل إلا من الخمس ، وقال بن المسيب : من خمس الخمس ، وقال أنس : من أربعة الأخماس ، وقال الشافعى وابن حنبل : بعد الغنيمة قبل التخميس وفرقة قبل القتال فقط ، بأن يقول : من وصل موضع كذا ، أو هدم من الحصن كذا ونحو ذلك مما مر فله كذا ، ومنع مالك أن يقول لهم ذلك ، وإن قال وفى ، وعن الحسن : كان ينفل رسول الله بعد الخمس ، وذكروا أنه كان ينفل فى البداءة الربع ، وفى الرجعة الثلث ، قيل : لأن الرجوع أشد خوفا ، ومنع بعضهم أن ينفذ ذهبا وفضة أو لؤلؤاً ونحو ذلك .

وعن الشافعى : السلب للسالب ولو لم يقله الإمام لحكم النبى صلى الله عليه وسلم : وقيل : فى الغنيمة ، وروى أن المسلمين عسكروا فأتى عليهم أبو عبيدة بن الجراح أميراً ، وبلغ حبيب بن مسلمة ، وكان

فيهم علجا من الروم توجه فطلبه فقتله فأخذ سلبه ، وقر خمسة أبغل ديباجا ولؤلؤاً ، وقال أبو عبيدة : مالك منه إلا طابت به نفسى ، فقال حبيب : أناشدك الله أن تظلمنى فيما أعطانى الله ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قتل قتيلا فله سلبه » ؟ فقال : إنما ذلك فى غزوة بدر فقط ، وسمعته يقول : إن ذلك إلى الإمام ، فأخذه وخمسه فأعطاه الخمس ، فبلغ عشرة آلاف ، وقيل : إن كان السلب قليلا فللقاتل ، والأخمس للقاتل ، وقيل : للجميع ، وعن سعيد بن المسيب : لا نفل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وزعم ابن حنبل ، والشافعى : أنما ينفل السالب ما سلب من مقبل مبارزة لا ما سلب من منهزم ، واتفقوا أن السلاح سلب ، واختلف فى الفرس وما يتزين به للحرب ، وما فى الهيميان كدنانير ودراهم وجواهر ونحو ذلك ، وزعم بعض أنهم اتفقوا أن ما فى الهيميان من ذلك ليس سلبا ، وإن قال الإمام : من قتل قتيلا فله سلبه ، فقتل ذمى قتيلا فلا شىء له ، وقيل : يرضح للذمى من الغنيمة ، وإن قتل الإمام قتيلا بعد قوله ذلك فله سلبه .

وذكر الشيخ هود ، عن ابن عمر : أعطانا صلى الله عليه وسلم من غنيمة غنمناها اثنى عشر بعيرا لكل واحد ، ثم نفل لنا بعيرا بعيرا ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان فى الغزوة معهم ، وذكر البخارى ، ومسلم : أنه بعثهم ، ويجمع بأنه لحقهم بعد البعث ، وعن الحسن : أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم زماما من شعر قبل قسم الغنيمة ، فقال : « سألتنى زماماً من شعر نار فوالله ما كان لك أن تسأله ولا لى أن أعطيكه ولو أعطيتكه لأعطيتك زماما من نار » .

( فاتَّقُوا اللهَ ) بترك المحرمات والنزاع فى الغنائم ( وأصلحُوا ذات بيْنكم ) ذات بمعنى صاحبة ، وهى واقعة على الحالة ، وبين هى الظرفية فى مثل قولك : قعدت بين زيد وعمرو ، والمعنى أصلحوا الحال التى بينكم بالمساواة والمساعدة فى أمر الغنائم والتسليم لأمر الله ورسوله فيه ، فإنها قد فسدت بنزاعكم ، فاحتاجت إلى أن ترد كما كانت من محبة وألفة ومتابعة ، وعن بعضهم : إصلاحها برد بعض على بعض فيما أخذوا من السلب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل كلاما سلب ان قاتله فأمره الله بالرد ، وما فسرت به ذات بينكم حق واضح راجح لا يشكل منه شىء إن شاء الله .

وقول بعض : إنه متناقض خطأ ولك أن تجعل ذات بمعنى نفس ، كأنه قيل : أصلحوا نفس بينكم ، كما تقول : مررت بذات زيد تريد زيدا نفسه ، وذكر بعضهم أن هذا يستعمله الناس ، وليس عربيا فلا تفسر به الآية على هذا ، ولك أن تجعل البين بمعنى الانفصال ، لأنهما تخالفوا بالنزاع ، أى أصلحوا الحالة التى هى صاحبة تقاطعكم ، وهى ما يقع على التقاطع بالنزاع مثلا من البغض والغضب ، وإصلاحها بإزالتها ، أو أصلحوا نفس تقاطعكم بإزالته ، يقال : أصلح الفساد أى أزاله ، وقال الزجاج : البين هنا الوصل وهو ضعيف .

( وأطِيعُوا اللهَ ورسُولَه ) فى كل ما أمركم به ، ونهاكم عنه ، من أمر الغنيمة وغيره ( إنْ كُنتم مُؤْمِنينَ ) فإن الإيمان يقتضى ذلك ، كما تقول : إن كنت جيدا فافعل كذا تريد الإشارة إلى أنه غير جيد إن لم يفعله ، أو معنى مؤمنين كاملى الإيمان ، إشارة إلى أنه يكمل باتقاء المعاصى وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله فى الأمر والنهى ، كما تقول : إن كنت رجلا فافعل كذا ، تريد إن كنت كامل الرجولة ،

وزعم بعضهم عن سيبويه أنه يجيز تقديم جواب الشرط ، وأنه هنا أطيعوا الله ورسوله ، وعن المبرد أنه لا يتقدم ، وأنه محذوف مقدم كمثل ما سبق ، أى إن كنتم مؤمنين فأطيعوهما .

( إنَّما المؤمِنُونَ ) أى الكاملو الإيمان ( الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ ) فى القرآن وغيره ( وَجِلَتْ ) خافت أو رقت ، أو اقشعرَّت لذكره ، إعظاما له ومهابة من جلاله ، وقرئ بفتح الجيم وهو لغة ، وقرأ ابن مسعود فرقت بتخفيف الراء من الفرق بمعنى الخوف ( قلُوبُهم ) وقيل : الآية فيمن يريد معصية فيقال له : اتق الله فيتركها خوفا من عقابه ، فالخوف على القول الأول خوف الخواص ، وهو خوف إجلال ، وعلى الثانى خوف العصاة ، وهو خوف عقاب ، والمراد باطمئنان القلوب بذكر الله فى الآية الأخرى عدم اضطرابها بالشك فى الله ، والمراد بلينها إلى ذكره فى الأخرى لينها إلى رحمته ورأفته ، فلا منافاة بينهما وبين الآية .

( وإذا تُلِيَتْ ) قرئت ( عَليهم آياتهُ ) من القرآن ( زادَتْهم إيماناً ) تصديقا بالله ، فإن التصديق القلبى يزيد وينقص بكثرة النظر والأدلة ، وعدم ذلك ، ومعلوم أن ما يزيد بشىء ينقص بفقد ذلك الشىء ، فالإيمان يزيد وينقص ، وقد ذكر بالزيادة فى آيات غير هذه ، فإيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم ، لأنه لا تعتريه الشبهة ، وهذا هو الحق ، وعليه الأكثر ، ويدل له ما ورد : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح » .

وقال أبو حنيفة : لا يزيد ولا ينقص ، ولا يتفاوت فيه الناس ، وأما زيادة الإيمان ونقصه بمعنى حدوث شىء مما يؤمن به فيؤمن به أو يكفر ، أو بمعنى زيادة عمل شرعى مثل أن تنزل الزكاة فيؤمن بها ، ثم

الصوم فيؤمن به ، ومثل أن يصلى ، ثم يصوم ، ومثل أن يسبح ثم يسكت ، وأن يقر بكلمة الإخلاص ، ثم يميط الأذى عن الطريق ، فلا يختلف فى ذلك عاقل .

وأكثر أدلة الفقهاء على زيادة الإيمان ونقصه من هذا القبيل ، وليست بشىء ، وليس كل عالم يحسن الاستدلال ، وإنما يحسنه من مارس المعقول والمنقول ، فتمسك بما قررته لك ، فانك لا تجده مسطرا على هذا التحقيق فى غير هذا الكتاب ، ثم خذ عنى تحقيقا آخر هو أن الإيمان يجوز إطلاقه على مجرد التوحيد وهو التصديق ، كما يطلق على ذلك مع الإقرار والعمل وهو الإيمان الكامل ، لا يدخل أحد الجنة إلا به ، فيشتق منه مؤمن بمعنى موحد ، ومؤمن بمعنى موحد مقر عامل ، ولا نلتفت إلى غير ذلك مما تجده مسطرا ، ولولا أنه لا يجوز لى كتمان علم ظهر لى لاجتماع شروط النظر ما فمهت بذلك مما يخالف غيرى ، وزعم مالك أن الإيمان يزيد ولا ينقص ، واتفقوا على هذا فى حق الأنبياء والملائكة .

( وعَلَى ربِّهم ) لا على غيره ( يتوكلون ) فى جميع أمورهم دنيوية وأخروية ، ومن قسى قلبه من الموعظة ، وعطاء السائل ، وعمل الخير ، فليعمل قرصا من شعير خالص من قمح قبل طلوع الشمس ، ويكتب فيه بقلم فارغ من المداد سبع مرات « إنما المؤمنون » إلى « يتوكلون » فيرق قلبه بإذن الله .

( الَّذينَ يُقيمُون الصَّلاةَ ) يأتون بها على وجهها ( وممَّا رزَقْناهُم ينْفِقُون ) النفقة الواجبة من الزكاة ، أو إقراء ضيف ونفقة من لزمه إنفاقه كعيال وولى فقيروا المستحية .

( أولئكَ ) العــالون المرتبة ، الجامعون بين عمل القلب وهــو الوجل ، وزيادة الإيمــان بتلاوة القرآن ، والتوكل عــلى الله ، وعمل الجارحة وهو إقامة الصلاة والإنفاق ( هُم المؤمنُونَ ) فاجتهدوا أن تكونوا منهم ، ولكن لا يدرى أحد أكان منهم أم لا ؟ ولو اجتهاد لأنــه لا يدرى أوصل تلك الدرجة عند الله أم لا ؟ ولا يدرى بما يختم له ، وهل قبل منه أم لا ؟ فلا يقول الإنسان : أنا مؤمن ، ولا أنا مؤمن حتما ، أو حقا أنا مؤمن إن شاء الله كما نقول نحن ، والحسن والشافعى وغيره ، ولا يمكن أبى حنيفة أن يقول بغير ذلك ، لأنه لا به قائل بأن الإنسان لا يدرى الخاتمة والقبول •

وأما ما يحكى عنه من أنه يقال : أنا مؤمن حتما أو حقا ، ولا يجيز إن شاء الله فلعله فيمن قال : أنا مؤمن وأراد أنا مصدق بالله ورسوله وجميع ما جاء به ، ومتعاط لأمور الإسلام ، فإن هذا قطعا لا نقول إن شاء الله كما قال الحسن وغيره ، لأن إن للشك ، وقد علم أن الله سبحانه قد أنعم عليه بالتصديق والتعاطى ، فإن قال هذا المصدق المتعاطى ، أو من علم بالوحى : إنه سعيد إن شاء الله ، فمراده التبرك ، أو ســد ذريعة العجب ، وتحصيل الانكسار للنفس ، أو يريد هذا المصدق المتعاطى باشتراط المشيئة أنه لا يدرى ، لعله يختم له بالشرك والعياذ بالله ، فلعل الخلاف المذكور بين الشافعى وأبى حنيفة لفظى •

وعن سفيان الثورى : من زعم أنه مؤمن حقا ثم لم يشهد أنــه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية ، يريد الرد على من يقول ذلك ، فإن المؤمن حقا له الدرجة عند ربه ، والمغفرة والرزق الكريم ، كما ذكر فى النصف الآخر فكما لا يقطع بالدرجة والمغفرة والرزق لا يقطع بأنــه مؤمن ، وورد مثل هذا الرد عن ابن مســعود إذ قالت له جماعة منهم

علقمة : لقينا قوما فى سفر فقلنا : من القوم ؟ فقالوا : المؤمنون حقا ، فلم ندر ما نجيبهم ، فقال : هلا قلتم أمن أهل الجنة أنتم ؟

قال جار الله : حكى أنه قال أبو حنيفة لقتادة : لـم تستثنى فى إيمانك ؟ قال : اتباعا لإبراهيم فى قوله : « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى » فقال : هلا اقتديت به فى قوله : « أو لم تؤمن قال بلى » انتهى ، فانقطع قتادة ، قيل : وله أن يقول : قد قال بعد قوله : « بلى ولكن ليطمئن قلبى » فطلب مزيد الطمأنينة .

( حقًّا ) نعت لمصدر محذوف ، أى إيمانا حقا أى ثابتا راسخا ، أو مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة قبله ، وذلك أن الخفية تعلم من مجرد إخبار الله ، فيذكر لفظ حقا تأكيد وعامله محذوف ، أى أحقه حقا من حق المتعدى بالهمزة ، أو من حق المتعدى بنفسه .

( لَهم دَرَجاتٌ ) لكل واحد منهم درجات ، أو لكل منهم درجة أى مرتبة بين الدرجتين سبعون سنة بإسراع الفرس المضـمر ، وفى الحديث : « بينهما مائة عام » والواحدة تسع العالم وجملتهن سبعون ، أو مائة والارتقاء بقدر الأعمال ، والدخول فى الجنة بالإيمان وقسـمة درجات الجنة إلى العددين المذكورين غير قسمة درجات الإنسان الواحد .

( عِنْدَ ربِّهم ) أى فى الآخرة ، وقيل : الدرجات الكرامات ، وعن مجـاهد مبلغ أعمالهم فى الدنيـا عند الله ( ومغْفِرةٌ ) لذنوبهم ( ورِزقٌ كريمٌ ) حسن واسع دائم وهو رزق الجنة .

( كَما أخْرجَكَ ربُّكَ مِنْ بيْتِكَ بالحقِّ ) قال ابن هشام مـا حاصله : أن أبا عبيدة قال : الكاف حرف قسم ، وما بمعنى الذى مستعملة

فى العالم مثل : « والسماء وما بناها » أى والذى أخرجك وهو الله ، وأن رابط الصلة ربك ، وأن الكلام راجع إلى قوله : « الأنفال لله وللرسول » ويرده أن الكاف لم تجىء بمعنى واو القسم ، وأن ربط الموصول بالظاهر بابه الشعر ، وأن قوله : « كما أخرجك » بعيد المسافة عن قوله : « الأنفال لله وللرسول » فانه يقول: « الأنفال لله والرسول » دليل جواب القسم .

وقيل عنه : إن الدليل لهم درجات ومغفرة ورزق كريم ، وروى عنه : أن الجواب يجادلونك ، ويرده عدم توكيده ، وأن ابن الشجرى شنع على مكى فى حكاية هذا القول وسكوته عنه ، فلو أن قائلا قال : كالله لأفعلن لاستحق أن يبصق فى وجهه ، وأنه قيل : الكاف اسم بمعنى مثل مبتدأ خبره فاتقوا الله ، ويرده اقترانه بالفاء ، وخلوه من رابط ، وتباعد ما بينهما ، وأنه قيل نعت مصدر محذوف ، أى يجادلونك فى الحق الذى هو إخراجك من بيتك جدالا مثل جدال إخراجك ، وما مصدرية .

ويرده أن فيه تشبيه الشىء بنفسه ، وأنه قال الزجاج والطبرى : نعت مصدر محذوف تقديره الأنفال ثابتة لله والرسول ، مع كراهتهم ثبوتا مثل إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون ، وأنه قال الأخفش : نعت لحقا ، ويسهله تقاربهما وتقييد الإخراج للحق ، وزعم بعض أن المعنى لا يتناسق على هذا ، وأنه قيل خبر لمحذوف وهو أقرب من الذى قبله ، أى هذه الحالة التى من تفنيد الغزاة كحال إخراجك للحرب فى الكراهية . اه بتصرف .

وقال الفراء : متعلق بمحذوف تقديره امض لأمر ربك فى الغنائم ، ونفل من شئت وإن كرهوا كما أخرجك ربك وهم كارهون ، أى ففى ذلك

الخيرة فى الإخراج ، فهو متعلق بامض ، أو نفل ومعناه على ، وعلقه الكسائى ومجاهد بيجادلونك ، والجدال كراهة ، وقيل : نعت لخبر لمحذوف ، أى هذا المذكور من أن لهم درجات ومغفرة ورزقا كريما بما وعد حق ، كما أخرجك ، وقيل : المعنى وأصلحوا ذات بينكم ، ذلك خير لكم كما أخرجك ، وقال عكرمة : أطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، كما أخرجك ربك ، أى الطاعة خير لكم كما كان الإخراج خيرا لكم ، وقيل : متعلق بما تعلق به لهم ، وقيل : الكاف اسم بمعنى إذا ، أى واذكر يا محمد وهو باطل ، وأولى الأقوال خامسها وساسها والبيت بيته بالمدينة ، أو هو المدينة نفسها لأنها مهاجره ومسكنه ، وذلك قول الجمهور باحتماليه ، وقال بعضهم : بيته بمكة أو مكة نفسه وهو قول يونس بن بكير ، وبالحق متعلق بأخرج أو بمحذوف نعت لمصدر محذوف ، أى إخراجا ملتبسا بالحق .

( وإنَّ فَرِيقاً مِن المؤمنِينَ لكارِهُونَ ) للقتال أو لخروجك إليه ، وذلك لقلة المؤمنين وسلاحهم ، وعدم تأهبهم وما كان فيهم إلا فارسان ، وقيل : ثلاثة ، وكثرة العدو وسلاحهم ، وهذا على أنه خرج من بيته بنية الجهاد ، والجملة حال من ربك ، أو من كاف أخرجك ، والذى عندى أن الجملة مستأنفة لا حال ، إلا إن جعلت مقدرة ، وأن كراهيتهم للقتال بعد الخروج لا قبله أو عنده كما تراه فى القصة إن شاء الله .

( يُجادِلُونكَ ) أى ذلك الفريق ( فى الحقِّ ) الذى هو إيثارك الجهاد عن تلقى العير عكس ما يريدون ، أو فى إظهار الحق الذى هو الإسلام بالجهاد ( بَعْدَ ما تَبيَّنَ ) وقرأ ابن مسعود بين للبناء للمفعول وإسقاط التاء ( لَهم ) ما اسم أى بعد الذى تبين لهم ، وأنهم ينصرون ، سواء توجهوا للعير أو للقتال ، ولا يخفى أن القتال الموعود بالنصر فيه أولى أو مصدرية ففى تبين ضمير الحق .

( كأنمَّا يساقون إلى الموتِ وهم ينْظُرونَ ) يشاهدون أسبابه كمن جُرَّ إلى إنسان يذبحه ، وقد رأى فى يده الموسى ، بالغوا فى الجدال كراهة للقتال ككراهة المسوق للموت المشاهد لأسبابه ، ودل ذلك على أن جدالهم لشدة فزعهم ورعبهم ، وجملة هم ينظرون حال من الواو ، وقيل : إن ذلك فى المشركين ، يجادلون النبى صلى الله عليه وسلم فى الإسلام بعد ما ظهر بدلائله ، كأنما يساقون حين يؤمرون بـه إلى الموت وهم ينظرون .

( و ) اذكروا ( إذ يَعِدُكم ) وقرأ مسلمة بن محارب بإسكان دال يعدكم ، قال أبو الفتح : لتوالى الحركات ( اللهُ إحْدَى ) وقرأ ابن محيصن بوصل همزة إحدى فيما ذكر عنه ، ولا وجه له ، ولعله لم يكن الهمزة فتوهم الراوى أنه وصلها ( الطَّائِفَتيْنِ ) طائفة أبى سفيان مع العير ، وطائفة أبى جهل مع النفير ( أنَّهَا لَكُمْ ) بدل اشتمال مـن المفعـول الثانى وهو إحدى .

قال عبد الرحمن الثعالبى فى الأنوار فى آيات النبى المختار ، عن ابن عباس : لمـا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان مقبلا من الشام ، ندب المسلمين إليهم وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » فانتدب الناس ، فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا ، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان تخوفا ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمداً استنفر أصحابه إليك ، فحذر عند ذلك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة يستنفر قريشا إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم سريعا إلى مكة .

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها فقالت لأخيها العباس : يا أخى والله لقد رأيت رؤيا أفزعتنى وخفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم عنى ما أحدثك ، فقال لها : وما رأيت ؟ قالت : رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث ، فاجتمع الناس إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر أبى قبيس ، فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى حتى كانت بأسفل الجبل ارفضت ، فما بقى بيت ولا دار بمكة إلا دخلتها فلقة منها ، قال العباس : والله إن هذه لرؤيا وأنتِ فاكتميها ولا تذكريها لأحد •

ثم خرج العباس ، فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقا فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه ففشى الحديث حتى تحدثت به قريش ، قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآنى أبو جهل قال : يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا ، فلما فرغت أقبلت حتى جلست فقال لى : يا بنى عبد المطلب ، متى حدثت فيكم هذه النبية ؟ قلت : وماذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التى رأت عاتكة ، فقلت : وما رأت ؟ فقال : يا بنى عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ، قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال انفروا فى ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يكن حقا ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب •

قال العباس : فوالله ما كان منى إليه كبير إلا أنى جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئا ا ثم تفرقنا ، فلما أمسيت لم تبق امرأة

من بنى عبد المطلب إلا أتتنى فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك شىء غير لشىء أما سمعت ؟ قلت : قد والله فعلت ، ما كان منى إليــه كبير ، وايم الله لأتعرضنّ له ، فإن عاد لأكفيكنه .

فغدوت فى اليوم الثالث من رؤى عاتكة وأنا حديد مغضب ، أرى أنى قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه ، قال : فدخلت المسجد فرأيته ، فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرض له ليعود لبعض ما قال فأقع به ، وكان رجلا خفيفا حديد الوجه ، حديد اللسان ، حديد النظر ، إذ خرج نحو باب المسجد يشتد فقلت فى نفسى ما له لعنه الله أكل هذا فرقا منى أن أشاتمه ، فإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفارى يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، قد جدع بعيره ، وحول رحله ، وشق قميصه ، وهو يقول : يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ، أى مال التجارة أموالكم مع أبى سفيان عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث ، فشغلنى عنه وشغله عنى ما جاء من الأمر ، فتجهز الناس سراعا وقالوا : يظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ، والله ليعلمن غير ذلك ، فكانوا بين خارج وباعث مكانه رجلا ، ولم يتخلف من أشرافهم أحد إلا أبو لهب ، بعث مكانه العاصى ابن هشام .

ولما فرغوا من جهازهم ، ذكروا ما بينهم وبين بنى بكر بن عبد منات فخافوهم أن يأتوهم من خلفهم ، فكاد ذلك أن يثنيهم ، فتبدا لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك ابن جشعم ، وكان من أشراف كنانة فقال : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة مـن خلفكم بشىء تكرهونــه ، فخرجوا سراعـا .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لثمانى ليال خلون من شهر رمضان فى أصحابه ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان أبيض ، وكان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان ، إحداهما مع على والأخرى مع بعض الأنصار ، وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة أخا بنى مازن بن النجار ، وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ ، فسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقه من المدينة إلى مكة ، حتى إذا كان قريبا من الصفراء ، وهى قرية بين جبلين ، أحس به أبو سفيان ، فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها ، وترك بدرا بيسار ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلك ذات اليمين على واد يقال له ذفران ثم نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش .

فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه وقال وأحسن ، ثم قام عمر رضى الله عنه فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت منّا عين تطرف ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم [ ثم قال المقداد ] : فو الذى بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، دعا له به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشيروا علىّ » وإنما يريد الأنصار ، فقال له سعد بن معاذ ، وقيل : سعد بن عبادة بناء على أنه حضر بدرا ولعلهما جميعا تكلما : والله لكأنك إيانا تريد يا رسول الله ،

قال : « أجل » قال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أنما جئت بـه هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب ، صُدُق فى اللقاء ، لعل الله يريك فينا ما تقرُّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك .

ثم قال : « سيروا وأبشروا فإن الله سبحانه قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذا فران حتى نزل قريبا من بدر ، فركب هو صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه حتى وقفا على شيخ من العرب فسألاه عن قريش وعن محمد وأصحابه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أخبرتنا أخبرناك » فقال : وذاك بذاك ؟ قال : « نعم » قال الشخ : فإنه بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدقنى الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا المكان الذى فيه جند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا المكان الذى به قريش ، فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال فقال رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن من مـاء » ثم انصرفنا عنه ، قال يقول الشيخ : ما ماء من ماء العراق .

قال ابن هشام : يقال الشيخ سفيان الضمرى . قال ابن إسحاق : ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث

على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه ، فأصابوا راوية لقريش فيهم أسلم غلام ابن الحجاج ، وأبو يسار غلام ابن العاصى ، فأتوا بهما فسألوهما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، فقالا : نحن سقاة قريش ، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبى سفيان فضربوهما فأطلقوهما ، فقالا : نحن لأبى سفيان فتركوهما ، وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته وقال : « إذا صدقاكم ضربتوهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش أخبرانى عن قريش » قالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كم هم ؟ » قالا : كثير ، قال : « ما عدتهم ؟ » قالا : ما ندرى ، قال : « كم تنحرون كل يوم ؟ » قالا : يوما تسعا ويوما عشرا ، قال صلى الله عليه وسلم : « القوم ما بين تسعمائة والألف » ثم قال لهما : « فمن فيهم من أشراف قريش ؟ » قال : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البخترى ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى ، والنظر بن الحارث ، وزمعه بن الأسود ، وأبو جهل ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ود ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » .

وأقبلت قريش ، فلما نزلوا الجحفة رأى جهم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف رؤيا ، فقال : إنى رأيت فيما يرى النائم ، وإنى لبين النائم واليقظان ، أن رجلا أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ، ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم يعنى أبا جهل ، وأمية بن خلف ، وفلان وفلان ، فعدد رجالا ممن قتل يوم بدر من

أشراف قريش ، ثم رأيته ضرب فى لبة بعيره ، ثم أرسله فى العسكر فما بقى خباء فى العسكر لم يصبه نضح من دمه ، فبلغت أبا جهل فقال : وهذا أيضا نبى آخر من بنى المطلب سيعلم من المقتول غدا .

قال ابن إسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد سلمت لكم ، فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، وكان بدر موسما من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سوق كل عام ، فنقيم عليه ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعـام ، وتعزف علينا القينـات ، ونشرب الخمر ، فتسمع العرب لمخرجنا ، وإن محمدا لم يصب العير ، وإنا قد أذللناه ، فامضوا .

وقال الأخنس بن شريق ، وكان حليفا لبنى زهرة : يا بنى زهرة قد نجّى الله أموالكم فارجعوا أو اجعلونى أجبنها لا ما يقول هـذا يعنى أبا جهل فأطاعوه ورجعوا ، فلم يشهدها زهرى واحد ، ولم يكن من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس إلا بنى عدى لم يخرج منهم رجـل .

وقال سعد بن معاذ : يا نبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه وتُعد عنده ركبائك ، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركايبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا رسول الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولـو ظنوا أن تلقى حربا مـا تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير ، ثم بُنىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش ، فكان فيـــه .

قال عمر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله وسلم : « هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، هذا مصرع فلان » فوالذى بعثه بالحق ما أخطأ الحدود التى حد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال : « يا فلان يا فلان يا فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربّى حقا » قال عمر ، يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا روح فيها ؟ قال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علىّ شيئا » .

وعن أنس : انطلقوا حتى نزلوا بدرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض ، فما خالف أحدهم مصرعه ، وكان لواء المشركين يوم بدر مع جهل ، فساروا حتى كانوا بطرف الشعب ، بعث عتبة بن ربيعة غلاما له نحو مغرب الشمس طليعة ، فسار فى الوادى حتى إذا كان فى وجه الصبح ، بعث النبى صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام ، وسعد ابن أبى وقاص فقال لهما : « سيرا فكأنكما ستلقيان طليعة للمشركين غلاما لعتبة بن ربيعة فأتيانى به » فسارا حتى إذا كانا بالوادى أصابا العبد فى وجه الصبح فأسراه ، وأتيا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للغلام : « أخبرنى عن قومى ؟ » فقال : كيف تسألنى عنهم وقد بعثت إلىّ عن بينة فأخذتنى فاسأل الذى أخبرك عنى فليخبرك عن قومك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما إنه يصدقنى عن قومى إذا أخبرنى » ثم قال له العبد : سل عما شئت ، قال : « من أرسلك ؟ » قال عتبة بن ربيعة ، ثم ذكر له عددا من أشراف الكفار .

ثم إن قريشا ارتحلت حين أصبحت ، فأقبلت فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من الكثيب إلى الوادى قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة » فأجاب الله دعوته ، قال : فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض النبى صلى الله عليه وسلم فيهم حكيم بن حزام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوهم فما شرب منه يومئذ أحد إلا قتل » إلا ما كان من حكيم بن حزام فانه لم يقتل ، ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه ، فكان إذا اجتهد فى يمينه قال : والذى نجانى من يوم بدر .

فلما اطمأنت قريش بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا : احزر لنا أصحاب محمد ، فاستجال بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : هم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، ولكن أمهلوا حتى أنظر هل للقوم كمين أو مدد ؟ فضرب فى الوادى حتى بعد فلم ير شيئا ، فرجع إليهم فقال : ما رأيت شيئاً قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما إن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم ، فإذا أصابوا أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فرَوْا رأيكم ، فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة يسأله الرجوع بالناس وترك القتال ، فوافقه على ذلك ، فغضب أبو جهل وأبى وحرش على القتال ، وأفسد على الناس الرأى ، فحميت الحرب ، وتزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : « إن اكتنفتم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل » .

وكانت وقعة بدر يوم الجمعة ، وفى صبيحة سبع عشر من شهر رمضان ، وقيل : يوم الاثنين ، قال البراء بن عازب : حدثنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ممن شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمائة .

قال ابن إسحاق : وخرجت قريش وهم تسعمائة وخمسون مقاتلا ، وقيل : ألف ومعهم مائتا فرس يقودونها ، وقيل مائة وسبعمائة بعير ، وكان عقبة بن أبى معيط بمكة ، والنبى صلى الله عليه وسلم مهاجر بالمدينة يقول :

يا راكب الناقة القصوى تهاجرنا
عما قليل ترانى راكب الفرسى
أعل الرمح فيكم ثم أنهله
والسيف يأخذ فيكم كل ملتبس

فقال النبى صلى الله عليه وسلم وقد بلغه قوله : « اللهم كبه لمنخريه واصرعه » قال فجمح به فرسه يوم بدر فأخذه عبد الله بن مسلمة العجلانى ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصم بن ثابت فضرب عنقه صبرا ، وقاتل عكاشة بن محصن يوم بدر بسيفه حتى انقطع فى يده ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه جزلا من حطب فعاد سيفا فى يده طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديد ، فقاتل به حتى فتح الله تبارك وتعالى على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العود ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد فى قتال أهل الردة رضى الله عنه .

قال السهلى : أما سيف عكاشة الذى كان جزلا من حطب ، فقد

قيل : إنه لم يزل متوارثا عند آل عكاشة ، وقد روى مثل قصة عكاشة فى السيف ، لا عن عبد الله بن جحش .

وروى فى مقتل أبى جهل فرعون هذه الأمة لعنه الله ، عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه قال : بينما أنا واقف يوم بدر ، نظرت عن يمينى وشمالى ، فإذا أنا بين غلامين من الأصار حديثى السن ، فتمنيت أن لو كنت بين أضلع منهما ، فغمزنى أحدهما فقال : يا عم هل تعرف أبا جهل ؟ قلت : نعم ، وما حاجتك إليه يا ابن أخى ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواه حتى يموت الأعجل ، فتعجبت لذلك ، فغمزنى الآخر فقال مثلها ، قال : فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يزول فى الناس ، وفى رواية يرفل فى الناس ، وفى رواية يجول فى الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه وابتدراه فضرباه بسيفيهما حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه فقال : « أيكما قتله ؟ » فقال كل واحد منهما : أنا قتلته ، قال : « هل مسحتما سيفيكما ؟ » قالا : لا ، فنظر إلى السيفين فقال : « كلاكما قتله » وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والرجلان معاذ بن الجموح ، ومعاذ بن عفراء .

وفى رواية عن عبد الرحمن بن عوف : إنى لفى الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا أنس ، فكأنى لم آمن مكانهما إذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه : يا عم أرنى أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخى وما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ، فقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله ، فما سرنى أنى بين رجلين بمكانهما ، فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى

ضرباه ، وهما ابنا عفراء ، قال أنس بن مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ينظر لنا ما صنع أبو جهل » فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه ابنا عفراء حتى برد ، فأخذ بلحيته فقال : أنت أبو جهل ؟ قال : وهل فوق رجل فقتلتموه أو قال قتله قومه ، أى لا يقال فى غير ذلك .

وعن موسى بن عقبة : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف على القتلى ، فالتمس فيهم أبا جهل فلم يجده ، وعرف ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم لا يعجزنا فرعون هذه الأمة » فسعى له الرجال حتى وجده عبد الله بن مسعود مصروعا بينه وبين المعركة غير كبير ، وروى أن أبا جهل قال لابن مسعود لما وجده وبه رمق : لو غيرك قتلنى ، وروى أنه وجده وقد ضربت رجله فضربه بسيف غير طائل فلم يغن شيئا حتى سقط سيفه من يده ، فضربته حتى برد ، وروى أن أبا جهل وجده ابن مسعود وبه رمق فقال : هل أعمر من رجل قتلتموه .

وروى أنه لما فرغ القتال ، قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا يعجزك فرعون هذه الأمة » يعنى أبا جهل ، وقد التمس فى القتلى ولم يوجد ، جعله معاذ بن عفراء من شأنه فقصده فضربه ضربة طيرت قدمه بنصف ساقه ، قال فضربنى ابنه عكرمة على عاتقى ، فطرح يدى وتعلقت بجلدة ، فجعلت أسحبها ، ولما آذتنى جعلت عليها قدمى فقطعتها ، ومر به أخى فضربه حتى أثبته ، ومر به ابن مسعود وبه رمق أعنى أبا جهل فقال : لمن الدبرة اليوم ؟ قال ابن مسعود : لله ورسوله .

وذكر أبو إسحاق : لما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم البشير يوم بدر بقتل أبى جهل استحلفه بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيته

قتيلا ، فحلف له ، فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجدا ، وفى رواية ابن إسحاق : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتمس أبو جهل فى القتلى ، فمر به ابن مسعود بآخر رمق ، فوضع رجله على عنقه قال : وكان قد آذانى بمكة ، ولكزنى فقلت له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ وفى رواية : فقال لى : لقد ارتقيت يا رُوَيعى الغنم مرتقى صعبا ، ثم احتززت رأسه ، وجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبى جهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله الذى لا إله غيره » وكانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : نعم ، والله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله .

قال السهلى : الله الذى لا إله غيره بالخفض عند سيبويه وغيره ، لأن الاستفهام عوض من الخافض عنده ، وإذا كنت مخبرا قلت : آلله بالنصب عند المبرد ، وأجاز سيبويه الخفض أيضا لأنه قسم ، ولا يجوز إضمار حرف الجر إلا فى مثل هذا الموضع ، أو ما كثر استعماله جدا كما روى أن رؤبة كان يقول : خير عافاك الله إذا قيل له كيف أصبحت ، وذكر السهيلى ، عن قاسم بن ثابت : أن قريشا لما توجهت إلى بدر مرّ هاتف من الجن على مكة فى اليوم الذى وقع بهم المسلمون ينشد بأنفذ صوت ، ولا يرى شخص :

أزار الحنفيون بدراً وقيعة
سينقض منها ركن كسرى وقيصرا

أبادت رجالا من لؤى وأبرزت
خرائد يضربن الترائب حسرا

فيــا ويح من أمسى عدوُّ محمد
لقد جاز عن قصد الهدى وتحيرا

فقال قائلهم : مَنِ الحنفيون ؟ فقالوا : محمد وأصحابه ، يزعمون أنهم على دين إبراهيم الحنيف ، ثم لم يلبثوا أن جاءهم الخبر اليقين بمصاب قريش ، وذكر أبو سعيد النيسابورى : أنه لما توجه المشركون إلى بدر ، وكان فتيان ممن تخلف عنهم سمارا بذى طوى ، ولا ينامون حتى يذهب صــدر الليل يتناشدون الأشــعار ، ويتحدثون فبينما هم كذلك ليلة إذ سمعوا صوتا قريبا منهم ، ولا يروا القائل رافعا صوته يتغنى :

أزار الحنفيــون بــدراً مصــيبة
سينقض منها ركن كسرى وقيصرا
أرنت لهم صم الجبــال وأفزعت
قبــائل مــا بين الوتير وخيبرا
أساخت جبال الأخشبين وجــــ
ـردت حرائر يضربن الترائب حسرا
ويا ويح مــن أمسى عــدو محمد
لقــد ذاق ذلا فى الحياة وخسرا

فخرجوا فزعين حتى أتو الحجر ، فوجدوا مشيخة جلة فأخبروهم الخبر ، فقالوا لهم : إن كان ما تقولون حقــا فإن محمدا وأصــحابه يسمون الحنيفية ، فما بقى أحد من الفتيان الذين كانوا بذى طوى إلا وعك ، فما مكثوا إلا ليلتين أو ثلاثــا حتى قدِمَ الحيسمان الخزاعى بخبر أهل بدر .

قال ابن إسحاق : وكان أول مـن قـدم مكة بمصـاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى ، فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : قتل عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسـود ، ونبيه ومنبه ، وأبو البحترى ، فلما جعل يعـدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية ، وهو قاعد عند الحجر : والله إن يعقل هذا فسلوه عنى ، قالوا : ما فعل صفوان بن أمية قال : ها هو ذاك جالس فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل ، وكان العباس يكتم إسلامه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر كبته الله وأخزاه ، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزا ، وكنت أنحت الأقداح فى حجرة زمزم ، فوالله إنى لجالس فيهـا أنحت أقداحى وعندى أم الفضـل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهرى ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أو هبعيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال أبو لهب : هلم إلىّ فعندك لعمرى الخبر ، فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال : يا ابن أخى كيف كان أمر الناس فقال : والله ما هـو إلا أن لقينا القـوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شـاءوا ويأسروننا كيف شاءوا ايم الله مع ذلك مالمت الناس ، لقد لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض ، لا يقوم لها شىء .

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدى ، ثم قلت : تلك والله الملائكة ، فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شـديدة ، وثاورته

فاحتملنى فضرب بى الأرض ، ثم برك على يضربنى ، وكنت رجلا ضعيفا فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة ، فأخذه فضربته بـه ضربة شديدة ، فلقت فى رأسه شجة منكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيده ، فقام موليا ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته ، وهى قرحة [ تصيب الإنسان ] تتشاوم العرب بها ، ويرون أنها تعدو أشد العَدْوة فلما أصابت أبا لهب تباعد عنه بنوه وبقى بعد موته ثلاثا لا تقرب جنازته ، ولا يحاول دفنه ، فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له ثم دفعوه بعود فى حفرته ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه ، قاله الطبرى .

قال أبو سعيد : تركوه فى بيته حتى انشق ، وحينئذ ضموه إلى جدار وقذفوا عليه الحجارة من خلف الحائط حتى واروه ، وكذا قال يونس بن بكير أنهم لم يحفروا له ، ولكن أسندوه إلى حائط وقذفوا عليه الحجارة من خلف الحائط حتى واروه ، ورأى أبا لهب بعض أهله فى المنام بشر حال ، فقال : ما لقيت بعدكم راحة ، غير أنى شقيت فى مثل هذه ، وأشار إلى النقرة بين السبابة والإبهام بعتقى ثويبة هذه ، أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكره البخارى والله أعلم بصحته أو بطلانه .

وروى غيره من قومنا أن الذى رآه أخوه العباس بن عبد المطلب ، وأنه قال : مكثت حولا بعد موت أبى لهب لا أراه فى النوم ، ثم رأيته فى شرحال ، فقال : ما لقيت بعدكم راحة إلا أن العذاب يخفف عنى كل يوم اثنين ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين ، فبشرت أبا لهب بمولده ثويبة مولاته فأعتقها ، فنفعه وهو فى النار ،

والله أعلم بصحته أو بطلانه أيضـا ، وذلك أن الإشراك محبط للعمل ، فكيف يسقى به أو يخفف به العذاب فى الآخرة .

وذكر إمام الأندلس أبو عمرو بن عبد البر ، عن ابن عمر أنه قال : خرجت مرة فمررت بقبر من قبور الجاهلية ، فإذا رجل خرج من القبر يتأجج نارا ، فى عنقه سلسلة ، ومعى إداوة مـن ماء ، فقـال لى : يا عبد الله اسقنى ، فقلت : عرفنى فنادانى باسمى أو كلمة تقولها العرب يا عبد الله ، إذ خرج رجل مـن القبر فقال : يا عبـد الله لا تسقه ، فإنه كافر من الذين قتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ، ثـم أخذ السلسلة فاجتذبه فأدخله القبر ، ولعله أراد بالقبر مدفنه ، فإنه ألقى فى البئر مع غيره .

وقد روى نافع ذلك عن ابن عمر ، وذكر أن ذلك ببدر ، وأن الرجل خـرج من الأرض ، وأن الأسود خـرج معه ، ماسكان بطرف سلسلة متصلة بعنقه ، وأنه اجتذبه وأدخله الأرض ، قال بن عمر : فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أو قد رأيته ، ذلك عدو الله أبو جهل وهو عذابه إلى يوم القيامة » .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الفراغ من الحرب ، عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية ، وزيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، قال أسامة بن زيد : أتانا الخبر حين سوينا على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن زيد بن حارثة قد قدم فجئته وهو واقف بالمصلى ، قد غشية الناس وهو يقول : قتل تبة بن ربيعة ، وشيبة ابن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البحترى ، والعاصى بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، فقلت : يا أبتى أحق هذا ؟ قال : نعم والله يا بنى .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا إلى المدينة ، ومعه الأسارى فيهم عقبة بن أبى معيط ، والنظر بن الحارث ، حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفراء أمر بقتل النظر بن الحارث ، فقتله على ، ثم أمر بقتل عقبة بن أبى معيط ، ولما بلغ النجاشى مقتل قريش ببدر ، وما أظفر الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم ، خرج فى ثوبين ، ثم جلس على الأرض ، ثم دعا جعفر بن أبى طالب وأصحابه وقال : أيكم يعرف بدرا فأخبروه ، فقال النجاشى : أنا عارف بها ، قد رعيت الغنم فى جوانبها من الساحل على بعض مياهها ، ولكن أردت أن أتثبت منكم ، قد نصر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ببدر ، فاحمدوا الله تعالى على ذلك .

وذكر السهيلى : أنه أرسل إلى المسلمين الذين عنده ، وهم جعفر وأصحابه ، فدخلوا عليه فإذا هو قد لبس المسوح ، وقعد على الرماد والتراب فقالوا له : ما هذا أيها الملك ؟ فقال : إنا نجد فى الإنجيل أن الله سبحانه إذا أحدث لعبده نعمة وجب على العبد أن يحدث لله تواضعا ، وأن الله تعالى قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة ، وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم بلغنى أنه التقى هو وعدوه بواد يقال له بدر ، كثير الأراك كنت أرعى فيه الغنم على سيدى رجلا من بنى ضمرة ، وأن الله سبحانه قد هزم أعداءه فيه ، ونصر دينه .

وكان سهيل بن عمرو قد قام فى قريش خطيبا عندما استنفرهم أبو سفيان بالعير ، فقال : يا آل غالب أتاركون أنتم محمداً والصبات من أهل يثرب ، يأخذون عيركم وأموالكم ، من أراد مالا فهذا مالى ، ومن أراد قوة فهذه قوة ، فلما أسر يوم بدر قال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك

خطيبا فى موطن أبدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا أنه عسى أن يقوم مقاما لا تذمه » فكان كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، فكان له مقام محمود فى تثبيت أهل مكة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

وأسر أبو عزة عمرو بن عبد الله فقال : يا رسول الله لقد عرفت مالى من مال ، وإنى لذو حاجة وبنات وعيال ، فامنن علىَّ منَّ الله عليك ، فمنَّ عليه ، وأخذ عليه أن لا يظاهر أحدا عليه ، ولم يف بالعهد فقتله النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد ، وله قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » انتهى .

وغزوة بدر أعظم غزوات الإسلام ، إذ منها كان ظهوره ، ومنها أذل الله الكفار ، نزل جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : كيف تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « خيرنا أو من خيرنا » قال : كذلك الملائكة الذين حضروها عندنا .

وذكر بعضهم أنه خرج لبدر يوم السبت لاثنتى عشرة خلت من رمضان ، على رأس تسعة عشر شهرا ، واستخلف على المدينة أبا لُبابة الأنصارى ، وخرجت الأنصار ولم تخرج قبل ذلك معه ، وأن عدة من خرج من المسلمين ثلاثمائة وخمسة ، وضرب الثمانية بسهمهم وأخرهم لم يحضروها وأن معهم ثلاثة أفراس : بعرجة بوزن دحرجة للمقداد ، واليعسوب للزبير ، والسبيل لمرثد الغنوى ، وسبعون بعيرا ، وأن أبا سفيان كان بالشام فى ثلاثين راكبا منهم : عمرو بن العاص ، ومخرمة ابن نوفل الزهرى ، وقيل : فى أربعين ، ومعهم مال عظيم .

وأنه صلى الله وسلم أتـاه خبر خروج قريش لمنع العير وهـو بالروحاء ، وما استشار الناس فى حرب النفير ، أو طلب العير ، حتى كان فى ذفران ، وقيل : أتاه الخبر وهو فى ذفران ، وأنه أخذ فى الروحاء عينا لهم أخبره بخبرهم ، وبعث عينا من جهينة حليفا للأنصار يدعى أريقط ، فأتاه أيضا بخبرهم ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : أشيروا علىّ أيها الناس وتكلموا كما مر ، وإنما أراد الأنصار لأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصـلت فأنت فى ذمامنـا ، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا ، وكان صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن غشيه بالمدينة مـن عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسيروا معه إلى عدو من بلادهم .

وأنه لما التقى الجمعان خرج عتبة بن ربيعة بين أخيـه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة ، ودعى للمبارزة ، فخرج إليه عوف ومعاذ ابنا الحارث ، واسم أمهما عفراء ، وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، فقالوا : ما لنا فيكم حاجة ، ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « قم يا أبا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا على » فلما دنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ فتسموا لهم ، قالوا : نعم أكفاء كرام ، فبارز أبو عبيدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز على الوليد بن عتبة وهو الصحيح ، وقيل بارز أبو عبيدة شيبة ، وحمزة عتبة ، فقتل عـلى الوليد ، وقتل حمزة الـذى بارزه ، واختلف أبو عبيدة ومن بارزه بضربتين ، فوقعت الضربة فى ركبة أبى عبيدة ، ومال حمزة وعلىّ على الذى بارزه أبو عبيدة فأعاناه على قتله .

وقال : بارز علىّ شيبة ، وحمزة عتبة وقتلاهما ، وأبو عبيدة الوليد

وأكثر كل منهما جراحات الآخر ، ثم مال عليّ وحمزة على الوليد وقتلاه ، وحملا أبا عبيدة وهو غير مناسب ، لأن أبا عبيدة وحمزة كانا شيخين كعتبة وشيبة ، بخلاف على والوليد فشابان ، ولم يعب صلى الله عليه وسلم إعانة حمزة وعليّ لأبى عبيدة ، وأن عكرمة بن أبى جهل ضرب عُكاشة ابن محصن بتخفيف الكاف وتشديدها [ على عاتقه ] فتعلقت بجلدة ، فبصق عليها صلى الله عليه وسلم فالتصقت ، وقيل : وضع رجله عليها فقام فانقطعت ، فجاء بها النبى صلى الله عليه وسلم فبصق عليها فالتصقت ومات فى خلافة عثمان .

وأن قتلى المشركين طرحوا فى قليب حفروه تيسيرا على الصحابة ، إلا أمية بن خلف فإنه ضخم وقد انتفخ فى درعه حتى ملأها ، فألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة ، وأما ما روى [ أنه ] نادى على القليب : « يا عتبة ويا شيبة ويا أبا جهل ويا أمية » فوجهه أنه نادى أمية فيمن نادى وكان قريبا من القليب ، وكان من جملة رؤسائهم ، ونادى : « يا أهل القلب بئس العشيرة أنتم ، كذبتمونى وصدقنى الناس » ولما قال له عمر : كيف تكلم الموتى ؟ قال : « ما أنتم بأسمع منهم لكن لا يجيبون » كما مر قالت عائشة : أراد أنهم يعلمون ، ثم قرأت : « إنك لا تسمع الموتى » والصحيح أنهم سمعوه للزيادة فى الحسرة ، بأن أحياهم الله وأسمعهم بآذانهم بناء على أن الروح ترد للميت كله أو من رأسه إلى نصفه قولان ، أو بأرواحهم بناء على أنها لا ترد ، وإذا جاز أن يعلموا جاز أن يسمعوا بأمر الله ، فالنبى ولو كان لا يسمع الموتى لكن إذا شاء الله أسمعهم ، أو بلغ الله صوته أسماعهم ، ومعنى الآية أن الله يوصل الموعظة إلى الآذان ويوفق لا أنت .

ومن آيات بدر الباقية : أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون

كهيئة طبل ملوك الوقت ، ويرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان ، وليس كل واحد يسمع ذلك الصوت ، وعن بعضهم أنه لما فرغ من بدر فى آخر رمضان وأول يوم من شوال ، بعث زيد بن حارثة بشيرا فوصل المدينة ضحى وقد نفضوا أيديهم من تراب رقية بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الصحيح ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم شهد دفن بنته رقية فقعد على قبرها ودمعت عيناه وقال : « أيكم لم يفارق الليلة ؟ » فقال أبو طلحة ، أنا والمفارقة الجماع ، فأمره أن ينزلها فى قبرها ، وكان عثمان مجنبا وإلا فهو أحق بإنزالها لأنها زوجه ، وقد تخلف عن بدر لأجلها والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم حضر دفن بنته أم كلثوم لا رقية .

وعن بعض أنه أمر بقتل عقبة بن أبى معيط عاصم بن ثابت عند انصرافه فقتله ، وجعل عبد الله بن كعب المازنى على الغنائم ، وأمر عليا بالصفراء بقتل النظر بن الحارث فقتله ، ولما خرج من مضيق الصفراء قسم الغنائم سواء ، وقدم المدينة قبل الأسارى بيوم ، ولما قدموا فرقهم على الصحابة وقال : « استوصوا بهم خيرا » وقام النواح على قتلى قريش شهرا .

( وتَوَدُّونَ ) تمنون ( أنَّ غَيرَ ذَاتِ ) صاحبة ( الشَّوْكَةِ ) الشدة والقوة ، وأصلها الحدة استعارة من واحدة الشوك ( تكُونُ لَكُمْ ) والطائفة صاحبة الشوكة النفير الذى استنفرهم أبو سفيان ، نادى أبو جهل على الكعبة : يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول ، يعنى بالنجاء الإسراع ، عيركم وأموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبدا ، وجاءوا فى كثر وسلاح تام ، والطائفة غير صاحبة الشوكة هى العير ، تمنوها لكثرة الخير فيها ، وقلة رجالها ، وهى أربعون رجلا أو ثلاثون كما مر ، فيهم أبو سفيان ، وعمرو بن العاص ، وعمرو بن هشام ، ومخرمة بن نوفل .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم استشارهم فى العير وقد ساحل بها أبو سفيان ، وبعدت وفاتت ، وفى النفير وقالوا : العير أحب إلينا من لقاء العدو ، فتغير وجهه غضبا ، ثم ردّ عليهم فقال : « إن العير مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل » فقالوا : يا رسول الله صلى الله عليك ، عليك بالعير ودع العدو ، فقام أبو بكر فقال وأحسن ، ثم عمر كما مر ، ثم سعد بن عبادة كما مر ، وقيل : قال له سعد : انظر أمرك فوالله لو سرت إلى عدن لم يتخلف عنك رجل من الأنصار ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال ما مر وأحسن ، ثم سعد بن معاذ فقال ما مر ، ولم يقل بعده : « أشيروا علىَّ أيها الناس » .

وروى أنه لما استشارهم قال بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ، إنا خرجنا للعير ، فقال ما مر من أنها فاتت وأن هذا أبو جهل قد أقبل الخ ، وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شىء ، فناداه العباس وهو فى وثاقه : لا يصلح ، فقال له : « لم ؟ » قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك ، قال : « صدقت » وقرأ أبو عمرو فى رواية أبى حاتم بإدغام التاء الشوكة فى تاء تكون .

( ويُريدُ الله أن يُحقَّ الحقَّ ) أن يثبته ويظهره ( بكَلماتِهِ ) أى مما أوحى إليه من الأمر بقتال ذات الشوكة ، وأمر الملائكة بالنزول نصرة وما قضى من الأسر والقتل ، أو إرادة ما سبق من ذلك فى الأزل ، وقرأ أبو جعفر وشيبة فى رواية عنهما بكلمته بالإفراد ، وإرادة معنى الجمع ، أو معنى المفرد الجامع لذلك ، كأنه قيل : بأمره أو قضائه ، وزعم بعضهم أنها قراءة نافع .

( ويقطع دابر الكافرين ) أى يستأصلهم كمن بدل بأول الشىء حتى أتى على دابره ، أى أخره ، فإما أن يراد قطعهم كلهم تحقيقا على أن المرا كفار قريش ، وهذا مبدأ قطعهم ، وما زالوا فى قلة حتى لم يبق واحد ، وإما أن يكون عبارة عن الغلبة ، وكلاهما وارد فى كلام العرب .

( ليحق الحق ) متعلق بمحذوف أى فعل ذلك ليحق الحق ( ويبطل الباطل ) وليس هذا تكرارا بما قبله ، لأن هذا بيان لعلة حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على اختيار ذات الشوكة ، ولعلة نصره على الكفار وما قبله إخبارا بما أراد الله ، وإظهار تفاوت ما بين إرادة الله وإرادة المسلمين ، فإن أرادوا العير حبا للعاجلة وسفاسف الأمور القليلة الفانية من بين أيديهم عن قريب ، وأراد الله معالى الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين وعلوه ، وفوز الدارين ، ويجوز تقدير ذلك المتعلق مؤخرا للحصر ، ويجوز التعليق بيقطع ، ومعنى إبطال الباطل إزالته وقهر أهله .

( ولو كره المجرمون ) المشركون ذلك ، والجملة حال ، وعن الحسن : هذه الآية نزلت قبل قوله : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » وكان يجىء جبريل بالآية فيقول : إن الله يأمرك أن تضعها بين كذا وكذا من السورة .

( إذ ) بدل من إذ فى قوله : « وإذ يعدكم » على أن الوعد كان فى وقت الاستغاثة فيما زعم بعض ، أو مفعول لاذكروا محذوفا مستأنفا أو متعلق بيحق أو يبطل ، وزعم بعضهم أنه يجوز تعليقه بيعدكم ( تستغيثون ربكم ) وقرأ أبو عمرو فى رواية أبى حاتم بإدغام الذال فى التاء ، واستحسنها أبو حاتم ، والاستغاثة طلب الغوث ، والمراد

النصر ، قيل : لما علموا أنه لا بد من القتال أخذوا هم والنبى صلى الله عليه وسلم يقولون : رب انصرنا على عدوك ، وزعم بعض أن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وحده ، ولفظ الجماعة تعظيم له .

وعن ابن عباس ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم : لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف ، ثم مد يده فجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » فما زال يهتف بربه مادا يديه ، مستقبلا للقبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فأتى أبو بكر رضى الله عنه ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبى الله كفاك منا شدتك ربك ، فإنه سينجز ما وعدك ، وفى ذلك نزل : « إذ تستغيثون ربكم » الخ .

وذلك الدعاء فى داخل العريش ، وفيه معه أبو بكر وحده ، وفى رواية ابن إسحاق أنه قال : خل بعض مناشدتك ربك ، قيل : قال : خل البعض ، ولم يقل خل الكل ، لأن جهاده فى ذلك الوقت كان الدعاء فقط .

وفى رواية أنه لما رأى كثرة العدو ، ركع ركعتين وأبو بكر عن يمينه وقال فى صلاته : « اللهم لا تخذلنى ، اللهم أنشدك ما وعدتنى » وذلك كله بعد أن عدّل صفوف أصحابه وأمرهم ونهاهم ، وبينما هو فى العريش مع أبى بكر إذ خفق خفقة ثم انتبه متبسما فقال : « أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل على ثناياه النقع » الثنايا أربع أسنان ، فى مقدم الفم اثنتان من فوق واثنتان من تحت ، والنقع الغبار ، ثم خرج من باب العريش يتلو : « سيهزم الجمع ويولّون الدبر » قال علىّ : قاتلت يوم بدر شيئا من القتال ، ثم جئت إلى رسول الله صلى

الله عليه وسلم أنظر ما صنع ، فإذا هو ساجد يقول : « يا حى يا قيوم » ثم رجعت إلى القتال ، ثم جئت فإذا هو ساجد لا يزيد على ذلك ، ثم ذهبت إلى القتال ، ثم جئت فإذا هو ساجد يقول ذلك ، ففتح الله عليه ، ومات ستة رجال من المهاجرين ، وستة من الخزرج ، واثنان من الأوس . من المهاجرين ، وستة من الخزرج ، واثنان من الأوس .

وإن قلت : كيف قال أبو بكر خل عنك بعض مناشـــدتك ربك أو كفاك مناشدتك ربك ؟

قلت : أجاب السهيلى نقلا عن شيخه بأن الغالب حينئذ على أبى بكر الرجاء ، وعلى النبى صلى الله عليه وسلم الخوف ، وقال الخطابى : بالغ فى الدعاء شفقة على أصحابه ، وتقوية لقلوبهم ، إذ علموا أن دعاءه مستجاب ، ولما قال له أبو بكر ذلك كف ، وعلم أنه استجيب له لمـــا وجد أبو بكر فى نفسه من الطمأنينة ، وكان صلى الله عليه وسلم فى تلك الحال فى مقام الخوف ، وهو أكمل حالات الصلاة ، وجاز عنـــده أن لا يقع النصر يؤمئذ ، لأن وعده بالنصر لم يكن معينا لتلك الواقعة ، وإنما قال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة » الخ ، لأنه لو هلك ومن معه لم يبعث داع إلى الإيمان ، لأنه خاتم النبيين ، وإنمـــا تعب فى الدعاء لرؤيتـــه الملائكة تتصب فى القتال ، وأنصار الله يخوضون فيه ، والجهاد جهاد سيف وجهاد دعاء ، ومن سنة الإمام أن يكون وراء الجند لا يقاتل ، ولا يظن أحد أن أبا بكر أوثق بربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى كلام الخطابى .

( فاسْتَجابَ لَكم أنّى ) بأنى وقرأ أبو عمرو فى الرواية المشهورة ، وقيل : الشاذة ، وعن ابن عمر فى رواية بكسر الهمزة على تقدير القول ، أو على إجراء اســـتجاب مجـــرى قال ( مُمِدُّكم ) مكثركم ومقويكم

( بألْفٍ مِنَ الملائِكَةِ ) وقرأ عاصم والجحدرى بألف بهمزة فألف فلام مضمومة جمع ألف كفلس وأفلس ، وتوافق قراءته ما فى آل عمران ، وكذا ما روى عنه وعن السدى بالآف .

( مُرْدِفينَ ) بفتح الدال عند نافع ويعقوب ، أى متبعين بإسكان التاء وفتح الباء ، أى تبع الله غيرهم إياهم ، فهذا من أردف المتعدى لاثنين ، وأنيب الثانى وحذف الأول ، فالمعنى على هذا أنهم مقدمة الجيش ، أو أتبعهم الله غيرهم ، أى جعلهم تابعين لغيرهم ، وهو كالأول لكن أنيب المفعول الأول ، والمعنى أنهم من خلف الجيش ، ولك أن تقول : هو من أردف المتعدى لواحد ، فتعين هذا المعنى الثانى أى متبعين بشد التاء وفتح الباء ، وقرأ الباقون بكسر الراء من أردف المعتدى لاثنين ، وهما محذوفان ، أى اتبع الملائكة بعضا منهم بعضا من المؤمنين بقطع الهمزة وإسكان التاء ، أو اتبعوا أنفسهم المؤمنين بقطع الهمزة وإسكان التاء ونصب الأنفس ، أو من أردف المتعدى لواحد وهو محذوف ، أى متبعين المؤمنين بشد التاء وكسر الباء ، أو متبعين بعضهم بعضا بالشد والكسر ، ورفع بعضهم .

قال ابن عباس : ملك خلف ملك ، وفسر بعضهم هذه القراءة بأن كل ملك أردف ملكا وراءه ، وادعى بعضهم أنه ضيف لم تأت بمقتضاه رواية ، وليس كذلك ، لأن معنى إردافه إياه تقدمه عنه ، فيكون خلفه ، وروى الخليل عن رجل من أهل مكة : مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد الدال وكسرها الأصل مرتدفين بمعنى مترادفين ، أبدلت التاء دالا فأدغمت ، فالتقى ساكنان ، فحركت الراء بالكسر اتباعا للدال أو بالضم اتباعا للميم ، ووجه التوفيق بين قراءة بألف بالإفراد ، وما فى سورة

آل عمران بأن المراد بهذه الألف الواحدة الذين كانوا مقدمة أو ساقة ، أو وجوههم وأعيانهم ، أو من قاتل منهم ٠

وقال الربيع بن أنس : أمد الله المؤمنين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، وروى أن المسلمين بلغهم أن كرز بن جابر يمد المشركين فشق عليهم ، فأنزل الله : « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف » فبلغت كرز الهزيمة فلم يُمدّ المسلمون بالزائد على الثلاثة الأولى أو الخمسة ، وهو ألفان ٠

وروى أن جبريل نزل فى خمسمائة على الميمنة ، وفيها أبو بكر فيما قيل وميكائيل فى خمسمائة على الميسرة ، وفيها على فى صور الرجال ، على خيل بلق عليهم ثياب بيض ، وعلى رءوسهم عمائم بيض ، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم قاله ابن عباس ٠

وعن على : نزل جبريل فى ألف على الميمنة ، وفيها أبو بكر ، وميكائيل على الميسرة فى ألف ، وأنا فيها ، وقيل : أمدهم الله بتسعة آلاف ، ذكرت ثلاثة آلاف فى آية ، وخمسة فى أخرى ، وألف فى هذه الآية ٠

وقال ابن عباس : كانت سيما الملائكة يوم بدر صوف أبيض ، وكانت سيماهم أيضا فى نواصى خيلهم ، وروى عنه أن سيماهم يوم بدر عمائم سود ، ويوم حنين عمائم حمر ، وعن الزبير أن سيماهم يوم بدر عمائم صفر ، وعنه صلى الله عليه وسلم يوم بدر : « هذا جبريل آخذا برأس فرسى عليه أداة الحرب » وعن ابن عباس : أن الملائكة لم تقاتل سوى يوم بدر ، بل يحضرون ويكونون عددا ومددا ، هذا ما عليه الجمهور ، واختاره بعض ٠

قال سعد بن أبى وقاص : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعنى جبريل وميكائيل ، يقاتلان كأشد القتال ، قال النووى : وفيه بيان إكرامه صلى الله عليه وسلم بقتال الملائكة ، وإن قتالهم لم يختص بيوم بدر ، قال : وهذا هو الصواب خلافا لمن زعم اختصاصه ، وفيه أن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء ، بل يراهم الأصحاب والأولياء .

وعن ابن عباس : حدثنى رجل من بنى غفار قال : أقبلت أنا وابن عم لى حتى صعدنا فى جبل ، فشرفنا على بدر ، ونحن مشركان ننتظر الوقعة فننتهب مع من ينتهب ، فبينما نحن فى الجبل ، إذ دنت سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل ، فسمعت قائلا يقول : أقدم حيزوم ، فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك ، ثم تماسكت ، والمعنى أقدم الخيل يا حيزوم بضم الدال ، وحيزوم فرس جبريل عليه السلام فيعول من الحزم ، أو سمى لأنه صدر لخيل الملائكة ، والحيزوم الصدر ، وقال صلى الله عليه وسلم لجبريل : « من القائل من الملائكة أقدم حيزوم ؟ » فقال : ما كل أهل السماء أعرفه ، وعن أبى أسيد ملك ابن ربيعة ، وكان ممن شهد بدرا قال بعد أن ذهب بصره : لو كنت اليوم ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذى خرجه منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى ، وقيل : لم تقاتل الملائكة يوم بدر كما لم تقاتل فى غيره كقوله :

( وما جَعَلَه ) أى الوعد والإرداف المسبوك اللفظ فى قراءة فتح أن ، والمدلول عليه بلفظ ممد فى قراءة الكسر ، أو المدد أو الألف نظرا لإفراد اللفظ ، أو لقول أو استجابة أنى ممدكم ( اللهُ إلا بُشْرى لَكُم ) بشارة لكم بالنصر ( ولتَطْمئنَّ ) متعلق بمحذوف ، أى وفعل ذلك

لتطمئن ، أو بمحذوف معطوف على بشرى ، أى وثابتا لتطمئن عند مجيز الإخبار بالتعليل ، وإن جعلت لام لكم التعليل سواء علقت بمحذوف نعت بشرى ، أو بجعل فلتطمئن معطوف على لكم ، ولكن الأولى فى لام لكم أنها للتعليل •

( قلوبكم به ) فيزول ما فيها من الخوف لقلتكم إذا رأيتموهم وسمعتم أصواتهم فيكم ، وكانوا يقولون : اثبتوا فإن عدوكم قليل ، وإن الله معكم ، ولم ينزلوا ليقاتلوا ، وإلا فملك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا ، وقد حمل جبريل مدائن قوم لوط بريشة واحدة ، وأهلك قوم صالح بصيحة واحدة فيما قيل ، من قال : قاتلت الملائكة يوم بدر قال : إن المراد بالذات فى إرسالها البشرى ، والاطمئنان وتكثير العدد ، وقتالها كان بالعرض ، ولا يقتلون أحدا إلا بأمر الله ، ولم يرد الله أن يقاتلوا إلا على هيئة قتال الآدميين ، ويكون الفعل للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين •

ويوافق أنهم قاتلوا ما قال أبو داود المازنى : إنى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى ، فعرفت أنه قتله غيرى ، ومثل هذا عن أبى واقد الليثى ، وعن ابن عباس : بينما مسلم الأنصارى يشتد فى أثر مشرك إذ سمع ضربة السوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه ، فأخبر الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة •

وعن سهل بن عمرو : لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضا على خيل بلق ، بين السماء والأرض معلمين ، يقتلون ويأسرون ، وعن أبى أمامة بن

سهل قال لى : إنى لقد رأيتما فى يوم بدر ، وإن أحدنا ليشير بكفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف .

وعن أبى بردة : جئت يوم بدر بثلاثة رءوس فوضعتهن بين دى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أما رأسان فأنا قتلتهما ، وأما الثالث فإنى رأيت رجلا أبيض طويلا ضربه ، فأخذت أنا رأسه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ذلك فلان من الملائكة » .

وعن السائب بن أبى حبيش : انهزمت مع قريش ، فأدركنى رجل طويل على فرس أبيض بين السماء والأرض فأوثقنى رباطا ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطا ، فكان عبد الرحمن ينادى من أسر هذا ؟ فليس يزعم أحد أنه أسرنى حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : « يا ابن حبيش من أسرك ؟ » فقلت : لا أعرفه وكرهت أن أخبره بالذى رأيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسره ملك اذهب يا ابن عوف بأسيرك » فذهب بى وتأخر إسلامى حتى كان ما كان .

وروى أن رجلا قصيرا جاء بالعباس بن عبد المطلب أسيرا ، فقال العباس : يا رسول الله إن هذا والله ما أسرنى ، لقد أسرنى رجل أجلح من أحسن الناس وجها ، على فرس أنثى ما أراه ، فقال الأنصارى : بل أنا أسرته يا رسول الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسكت فقد أيدك الله بملك كريم » وكان الأنصارى يعرف بأبى اليسر كعب بن عمرو .

وروى أنه قيل للعباس : كيف أسرك أبو اليسر وهو ذميم وأنت

جسيم ولو شئت لجعلته فى كفك ؟ فقال : ما هو إلا أن لقيته فظهر فى عينى كالخندمة يعنى جبلا من جبال مكة ، وروى أنه قيل لأبى اليسر : كيف أسرته ؟ فقال : أعاننى عليه رجل من صفته كذا ، وما رأيته قبل ولا بعـد .

ولما ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وثاق الأسرى شد وثاق العباس ، فسمعه صلى الله عليه وسلم يئن فلم يأخذه النوم ، فبلغ الأنصار فأطلقوه وفهموا أنه صلى الله عليه وسلم رضى بفك وثاقه ، وسألوه أن يتركوا له الفداء طلبا لتمام رضاه فلم يجبهم .

وعن رجل من بنى سعد بن بكر : أبصرت يوم بدر رجلا بين يدى منهزما فقلت : ألحقـه أستأسره ، فتدلى مـن جرف فلحقتـه ، فإذا رأسه قد زايله ساقطا ، وما رأيت قربه أحدا ، ورأى حكيم بن خزام فى المنام بخارا قد سد الأفق فى بدر ، فإذا الوادى يسيل نملا ، فوقع فى نفسى أن هذا شىء أيد به محمد ، فما كانت إلا الهزيمة ، وقال : التقينا فاقتتلنا ، فسمعت صوتا وقع من السـماء إلى الأرض مثل الحصـاة فى الطست الحديد .

قال نوفل بن معاوية : انهزمنا يوم بدر ونحن نسمع كوقع الحصى فى الطساس فى أفئدتنا ومن خلفنا ، فكان ذلك من أشد الرعب علينا ، وروى أن أبا جهل قال لابن مسعود : من أين ذلك الصوت الـذى كنا نسمع ولا نرى شخصا ، فقال : من الملائكة ، فقال : هم غلبونا لا أنتم .

قال قباث بن أشـيم : نظرت إلى كثرتنا وقلة أصـحاب محمد فانهزمنا ، وإنى لا أقول فى نفسى ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه إلا

النساء ، ولما كان أمر الخندق قلت : لو قدمت إلى محمد فأنظر ما يقول وقد وقع الإسلام فى قلبى ، فقدمت المدينة فسألت عنه فقالوا : هو ذاك فى ظل المسجد مع ملأ من أصحابه ، فأتيته ولا أعرفه فسلمت فقال : « يا قباث بن أشيم أنت القائل يوم بدر ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه إلا النساء ؟ » فقلت : أشهد أنك رسول الله ، وأن هذا الأمر ما خرج منى إلى أحد لولا أنك نبى ما أطلعك الله عليه ، هلم أبايعك ، فعرض على الإسلام فأسلمت . وليس فى الآية ما يدل على أن المؤمنين علموا قبل القتال بكون الملائكة معهم فيما قيل ، فإن الاستجابة يمكن أن تقع فى غيبه تعالى ، وقد روى أنهم علموا ذلك قبل القتال .

( ومَا النَّصرُ إلا مِن عِنْدِ اللهِ ) وأما الأمداد وكثرة العدد ونحوهما فوسائط لا ناصرة ، ولا ييأسوا بفقدها أو وما النصر بهذه الوسائط إلا من عند الله فلا تتقوا إلا بالله ( إنَّ اللهَ عزيزٌ ) غالب قاهر ( حكيمٌ ) فى ما يفعل ، ينصر من اقتضت الحكمة نصره .

ومن كتب فى بطاقة فى السابع والعشرين من رمضان : « وما جعله إلا بشرى » الآية وجعلها تحت فص خاتم ، وحمله هواء وغيره لم يزل حااله مسرورا منصورا على عدوه .

( إذْ ) بدل ثان من إذ فى قوله : « إذ يعدكم » أو بدل من إذ المبدلة من هذه ، وإنما صح الإبدال وهو إبدال الشىء من الشىء فى الموضعين ، مع أن كلا من وقت الوعد ، ووقت الاستغاثة ، ووقت الإغشاء غير الآخر لاعتبار مجموعها وقتا واحدا واسعا ، وإن اعتبرت المغايرة فالإبدال إبدال إضراب انتقالى ، أو وقت الوعد ، ووقت الاستغاثة واحد ، أو وإذ هذه مفعول لا ذكروا محذوفا مستأنفا ، أو

متعلق بالنصر أو باستقرار قوله : « من عنـد الله » أو به لنيابته عن الاستقرار ، أو بجعل أو بتطمئن أو بحكيم .

( يغَشِّيكُم النُّعاسَ ) فى يغشى ضمير الله ، وهو مضـارع أغشى تعدى لاثنين بالهمزة والكاف مفعول ثان ، والنعاس مفعول أول ، لأنه هو المجعول غاشـيا ، وذلك قراءة نافع والأعرج ، وقرأ عاصـم وحمزة وابن عامر والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين ، وبه قرأ عروة ابن الزبير ، والحسن ، وأبى رجاء ، وعكرمة وغيرهم ، والإعراب مثله فى ذلك ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : إذ يغشاكم النعاس بفتح الياء والشين ورفع النعاس ، وبه قرأ مجاهد ، وابن محيصن ، وأهل مكة وإغشاءهم النعاس إدخاله عليهم وتغطيتهم به ، وذلك استعارة ، والنعاس النوم الخفيف يصيب الإنسان وهو قائم أو ماش .

( أمنةً منهُ ) أمنة مفعول لأجله بمعنى أمنا منه ، أى من الله نعت أمنة ، وفاعل الأمن الله ، وأما فى قراءة ابن كثير وفاعلها النعاس على الإسناد المجازى وعليها فالهاء فى منه عائدة للنعاس ، والأمنة من أمن المتعدى فى ذلك ، وإن جعل من اللازم كان فاعله المسلمون ، وفاعل الإغشاء أو التغشية الله ، وفاعل الغشى فى قراءة ابن كثير النعاس ، فلا يكون أمنة مفعولا لأجله على المشهور لاختلاف الفاعل ، وقد يجعل فاعل الأمنة النعاس على سبيل الإسناد المجازى أيضا ، فيتحد الفاعل فى قراءة ابن كثير ، أو على أن من حقه أن لا يغشاهم ، فلما غشيهم صار كأنه حصلت له أمنة من الله ، لولاها لم يغشيهم ، ويجوز تضمين يغشيكم ويغشينكم ويغشاكم معنى تنعسون ، والأمنة فعل لفاعل ذلك ، وهو مصدر أمن ، يقال : أمن أخوك ، وأمنت أخاك أمنا وأمانا وأمنة ، وقرأ ابن محيصن أمنة بإسكان الميم .

وعن ابن مسعود ، وابن عباس : النعاس فى القتال أمنة من الله ، وفى الصلاة وسوسة من الشيطان ، وهذه نعمة عظيمة اشتد حالهم بالخوف والعطش ، فألقى عليهم النوم فاستيقظوا ، وقد خف عنهم ذلك ، ولما ناموا ولم يصبهم العدو فى نومهم ، كان ذلك قوة فيهم واجتراء عليه ، وكان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لقاموا به وعرفوه ، وهو فى ذلك الوقت خارق للعادة ، ومعجزة له صلى الله عليه وسلم ، كما أن إسماع أهل القليب فيما قيل كذلك ، روى أنهم نعسوا حتى وقع السلاح من أيديهم .

( ويُنَزِّلُ عَلَيْكم مِن السَّماء ماءً ليُطهِّرَكُم بهِ ) من الحدث والجنابة ، وقرىء : ينزل بإسكان النون بعد ضم الياء ، وقرأ الشعبى ما ليطهركم ، قال أبو الفتح بن جنى : ما اسم موصل أى الذى للتطهير وهو الماء وهو ضعيف ، وقرأ ابن المسيب بسكون الطاء ( ويُذْهِبَ عنكُمْ ) وقرأ عيسى بن عمرو بإسكان الباء تخفيفا ( رِجْزَ الشَّيطانِ ) وهو الجنابة لأنها من تخييله أو وسوسته وتخويفه إياهم من العطش ، أو جميع ذلك ، والرجز العذاب ، وذلك عذاب منه لهم ، وقرأ ابن محيصن بضم الراء ، وقرأ ابن العالية بالسين .

( وليَرْبطَ عَلى قُلوبكُم ) يشد عليها بالصبر فتتوصل إلى الوثوق بالله واليقين ، والتشجع على العدو والتثبيت ، ولا حاجة إلى الحكم بزيادة على ، فإنه كما يقال : ربطت الشىء يقال : ربطت عليه ( ويُثبِّتَ بهِ ) بالماء ( الأقْدامَ ) فلا تسوخ فى الرمل أو الماء للربط ، فانه إذا ربط على القلب ثبت القدم فى موطن القتال ، روى أنه صلى الله عليه وسلم ، نزل قريبا من بدر ، وقد أمطرت السماء غير كثير ، ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادى ، ونزل المسلمون على كثيب أى تراب متراكم أعفر ،

أى مائل إلى البياض تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب ، وقد سبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحرزوه ، وحفروا القليب لأنفسهم •

وأصبح المسلمون بعضهم محدث ، وبعضهم جنب ، وأصابهم الظمأ وهم لا يصلون إلى الماء ، ووسوس الشيطان لبعضهم وقال : تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله ، وأنكم أولياء الله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم عطاش وتصلون محدثين مجنبين ، وما ينتظر أعداؤكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ، ويذهب قواكم ، فينحكموا فيكم كيف شاءوا ، فأرسل الله عليهم مطرا فى الليل أسال منـه الوادى ، فشرب المسلمون واغتسلوا وتوضئوا ، وسقوا الركاب وملئوا الأسقية ، وأطفأ الغبار ، ولبَّد الأرض ، حتى ثبتت عليها الأقدام ، وزالت عنهم وسوسة الشيطان ، وطابت أنفسهم فذلك قوله : تعالى : « وينزل عليكم مـن السماء ماء » الآية •

وكانت الأرض التى عليها المشركون تزلق بهذا الماء فقيل : لكثرته فيها ، وقيل : معجزة ماء واحد على قدر واحد فى أرض واحدة ، زلق أرضهم حتى لا يقدروا على الانتقال بسرعة ، ولبد أرض المسلمين ، قال بعضهم : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء ، فنزل بأدنى ماء بدر ، فقال له الخباب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل منزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل الرأى والحرب والمكيدة » قال : يا رسول الله صلى الله عليك ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ، ثم تغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا فتملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أشرت بالرأى » فنهض

رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء إلى القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت ، وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه فملىء ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية .

( إذ يُوحِى ) إذ بدل من إحدى الإذّات قبلها ، أو متعلق بيثبت ، أو مفعول لاذكر مستأنفا ( ربُّكَ إلى الملائِكةِ أنِّى مَعَكم ) فى تثبيت المؤمنين وإعانتهم ، والمصدر من خبر إن مفعول يوحى ، وقرأ عيسى ابن عمر فى رواية بكسر الهمزة إجراء للإيحاء مجرى القول ، أو تقديرا للقول ، وهذا الوحى إلهام أو إرسال بعض الملائكة إلى بعض ( فَثَبِّتوا الَّذينَ آمنُوا ) بإلقاء الخير فى قلوبهم إلهاما كما يلقى الشيطان فيها الشر وسوسة ، وبحضور القتال وبالقتال على القول به ، وبالتبشير بالظفر ، يمشى الملك أمام الصف بصورة رجل يعرفونه ويقول : أبشروا فإن الله ناصركم عليهم ، لأنكم تعبدونه ، وهؤلاء لا يعبدونه ، ويقول آخر : ما أرى الغلبة إلا لنا ، ويقول آخر : أقدم يا فلان ، ويقول أحدهم للذى يليه من المؤمنين : لقد بلغنى أن الكفار قالوا : لئن حمل المسلمون علينا لننكشفن ، ولا يختص إيهام الملك باسم اللمة كما يوهم كلام بعضهم لما ورد فى الحديث : « إن لكل من الملك والشيطان لمة » .

( سأُلْقى فى قلُوبِ الَّذينَ كَفرُوا الرُّعْب ) قال القاضى : هو كالتفسير لقوله : « إنى معكم فثبتوا » وهو حسن وذلك من جملة ما أوحى إلى الملائكة ، ويجوز أن لا يقصد به التفسير ، وقرىء بضم العين ، وهو قراءة الأعرج بن عامر ، والكسائى ومعناه على القراءتين : الخوف ( فاضْرِبُوا فَوقَ الأعْناقِ ) أى اضربوهم فى أعالى الأعناق وهى مواضع الذبح ، وهى مفاصل ، فيكون الضرب فيها تطييرا للرأس ، وقال عكرمة : اضربوهم فى الرءوس ، فإن الرأس فوق العنق ، وعليه

المبرد ، واحتج بالآية على جواز ضرب الكافر فى وجهه ، لأن كلا من الوجه وسائر الرأس هو فوق العنق .

وقال الأخفش : فوق زائد مضاف للمفعول ، وبه قال الضحاك ، وعطية ، وقيل : بمعنى على ، وفى أى موضع من العنق ضرب فقد ضرب على العنق ، وزعم ابن قتيبة أن فوق بمعنى دون ، قال ابن الأنبارى : كانت الملائكة لا تعرف كيف تقتل الآدمى ، فعلمهم الله كيف يفعلون بقوله : « فاضربوا فوق الأعناق » .

( واضْرِبُوا منْهم كلَّ بَنانٍ ) أصابع اليدين والرجلين ، فمن فمن ضُرب فى العنق مات أو فى الأصابع لم يتمكن من قبض السلاح ، والقتال به ، ولم يقو على سرعة الانتقال ، لأن أصابع الرجلين تقوى على المشى ، وعن بعضهم أبيح لهم الضرب فى كل موضع ، ولكن خص الموضعان بالذكر لأنهما أبلغ ، وقيل : مثل لهم لمطلق الضرب بالضرب أعلى الجسد وأسفله ، والمراد إدخال كل عضو ، وهذا على أن البنان أصابع الرجلين ، وقيل : المراد أصابع اليدين ، قيل : سميت بذلك لأن بها إصلاح ما أريد عمله باليد ، وقيل : البنان المفاصل من كل عضو ، وعن الحسن البنان الأعضاء وهو جمع بنة أو بنانة ، وذلك على أن الملائكة قاتلت ، ومن قال لم تقاتل جعل الخطاب فى قوله : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » للمؤمنين .

ويجوز أن يكون « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب» مقولا للمؤمنين أيضا مع ما بعده ، ويجوز أن يكون مع ما بعده تلقينا للملائكة ما يثبتون به المؤمنين ، كأنه قال : قولوا لهم ما يتضمنه قولى هذا من إلقاء الرعب ، والضرب فوق الأعناق ، وفى كل بنان ، أو قولوا لهم : إن

الله قال : « سألقى فى قلوب » الخ ، ويجوز أن يكون « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » فى معنى الخبر عن صورة الحال ، كما تقول لمن تخاطبه : ناولت الأعرابى جبة فأقنعنى فيها ، خذ هذه الشاة وخذ هذه الغرارة من بر ، وخذ هذا الجراب من أقط ، تريد أن هذه حالى معه والخطاب للمؤمنين أو للملائكة ، أى ستكون حال الكفار هكذا .

وعن السهيلى : ما وقعت ضربة يوم بدر إلا فى رأس أو مفصل ، وهذا يقوى أن المراد بفوق الأعناق الرءوس ، قال : وكانوا يعرفون قتلى الملائكة من قتلاهم بآثار سود فى الأعناق والبنان ، ويتبادر من كلامه أن الأمر بالضرب فوق الأعناق وفى البنان كان للملائكة والمؤمنين جميعا .

( ذَلِكَ ) الواقع من القتل والأسر ، أو من الضرب فوق الأعناق وفى البنان ، أو الأمر به ، أو كلاهما ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو لكل واحد من المخاطبين قيل على سبيل البدلية ، وهو مبتدأ وخبره قوله : ( بأنَّهم ) بسبب أنهم ( شاقُّوا ) خالفوا ( اللهَ وَرَسُولَه ) وهو مفاعلة من الشق بمعنى القطع والفصل ، وذلك أنهم عزلوا أنفسهم عن شرع الله ، أو عن أوليائه ، فهم منقطعون عنه وهو منفصل عنهم أو معنى المشاقة أن كلا فى شق أى جانب خلاف شق الآخر ، فهم جانب ، وشرع الله فى جانب ، كالمعاداة من العدوة هذا فى عدوة أى جانب ، وذاك فى عدوة ، والمخاصمة من الخصم هذا فى خصم ، أى جانب ، وذاك فى خصم .

( ومَنْ يُشاقِقِ اللهَ ورسُولَه فإنَّ الله شَدِيدُ العِقابِ ) له ، فإن أريد عقاب الدنيا ، أو مطلق العقاب فذلك تقرير لقوله : « بأنهم

شاقوا الله ورسوله » وإن أريد عقاب الآخرة فوعيد لهم بعذاب الآخرة بعد ما أصابهم فى الدنيا .

( ذَلكمُ ) فالخطاب للكفار التفاتا من الغيبة فى « بأنهم شاقوا » والإشارة لما وقع من القتل والأسر ، وهو مبتدأ محذوف الخبر ، أى ذلكم واقع ، أو ذلكم العقاب ، أو خبر لمحذوف ، أى الأمر ذلكم ، أو العقاب ذلكم ، أو مفعول لمحذوف ، أى باشروا ذلكم ، ومن أجاز عمل اسم الفاعل محذوفا أجاز أن يقدر عليكم ذلكم فهو مفعول لاسم الفعل وهو عليكم ، ويجوز هذا التقدير على أن عليكم جار ومجرور خبر ، وذلكم مبتدأ ، والفاء فى قوله :

( فذُوقُوه ) عاطفة إلا أن فى بعض هذه الأوجه عطف الطلب على الأخبار ، والفعلية على الاسمية ، فيخرج عن ذلك فى ذلك البعض بجعل هذا الاستئناف ، ويجوز كون ذلكم منصوبا على الاشتغال ، فتكون الفاء زائدة ، والمراد بالذوق ملابسة ذلك ، أو الإشارة إلى أنه يسير بالنسبة إلى ما أعد لهم فى الآخرة .

( وأنَّ للكافرِينَ عَذابَ النَّارِ ) عطف على ذلكم ، أو فاعل لمحذوف ، أى ووجب أن للكافرين عذاب النار لا مفعول معه ، لأنه كما قال ابن هشام : لا يكون إلا اسما صريحا ، وأجاز غيره أن يكون مؤولا ، فعليه يجوز أن يكون ذلك مفعولا معه ، أى ذوقوا هذا العاجل مع ثبوت النار لكم فى الآخرة ، وعن الحسن : وإن للكافرين بكسر الهمزة على الاستئناف ، أو لعطف الجملة بتمامها على الفعلية والاسمية قبلها ، وإن أريد بالكافرين على القراءتين مطلق الكفار على العموم فعلى ظاهره ، وإن أريد المخاطبون بالذوق ففيه وضع الظاهر موضع المضمر ، ولزم منه

الالتفات من الخطاب بالغيبة ، لأن الظاهر من قبيل الغيبة ، والأصل وإن لكم عذاب النار ، ونكتة ذلك الدلالة على أن سبب العذاب فى الآخرة ، أو سبب الجمع بين العذابين هو الكفر .

( يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إذ لقيتُم الَّذين كفرُوا زَحْفاً ) حال من الذين كفروا ، وهو مصدر زحف الصبى ، أو المقعد أو غيره على مقعدتيه إذا دب عليهما قليلا قليلا سمى به الجيش الكثير لأنهم يرون لكثرتهم كأنهم يزحفون ، وذلك مبالغة أو مقدر مضاف أو يؤول زحف زحفا بالوصف ، أى إذا لقيتموهم وهم كثير ، وأنتم قليل ولو كنتم ربعا فيهم أو ثلثا .

( فلاَ تولُّوهم الأدْبارَ ) مفعول ثان جمع دبر بمعنى لا تجعلوهم تالين لأدباركم وظهوركم ، بأن تنهزموا وتفروا ، فضلا عما لو كنتم شطرا فيهم أو أكثر من الشطر ، أو مثلهم أو أكثر منهم ، ثم نسخ تحريم التولى بأن أبيح إذا كانوا ثلث عدوهم أو أقل من الثلث أو أكثر منه ، ولم يكمل الشطر ، وعلى ذلك فالآية منسوخة بقوله : « الآن خفف الله عنكم » كما قال عطاء ، أو محكمة مخصوصة به وهو أظهر ، ويجوز أن يكون زحفا حالا من التاء فيكون ذلك نهيا لهم عما سيكون منهم يوم حنين إذ ولوا وهم اثنا عشر ألفا ، وعدوهم قليل ، أو حالا من التاء ، والذين كفروا أى إذا لقيتموهم متزاحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم ، وذلك أن المشى أول المقابلة فى القتال ، يكون على مهل كالزحف ، أو أن الزحف بمعنى التدافع .

( ومَنْ يُولِّهم ) منكم ( يَوْمئذٍ ) أى يوم إذ لقيتموهم مطلقا بدر أو غيره ( دُبرهُ ) خلفه ، وسكن الحسن الباء والتفسير بالدبر

بتشنيع على الفار ( إلا مُتحرِّفاً ) عنهم ( لِقتالٍ ) مجموع إلا والمنصوب بعد حال ، أو هى الحال على أنها اسم ظهر إعرابها فى ما بعدها لكونها بصورة الحرف قولان فى مثله ، أى ومن يولهم دبره غير متحرف ، وصاحب الحال الضمير المستتر .

وإن قلت : إذا كان الحال على القول الأول مجموع إلا وما بعدها فما وجه النصب فيما بعدها ؟

قلت : لما لم يكن له إعراب على حدة ، وكان اسما معربا احتاج إلى أن يكون على صورة ما سلط عليه العامل ، فجىء بـه على صورة المنصوب ، لأن محله مع إلا النصب ، وعلى القولين : فلا عمل إلا فى متحرفا وأحسن من ذلك أن يكون النصب على الاستثناء من الضمير المستتر ، لأنه من حيث المعنى عام ، قيل : أو من مَنْ فالناصب له إلا ، أو يؤول أو غيرهما مما ذكرته فى النحو ، واللام للتعلل أو لشبه التمليك ، وقيل : بمعنى إلى ، وقيل : للتعدية أو متحيزا متفيعل من حاز يحوز ، أصله متحيوز اجتمعت الياء والواو ، وسكنت السابقة فقلبت الواو ياء ، وأدغمت فيها الياء لا متفعل ، وإلا قيل : متحوزا ولا وجه لقول بعضهم استثناء المتحرف والمتحيز من أنواع التولى ، لأنه لم يقل إلا متحرفا لقتال أو تحيزاً ، إلا إن أراد الاستثناء المنقطع ، ولأنه لا يستثنى من الفعل ولو صح المعنى بالنظر إلى معنى مصدره .

( إلَى فئةٍ ) جماعة حاضرة معـه فى القتال قريبة منـه ومعنى التحرف لقتال أن يتصور بصورة المنهزم فيعطف على من لحقه فيقتله ، وذلك يكون بسبب تحصن العدو فلا يجـد لقتله مدخلا ، فإذا تهـازم برز له ، ولسبب أنه اجتمع عليه رجلان أو ثلاثة ، فإذا تهازم لحقـه

أحدهما أو أحدهم فقط ، فيقدر عليه ، وكذا إذا اتبعوه ووصل إليه أحدهم قبل غيره ، ولغير ذلك من الأسباب ، وذلك باب من خدع الحرب .

والتحيز إلى فئة أن ينضم بعد انفراد ، أو من جماعة إلى جماعة من المسلمين يستعين بهم ويتقوى ، وزعم بعضهم أن التحيز جائز ولو إلى فئة بعيدة غير حاضرة فى القتال لما قال الحسن عن عمر بن الخطاب ، لما بلغه وهو فى المدينة أن أبا عبيدة بن الجراح وأصحابه قتلوا يوم القادسية : رحم الله أبا عبيدة لو انحاز إلينا لكنا فئته ، وكذا روى ابن سيرين ، وزاد عن عمر إنا فئة كل مسلم .

وعن عبد الله بن عمر : خرجت فى سارية ففروا ، فلما دخلوا المدينة دخلوا البيوت حياء ، فقلت : يا رسول الله نحن الفرارون ، فقال : « بل أنتم العكارون — أى الكرارون — وأنا فئتكم » وروى أن رجلا فر من القادسية فقال لعمر : يا أمير المؤمنين هلكت فررت من الزحف ، فقال ، فقال أنا فئتك ، وعن الحسن : لو أن أهل سمرقند انحازوا إلينا ، ونسأل الله العافية من ذلك لكنا لهم فئة ، وكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يقولان للجيوش ، إن غلبكم أمر فانحازوا إلينا فإنا فئتكم ، وإنما لم يكن ذلك كبيرة لنية الرجوع إلى العدة وإلى العدو بعدة قوية من القربة مثلا .

( فَقَدْ باءَ ) رجع ( بغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ ) مصيره ومرجعه ( جَهَنَّم ) وفيه إيماء إلى أن الموضع الذى هرب إليه مثل جهنم فى حقه ( وبِئْسَ المصيرُ ) هى ومذهبنا كما تعلم من كلامى أن الفرار من الزحف كبيرة ، وهى موبقة فى كل قتال للمشركين ، ومثله قتال المنافقين ، إلا إن فر تحرفا لقتال ، أو تحيزا إلى فئة قريبة حاضرة للقتال ، أو

كان المسلمون أقل من نصف العدو ، وكما قال ابن عباس : ما فر من فر من ثلاثة ، والمراعى فى ذلك هو العدد ، وبذلك قال الجمهور .

وقالت فرقة منهم ابن الماجشون وهو من المالكية : فر أى أيضا العدة والقوة ، فيجوز على قولهم أن تفر المائة من مائة مثلا إذا علمت أن فيها أكثر من ضعفها عدة أو شجاعة ، وذكروا عن أبى سعيد الخدرى ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، ونافع : أن الآية فى قتال بدر خاصة ، وجد الفرار فى غيرها لأنه تحيز إلى فئة ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم يوم بدر ، ولا فئة لهم ينحازون إليها دون النبى صلى الله عليه وسلم ، ولو انحازوا انحازوا إلى المشركين ، ولأنه أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه .

وكتب عبد الله بن عون إلى نافع يسأله عن الفرار من الزحف فقال : إنما حرم يوم بدر ، فإن صح ما مر عن النبى صلى الله عليه وسم وأبى بكر وعمر من قولهم : إنا فئة من انحاء الينا وليسوا فى قتال كان لهم حجة ، وصح لهم تخصيص الآية ببدر ، وإلا فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وأما قوله تعالى فى شأن أحد : « ولقــد عفى الله عنهم » فمـا استدلوا به ، ولا دليل فيه لجواز أن يكون المعنى قد عفى عنهم لتوبتهم من الفرار الذى هو كبيرة ، وذكروا أنه إن جاء المسلمين عدوّ لا يطيقونه تحيزوا إلى البصرة ، وإن جاء مـا يغلبهم تحيزوا إلى الكوفــة ، وإن جاء ما يغلبهم تحيزوا إلى الشــام ، فإن جاء مـا يغلبهم تحيزوا إلى المدينة ، فإن جاء ما يغلبهم فليس ثم تحيز" ، وصار الجهاد فريضة بعد أن كان دخوله متطوعا ، وأنه ما قبض صلى الله عليه وسلم حتى كان تطوعا .

( فَلَمْ تقتلوهم ) بقوتكم ( ولكنَّ الله قَتَلَهُم ) بنصركم وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، والإمداد بالملائكة ، أو أنكم ولو ضربتموهم لستم بمزهقى أرواحهم ، ولكن الله زمانها ، وعن مجاهد : لما فرغوا من القتال ، وانصرفوا جعلوا يقولون : قتلت كذا وكذا ، وقتلت فلانا ، وأسرت كذا ، وفعلت وفعلت ، فنزلت الآية ، قال جار الله : الفاء فى جواب شرط محذوف ، أى إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ، وعن ابن هشام بأن لم لا تقرن بفاء الجواب ، وقد يقال من جانب : جانبه قرنت بالفاء لتقدير المبتدأ ، أى فأنتم لم تقتلوهم وهو النائب بالجملة الاسمية بعده ، أو قرنت بالفاء ، لأن الشرط غير مذكور فزيدت لتدل عليه ، فهى زائدة ، ولأن لم هذه ومدخولها هنا بمنزلة صدقت وكذبت فى سورة يوسف ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة والكسائى بتخفيف لكن وكسرها للساكن بعدها ، ورفع اسم الجلالة هنا وفى الذى بعده .

( ومَا رمَيْت ) أى ما أبلغت الحصيات أو التراب ، وأدخلت منه فى عين كل واحد من المشركين ( إذْ رَمَيْت ) إذ حركت يدك إلى جهة العدو ، وطرحت ما فيها من حصى أو تراب إليهم ( ولكنَّ الله رَمَى ) أبلغ الحصيات أو التراب وأدخله ، فى أعينهم ، ومعلوم أن رميه صلى الله عليه وسلم لا يبلغ هذا المبلغ ، ولا يقدر عليه ، فالرمى المثبت للنبى صلى الله عليه وسلم المذكور وسطا الذى بمعنى التحريك لليد والطرح ، فعل للنبى صلى الله عليه وسلم ومخلوق لله وهو المبتدأ والأول فى معنى لفظ الفعل ، وأما الإبلاغ والتفريق ففعلان لله مخلوقان ، وهما كمالان للفعل ، ومقصودان منه ، وهما فرع فى معنى لفظ الفعل كما فعل ابن هشام ، يعبر بالفعل عن وقوعه وهو الأصل ، وعن مشارفته وعن إرادته ، وعن القدرة عليه .

هذا هو الحق وهو مذهبنا معشر الأباضية فلم يرفق إلى معنى الآية من رام أن الآية دليل على بطلان نسبة الأفعال للعباد ، وعلى أنها أفعال لله ، وأنهم مجبرون عليها ، ولزمهم ذلك فى كل فعل ، ولا من زعم أن أفعال العباد خلق لهم .

قال ابن إسحاق : ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ثم قال : « شاهت الوجوه » أى قبحت ، ثم نفخهم بها ، وأمر أصحابه فقال : « اشتدوا » فكانت الهزيمة ، وظاهر كلامه أن ذلك بعد تعديد الصفوف وذهابه إلى العريش ، وشروعهم فى القتال ، وذكر غيره : أنه لما التقى الجمعان تناول كفا من الحصباء فرمى بها فى وجوههم وقال : « شاهت الوجوه » فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه ومنخريه منها شىء ، فشغلهم ذلك فقتلوا وأسروا .

وروى : أنه لما التقى الجمعان قال لعلى : « ناولنى قبضة من حصباء الوادى » فرمى بها وقال : « شاهت الوجوه » فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا ، وروى : أن جبريل عليه السلام قال للنبى صلى الله عليه وسلم : خذ قبضة من التراب ، فأخذ فرماهم بها فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ، فتولوا مدبرين .

وقال قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أخذ ثلاث حصيات : فرمى بحصاة فى ميمنة القوم ، وبحصاة فى ميسرتهم ، وبحصاة بين أظهرهم ، وقال : « شاهت الوجوه » فانهزموا مع الحصاة الثالثة ، وقيل : رماهم بالتراب ثلاث مرات : مرة إلى كل جهة من الجهات الثلاث المذكورة من القبضة الواحدة ، ويجوز أن يكون المعنى :

وما رميت الرمى الكافى إذ رميت ، ولكن الله رماه ، أو ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ، ولكن الله رمى بالرعب فى قلوبهم ، وقد قيل بهذا أو ما اعنت إذ رميت ولكن الله أعان ، والعرب تقول : رمى الله له أعانه وصنع له خيرا .

وقيل : الآية فى طعنة طعنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبىّ ابن خلف يوم أحد بالحربة ، ولم يخرج منه دم ، فجعل يخور حتى مات ، وحكاه الطبرى ويضعفه أن الآية عليه تكون أجنبية مما قبلها وما بعدها ، وأنها نزلت عقب بدر ، وقيل : إنها فى رمية رماها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حصن خيبر فسار السهم فى الهواء حتى أصاب ابن أبى الحقيق فقتله فى فراشه ، ويضعفه ما ذكر ، وأن فتح خيبر أبعد من بدر وأحد بكثير ، وأن سبب موت ابن الحقيق غير هذا كما نراه إن شاء الله فى محله ، والحق ما فسرت به الآية أولا وعليه الجمهور .

( وليُبْلِى المؤمِنينَ ) يرحمهم بالنصر والثواب ومشاهدة الآيات ( مِنْه ) من الرمى ، ومتعلق اللام محذوف أى وفعل ذلك ليبلى ، أو العطف على محذوف ، أى ولكن الله رمى ليظهر الدين وليبلى ، ومنه حال من بلاء بعده ، وإن علق ليبلى فمن بمعنى الباء ( بلاء حَسناً ) رحمة حسنة ، ورحمة الله إنعامه ، وبلاء اسم مصدر ، والمصدر إبلاء فقيل : المراد أراد الشهادة لمن استشهد يوم بدر وهم أربعة عشر رجلا منهم : عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، ومهجع مولى عمر ، قيل : ومعاذ وعمرو ابنا عفراء ، وذكروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الشهداء شهداء بدر وشهداء الأعماق أعماق أنطاكية » قال بعضهم : يوم الدجال كيوم بدر ، ولو قيل : إن الإبلاء هنا على ظاهره هو الاختبار ، لكن حسنا فإنه اختبار حسن لتولد الخير منه كالظفر والغنيمة والاستشهاد

( إنَّ الله سَميعٌ ) لاستغاثتهم ( عَليمٌ ) بنياتهم وأحوالهم .

( ذلكُم ) أى الرمى أو القتل أو البلاء الحسن ، أو كل ذلك خبر لمحذوف ، أى الأمر ذلكم قاله سيبويه ، أو المقصود ذلكم ، أو مبتدأ محذوف الخبر أى ذلكم الأمر أو المقصود أو مفعول لمحذوف تعلق به ليبلى ، أى وفعل ذلك ليبلى ، فإن الله سميع عليم معترض ، أو ذلكم مفعول لسميع أو عليم على التنازع على أنهما صفتا مبالغة لا صفتان مشبهتان ، والخطاب للمؤمنين ( وأنَّ الله مُوهنُ كيْدَ ) أى مضعف ومطيل مكر ( الكافِرينَ ) والعطف على ذلكم بأوجهه غير الأخير أو على على ما يسبك من يبلى أو يقدر ، واعلموا أن الله موهن كيد الكافرين ، وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى ، وأبو بكر بإسكان الواو وتخفيف الهاء ، وكذا قرأ حفص ، لكنه قرأ بالإضافة .

( إنْ تَستفتحوا فقَدْ جَاءكُم الفتْحُ ) إن تطلبوا الفتح يا كفار فقد جاءكم الفتح وهو النصر ، والحكم بينهم وبين المؤمنين ، وذلك تهكم بالكفار ، لأن الفتح جاءهم لكن عليهم لا لهم ، وكان أبو جهل يدعو فى محافل قريش ويقول : اللهم أقطعنا للرحم أتانا بما لا يعرف فأهلكه واجعله المغلوب ، يريد محمدا وإياهم ، وروى أنهم لما عزموا أن يخرجوا إلى حماية العير تعلقوا بأستار الكعبة ، واستفتحوا .

وروى أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر : اللهم انصر أحب الفئتين إليك ، وأظهر خير الدينين عندك ، اللهم أقطعنا للرحم فأحنه الغداة أى أهلكه فى هذه الصبيحة ، وروى أنه قال يوم بدر عند التقاء الجمعين : اللهم أينا كان أهجر وأقطع للرحم فأحِنْه اليوم ، وروى أنهم لما أرادوا

الخروج لمنع العير تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أقرانا الضيف ، وأوصلنا للرحم ، وأفكنا للعانى ، إن كان محمد على حق فانصره ، وإن كنا على حق فانصرنا .

وروى أنهم قالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين ، واستفتحوا أيضا حين تصافوا للقتال ، فجاء الأمر على طريق ألزموها أنفسهم ، إذ نصر الله المحق على المبطل ، وعن عكرمة : قال المشركون : والله ما نعرف ما جاء به محمد ، فافتح بيننا وبينه ، ونزل فى ذلك : « إن تستفتحوا » الخ .

( وإنْ تَنْتَهوا ) عن الكفر والمعاداة والقتال أو عن الاستفتاح فإنه من لازم الكفر والمعاداة ( فَهُو ) أى الانتهاء ( خَيرٌ لكُم ) لتضمنه السلامة من القتل والأسر وعذاب النار ، والفوز بالجنة ( وإنْ تَعُودوا ) للكفر والمعاداة والقتال ( نَعُدْ ) لنصره عليكم ( ولَن تُغْنى ) تكفى ، وقرىء بالياء ، لأن تأنيث الفاعل مجازى وهو فاعل ظاهر ، ولأنه مفصول ( عنْكُم فِئتُكُم ) جماعتكم ( شَيئاً ) من المضار ، أو لن تغنى عنكم فئتكم مضار شيئا من الإغناء ( ولَوْ كثُرتْ ) .

وقيل : الخطاب للمؤمنين ، أى تستنصروا فقد جاءكم النصر ، وإن تنتهوا عن الكسل فى القتال والرغبة عن أمر الله فى الغنائم ، وتنتهوا عن التفاخر بما فعلتم من قبل وغيره فهو خير لكم ، وإن تعودوا إلى ذلك نعد عليكم بالإنكار والتوبيخ أو بتهييج العدو ، ولن تغنى كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر ، وقيل : إن تستفتحوا خطاب للمؤمنين وإن تنتهوا خطاب للكفار مع ما بعده .

وروى أن خبابا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة : الا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له حفرة فى الأرض ويجعل فيها ، ويوضع المنشار على رأسه فيشق نصفين ، ويمشط لحم الرجل بأمشاط الحديد ما يصده ذلك عن ذلك ، وليتمنى الرجل هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » ووجه تصديق هذه الرواية بالآية كما فعل البغوى أن المعنى أن تطلبوا النصر قبل هذا فى أى وقت ، فلا نظر فيما فعل البغوى خلافا لمن توهم ، والاستقبال فى تستفتحوا منظور فيه إلى الحال الماضية قبل الاستفتاح ، ويجوز أن يكون الاستقبال حقيقيا منظورا فيه إلى وقت النزول ، فيكون ذلك مثالا لفعلهم ، وتذكيرا بـه .

( وأنَّ اللهَ مَعَ المؤمنين ) بالنصر والعون ، عطف على أن الله موهن كيد الكافرين بتقدير اعملوا « ان الله موهن كيد الكافرين » ، « وأن الله مع المؤمنين » أو عطف على ما عطف عليه « وأن الله موهن كيد الكافرين » أو يقدر اللام ويعلق لمحذوف ، أى وكان ذلك لأن الله مع المؤمنين ، أو فعل ذلك ، لأن الله مع المؤمنين ، وقرأ غير نافع ، وابن عامر ، وحفص بالكسر على الاستئناف ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : والله مع المؤمنين بالجملة الاسمية مع إسقاط أن ، ويدل على أن الخطاب فى « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا » الخ للمؤمنين ، قوله تعالى :

( يا أيُّها الذين آمنوا أطيعُوا اللهَ ورسُولَه ) فى أمر الجهاد وغيره ، والخطاب للمؤمنين عند الجمهور ، وقيل : للمنافقين ، أما على النفاق بالعمل فلا إشكال ، وأما على النفاق بأسرار الشرك أى آمنوا بالألسن فضعيف بعيد لا دليل عليه ، وقيل : الخطاب لبنى إسرائيل المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا دليل عليه .

( ولاَ تولَّوا ) الأصل تتولوا حذفت تاء الماضى أو تاء المضارع على ما بسطت فى النحو ، وقرىء بإثباتهما معا لكن بإدغـام الأولى فى الثانية اعتمادا على لا ، فلا يقرأ بذلك إذا وقف على لا ( عنْهُ ) عـن الرسول ، ولم يقل عنهما ، لأن المراد أطيعوا رسول الله ولا تولوا عنه ، وإنما ذكر طاعة الله توطئة لطاعة الرسول ، وتنبيها على أن طاعته فى طاعة رسوله كما قال : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » فرجـوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما ، كقولك : الإحسان والإجمال لا ينفع فى زيد ، ومثل له ابن هشام بقوله :

ومـا سـلوتك لكن زادنى شـغفا
لعجز وصد تمـادى لا إلى أمـد

وزعم بعضهم أن الإفراد هنا وجهه أن التولى إنما يصبح فى حقه لا فى حق الله ، وليس كذلك ، لأنه ليس المراد بالتولى الإدبار بالبدن ، بل عدم امتثـال الأمر ، وهذا يصـح فى حق الله ، وفى حق الرسول ، وقيل : الهاء فى عنه للجهاد أو للأمر المدلول عليه بالطاعة ، فإنه لا يطلق على الفعل أنه طاعة إلا إن أمر به •

( وأنتُم تَسْمعونَ ) القرآن والمواعظ ، وتفهمونهما ، وتصدقون بهما ، فالسماع سماع تدبر وتفهم •

( ولا تكُونُوا كالَّذينَ قالُوا سَمِعْنا ) مـا يقول محمد وهم المشركون والمنافقون يعنون السماع بالآذان ( وهُم لا يسْمعُونَ ) سماع انتفاع ، فكأنهم لم يسمعوا لعدم انتفاعهم به ، فتراهم يقولون : قـد سمعنا ، ولو شيئا لقلنا مثل هذا وسمعنا ، وعلمنا أنه سحر أو شعر أو أساطير الأولين ، يقول كل بما بدا له •

( إنَّ شرَّ الدَّوابِّ ) كل مـا يدب على الأرض كما هو أصـل اللغة ، أو البهائم كما هو العرف العام ولو عند العرب ( عِنْدَ الله ) متعلق بنسبة الخبر إلى اسم إن لا بشر ، ولو كان اسم تفضيل ، لأنك إذا قلت أعلم الناس عندى زيد لا نريد الذى أوجد عندى العلم الزائد زيد ( الصُّمُّ ) عن الحق لا يسمعونه سماع قبول وانتفاع ، فكأنهم لا يسمعون أصـلا ( البُكْم ) عـن النطق بـه ، كأنهم لا يتكلمون أصلا ( الَّذينَ لا يعْقلونَ ) الحق ولا يميزون بينه وبين الباطل ، مع أن فيهم آلة التمييز ، لكن لـم يعملوا بهـا ، فهم شر مـن الدواب ، كالكلب والخنزير ، والفأر وغيرها والبقر ، لتركهم العمل بما به فضلوا عنها .

ووجه التفضيل فى لفظ شر أن فى سائر الدواب خسة إذ لم يكن فيها مزية الإنسان فى هؤلاء الصـم البكم خسة مـن حيث الكفر ، وهـذه الخسة أعظم من تلك ، ويجوز خروج اسم التفضيل عن بابه ، أى أن الذى هو الشرير من بين الدواب الصم البكم ، ويجوز أن يراد بالشر المضرة مبالغة ، وعليه فليس بوصف ، والآية نزلت على العموم ، وقيل : نزلت فى بنى عبد الدار بن قصى ، لم يسلم منهم إلا رجلان : مصعب ابن عمير ، وسويد بن حرملة ، كانوا يقولون : نحن صم بكم فى ما جاء به محمد ، نسمعه ولا نجيبه ، فقتلوا جميعا يوم أحد ، وكانوا أصحاب اللواء فيه إلا من أسلم وهو مصعب وسويد ، والمراد طائفة من بنى عبد الدار لا جميعهم إذ لم يحضروا أحدا كلهم كما قال ابن عباس ، هم نفر من بنى عبد الدار ، وذكر ما مر ، وقالت فرقة : هم المنافقون ، وضعفه الطبرى ، وقال الحسن : أهل الكتاب .

( ولَوْ علم الله فِيهمْ خَيراً ) سعادة قضى لَهم بها فى الأزل ،

وانتفاعا بالآيات والوعظ قضى لهم به فيه ( لأَسْمَعَهم ) أى الآيات والوعظ سماع تفهم وقبول ، لكن لم يعلم فيهم خيرا فلم يسمعهم ، ونفى علم الخبر اكتفاء بنفى اللازم عن نفى الملزوم ، وذلك أنه لو كان فيهم خيراً لعلمه ولا بد •

( ولَوْ أسْمَعَهم ) سماع تفهم وقبول فآمنوا ( لتولَّوْا ) لارتدوا وماتوا على الارتداد ولما سبق عليهم من الشقاوة ( وهُم مُعْرِضُون ) عنادا وطيشا ، وهذه القضية الثانية الشرطية مستأنفة أو معطوفة على الأولى ، ولكن عطف على أخرى لا متصلة بالأولى ، بحيث تكونان على طريق القياس الاقترانى والأنتج ، ولو علم فيهم خيرا لتولوا هذا خلف ، لأن من علم الله فيه الخير لا يتولى ويموت على الارتداد ، فليس قياسا اقترانيا ، ولو اتخذ الوسط وهو الإسماع الذى هو جواب لو ، أو الإسماع الذى هو شرط لو ، فى أن المراد بهما معا سماع التفهم والقبول ، ولك أن تجعل ذلك على طريق القياس الاقترانى ، أن تجعل الوسط متحدا كما علمت ، وتجعل الخير بمعنى الإيمان ، والانتفاع مطلقا بمعنى السعادة ، ولا بمعنى الإيمان والانتفاع الذين يموت عليها الإنسان ، أى لو علم الله فى الأزل أنهم يؤمنون ويعملون الصالحات لأسمعهم الآيات والوعظ ، ولو أسمعهم الآيات والوعظ لارتدوا عن ذلك للشقاوة ، فينتج لو علم فيهم الإيمان والعمل الصالح لتولوا عنهما بعد العمل بهما للشقاوة ، والوجه الأول أظهر عندى ، وكلاهما جائز •

هذا ما ظهر لى بعد التأمل ، ثم رأيت ابن هشام أشار إلى الثانى والحمد لله على موافقة علامة ، وأما أن يجعل الوسط مختلفا هكذا لأسمعهم سماع تفهم وقبول ، ولو أسمعهم سماع غير تفهم وقبول فلا يصح عندى ، لأن لو امتناعية ، فيلزم انتفاء إسماعهم سماع غير تفهم

وقبول وهو موجود ، لأنه السماع بالأذن ، اللهم إلا إن أريد بهذا الإسماع الذى هو غير سماع تفهم وقبول ، سماع زائد على سماع الأذن غير بالغ درجة النفع ، أو تجعل لو بمعنى إن الشرطية لكن يضعف هذا قرن جوابها باللام ، فإن اللام أصل فى الامتناعية .

وقد أثبت القاضى وابن هشام هذا الوجه الذى هو اختلاف الوسط ، ولم أر من أورد عليهما ما أوردت ، ولا من أجاب بما أجبت ، لكن كلام القاضى محتمل للوجه الأول ، وما ذكرته من جواز كون الكلام على طريق القياس الاقترانى مبنى على التحقيق ، لأنه يكون فى القضايا الشرطية ، كما يكون فى الجملة ، لا كما قال الأخضرى إنه مختص بالقضايا الجملية ، وهو هنا من قضيتين شرطيتين متصلتين .

وقيل : إنهم قالوا أحيى لنا قصيا فإنه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك ، فالمعنى : لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم كلام قصى ، بأن يحييه فيتكلم لهم بذلك ، ولو اسمعهم كلامه لتولوا ، والكلام فى هذا القول قابل لما ذكرته ، من أن الكلام على طريق القياس الاقترانى ، وعلى غير طريقه ، وجملة هم معرضون حال مؤكدة لعاملها ، فإن التولى عن الحق ، والإعراض عنه بمعنى ترك اتباعه ، وإن جعل ذلك تمثيلا بمن تولى بجسده أعرض بقلبه ، فليست مؤكدة .

( يا أيُّها الَّذينَ آمنوا اسْتَجيبُوا لله والرَّسُول ) انقادوا لهما بالطاعة فيما أمركم ( إذا دَعاكُم ) أمركم ، ورجع الضمير إلى الرسول وحده ، لأن أمره أمر الله ، ولأن أمر الله يكون على لسانه ، والاستجابة له استجابة للرسول ، وبالعكس ، وذلك على حد ما مر فى « ولا تولوا عنه » والمشهور تعدى استجاب باللام ، وأجاب بنفسه ويجىء بالعكس

( لما يُحْيِيكُم ) من علوم الدين والاعتقادات والأعمال الحسنة ، فإن العلم حياة للقلب ، والجهل موته كما قال المتنبى من بحر البسيط :

ولا تعجبن الجهول حلته
فذاك ميت وثوبه كفن

والعمل الحسن يورث الحياة الطيبة الدائمة فى الجنة ، وهذه الحياة مفقودة فى أهل النار ، وتفسير الآية على العموم المذكور هو الحق الواضح ، ثم اطلعت والحمد لله على أنه قول مجاهد والجمهور .

وقال ابن إسحاق : المراد بما يجييكم الجهاد أنه سبب البقاء ، إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم ، ولأن الله سبحانه أعز به المسلمين بعد الذل ، والحياة تطلق على العزة ، يقال حييت حال فلان إذا ارتفعت ، وقال النقاش : المراد الشهادة لقوله : « بل أحياء عند ربهم » وقيل : الإسلام ، والمراد إذا دعاكم لسائر أعماله وأقواله بعد الإيمان ، فلا يلزم منه تحصيل الحاصل كما توهمه بعض من ذكر الإيمان قبله ، ومثل ذلك يأتى فى قول السدى : إن المراد الإيمان ، وهذان قريبان بما ذكرته أولا على العموم .

ويدل من العموم أنه صلى الله عليه وسلم مر بباب أبى بن كعب وهو يصلى فدعاه وأسرع بقية صلاته ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : « وعليك السلام ما منعك يا أبى أن تجيبنى إذ دعوتك ؟ » فقال : يا رسول الله إنى كنت فى الصلاة ، قال : « أفلم تجب فيما أوحى إلىّ « استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم ؟ » قال : بلى لا أعود إن شاء الله ، وفى رواية قال : لا جرم لا تدعونى أبدا إلا أجبتك ، رواه مالك بن أنس ، وأبو هريرة .

والذى فى البخارى ومسلم ، أن ذلك وقع مع أبى سعيد بن المعلى أيضا ، وأنه صلى الله عليه وسلم مر به وهو يصلى فى المسجد ، وفى رواية مر بأبى وهو يصلى ولم يذكر الباب ، ووقع نحو ذلك مع حذيفة ابن اليمانى فى غزوة الخندق ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بالإجابة فى الصلاة ، لأن الصلاة إجابة ، ودعاؤه صلى الله عليه وسلم إجابة ، فلو أجابه لم يخرج عن الطاعة ، وهذا مختص بالنبى صلى الله عليه وسلم إذا دعا مصليا .

وقيل : لأنه صلى الله عليه وسلم دعا لأمر لا يحتمل التأخير فوجب عليه أن ينصرف عن صلاته إليه ، وهذا الحكم مستمر إذا كنت تصلى ودعيت لمهم لا يحتمل التأخير ، كتنجية الغريق ، وتنجية الإنسان من السبع ، أو من العدو ، أو الحريق ، أو نحو ذلك ، وتنجية مالك لك لا تجد ما تأكل سواه ، أو مال فى ضمانك ، قيل : بل تنجية المال مطلقا ، أورأيت شيئا من ذلك بلا دعاء أحد إياك فانصرف إليه ، ثم عد إلى صلاتك إن لم تحدث ناقضا ولا تتكلم إلا إن لم تجد الإصلاح إلا بالكلام فتكلم وأعدها ، والقول الأول أشد مناسبة للحديث ، وفى الحديث دلالة على أن الأمر بالوجوب عند الإطلاق وهو مذهبنا .

( واعْلَموا أنَّ اللهَ يحُولُ بيْنَ المرْءِ ) وقرأ ابن أبى إسحاق بكسر الميم ، وقرأ الحسن والزبيرى بفتح الميم ونقل كسرة الهمزة إلى الراء وتشديد الراء إجراء للوصل مجرى الوقف على لغة من يشدد فى الوقف ، وهى لغة بنى سعد ، وهو قليل ، قال الشيخ خالد : ولهذا لم يؤثر عن أحد عن القراء إلا عن عاصم فى « مستطر » فى سورة القمر انتهى ، ولعله أراد بالقراء السبعة أو العشرة ، أو يرى تشديد الراء فى هذه القراءة مع

حذف الهمزة لغة فى الوصل والوقف مطلقا لا مختصا بالوقف والوصف الجارى مجراه .

( وقَلْبِه ) فيريد المرء شيئا ويعزم عليـه فينقض الله عزمـه ، ويصرفه إلى غير ذلك الشىء ، يريد الطاعة ويصرفه للمعصية ، ويريد المعصية ويصرفه للطاعة ، وذلك بالتوفيق ، والخذلان بالجبر ، كما زعمت المجبرة وإلا بطل المدح والـذم ، والثواب والعقـاب ، ويحفظ وينسيه الله ، وينسى ويذكره الله ، ويخاف ويؤمنه الله ، ويأمن ويخوفه الله ويريد صلاة ركعتين فلا يصليهما ، أو يصلى أربعـا وهكذا فى الأفعـال والأقوال والاعتقدات مطلقا ، وقلبك فى حكم الله كالشىء بين الأصبعين .

فلزم من هذا أن لا يأمن الإنسان المؤمن أن يموت كافرا ، وأن يبادر الأعمال انتهازا للفرصة قبل الحول بينه وبينها بالموت أو غيره ، ويراقب القلب فإنه مذموم معاقب ، أو ممدوح مثاب على اختيـاره وتناوله ، وأن يعلم أن الله أقرب إليه من حبل الوريد ، وقيل : إن الحول بين المرء وقلبه تمثيل لغاية قربه من العبد ، وتنبيه على أنه عليم بمكنون القلب مما عسى أن يغفل عنه صاحبه ، وقد قال بذلك قتادة ، وقيل : المعنى أن الله يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدرى ما يصنع ، وقيل : أمروا بالقتال فخافوا لضعفهم وقلتهم ، فأخبرهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بتبديل ما فيه من الخوف أمنا ، ومن الجبن جراءة ، فاعزموا على القتال يبدل الله خوفكم وجبنكم أمنا وجراءة ، وأمن عدوكم وجراءته خوفا وجبنا ( وأنَّه إليه تُحْشَرُونَ ) للثواب والعقاب .

( واتَّقوُا فِتنةً لا تُصيبنَّ الَّذينَ ظلمُوا منكُم خاصَّةً ) أى اتقوا ذنبا لا يختص وباله بفاعله ، فالفتنة الذنب ، وظلموا فعلوا ذنبا ،

وذلك كترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكالمداهنة وهى جلب الدنيا بالدين ، وكافتران الكلمة وظهور البدع ، والتكاسل عن الجهاد ، قاله القاضى ، وفى بعضه نظر ، فإن الذنب الذى هو ترك الأمر والنهى ، أو الذى هو المداهنة يصيب فاعله فقط ، وأما تارك المعروف ، وفاعل ما يداهن عليه ، فإنما يصيبهم ذنبهم الذى فعلوا والأولى تفسير الفتنة بالعذاب ، فيكون المعنى احذروا العذاب العام ، بأن تأمروا وتنهوا ، أو تنصفوا ، وإلا فعميم العذاب من فعل الذنب ومن لم يأمره ولم ينهه ، ولم ينصف وبأن تجمعوا الكلمة وتزيد البدع وتجاهدوا ، وإلا اتصل الباطل بكل أحد وانتشر ، وخاضوا فيه فيعمهم العذاب .

وقد ثبت فى الحديث : أن من قدر على تغيير المنكر ولم يغيره كان كفاعله ويصيبه الله بعقاب قبل أن يموت ، ومن رضى به كمن حضره وكمن فعله ، وذلك إذا ظهر المنكر أو علم به ، وأنه ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى ، من تشوف لها تستترقه ، ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ .

وقد علمت مما ذكرت أن غير الظالم بذنب إنما يصيبه العقاب بذنب آخر ، ففاعل المنكر يعاقب بفعله وغيره يعاقب بترك النهى ، فلا حاجة إلى قول بعضهم فى الجواب أن الخلق ملك الله يتصرف فيه بما شاء ، وعن قتادة ، والضحاك ، ومقاتل ، والسدى : نزلت فى قوم مخصوصين من الصحابة أصابتهم الفتنة يوم الجمل ، وهم : على ، وطلحة ، والزبير ، قيل : وعمار ، قال الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها ، وما علمت أنا مرادون بها إلا اليوم ، يعنى يوم الجمل ، قال السدى : زلت فى أهل بدر فاقتتلوا يوم الجمل .

وكان الزبير يساير النبى صلى الله عليه وسلم يوما فاقبل على فصحك إليه الزبير ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كيف حبك لعلى ؟ » فقال : يا رسول الله بأبى أنت وأمى إنى أحبه كحبى لولدى أو أشد ، فقال : « فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله ؟ » وما كنت أظنها إلا فيمن حوط بها وقت نزولها ، وقيل : الفتنة الابتلاء والاختبار ولا يصح أن تكون جملة لا تمييز جواب للأمر ، ولا نافية إذ لا يصح معنى قولك إن اتقيتموها لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، وشرط الجزم فى جواب الأمر والنهى أو غيرهما كما قال ابن هشام تقدر الشرط من مضمون ما قبله ، مثل : لا تدن من الأسد تسلم ، أى لا تدنى منه تسلم ، فقد لا النافية ، لأن النهى نفى إلا على مذهب الكسائى ومن معه من الكوفيين ، فلا يشترطون ذلك فيجيزون الجزم فى قولك : لا تدن من الأسد يأكلك ، بتقدير إن تدن منه يأكلك ، فيجوز على قولهم كون لا تصيبن جوابا للأمر أى إن لم تتقوها لا تصيبن ، وهكذا يقدرون ما يناسب الكلام ، لكن من جنس ما تقدم ، فتقدير القاضى إن أصابتكم لا تصيبن الخ لا يصح كما قال ابن هشام ، ولو أقره السعد والسمنى إذ لا يناسب كونه جواباً للأمر ، ولا يتبين وعليه فتصيب فى محل جزم ، ويضعفه أن جواب الشرط مترددين الوقوع وعلمه فلا يليق به النون المؤكدة لكن لما تضمن النفى معنى النهى ساغ كقوله : « لا يحطمنكم سليمان » كذا قيل .

قلت : تضمن النفى معنى النهى لا يخرج الجواب عن التردد ، لأن جواب الشرط متردد ، ولو كان طلبا لتعليقه بالشرط وقوعا أو عدما ، والأولى أن يقال كما قال ابن هشام وخالد وغيرهما : إن تأكيد الفعل بالنون بعد لا النافية قليل ، ووجه وروده شبهها بالناهية صورة ، فيكون التضعيف بالقلة ، فيجاب بتضمين معنى النهى .

وقيل : إن تأكيد الفعل بالنون بعد لا النافية مختص بالضرورة ، ويجوز كون لا تصيبن نعتـا لفتنة ولا نافية وفيما مر من قلة تأكيد الفعل بالنون بعد لا النافية ، وإن أجيب بتضمنها معنى النهى أحوج ذلك إلى تقدير القول ، وإلى التأويل بأن الكلام من التغير بالمسبب اللازم عن السبب الملزوم ، يما يحوج إلى ذلك التقدير ، وذلك التأويل جعل لا ناهية ، وحمل الكلام على النعت ، وذلك لأن الطلب لا يقع نعتا ، فقدر القول وإصابة الفتنة الظالم وغيره مسلية عن التعرض لها ، ولازمة له ، والتعرض سبب ولازم ، والاصل لا تتعرض لها فتصيب الظالم وغيره ، وأنت خبير بأن الإصابة لا تختص بالمتعرضين كما تراه واضحا من العبادة ، ولو كان مفعول الإصابة هو فاعل التعرض خلافا لبعض المتأخرين وغيرهم كالقاضى وابن هشام .

قيل : ويجوز تنزيل الفتنة منزلة العاقل الذى ينهى ، فلا يحتاج إلى ذلك التأويل ، ولك أن تجعل لا ناهية ، والكلام مستأنفا فلا يقدر القول ، ولكن يحتاج إلى ذلك التأويل أو إلى هذا التنزيل ، ويجوز كون لا تصيبن جوابا لقسم المحذوف ، وتوكيد الفعل بالنون بعد لا النافية فى جواب القسم جائز تنزيلا لها منزلة اللام ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : لتصيبن باللام لا بلا ، وكذا قرأ على ، وزيد بن ثابت ، وأبو جعفر محمد ابن على ، والربيع بن أنس ، وأبو العالية ، وابن خمار ، وحكاه النقاش عن الزبير بن العوام ، وهو مخالف لما مر عنه من تأويل الآية بنفسه ، ومن معه يوم الجمل ، والإصابة فى هذه القراءة خاصة بالظالمين .

قال أبو الفتح : أن يكون الأصل فى هذه القراءة لا تصيبن خفف بحذف الألف اكتفاء بالفتح ، وأن يكون الأصل فى قراءة لا تصيبن ، لتصيبن أشبعت اللام فتولدت الألف ، وحكى النقاش ، عن ابن مسعود :

واتقوا فتنة أن تصيب الذين ، فالمصدر من تصيب بدل اشتمال من فتنة ، وقال الأخفش على بن سليمان : لا تصيبين على معنى الدعاء والاستئناف ، أو النعت على تقدير القول ، والمراد أنه على طريق الدعاء لا حقيقة الدعاء ، وأنها لا تصيب الظالم بها فقط ، بل الظالم بها والظالم بغيرها كما مر ، فبطل قول بعضهم : إن هذا إنما يأتى إن كان الكلام مقولا على لسان بعض الناس ، وفيه ما لا يخفى ، وأنه شديد الضعف ، أو خاصة مفعول مطلق ، أى إصابة خاصة أو حال من الضمير فى تصيب .

وزعم بعضهم أنه يجوز كونه حالا من الذين على معنى أنهم غير مختصين بها ، وهو ضعيف ، لأن الذين بمنزلة جمع المذكر السالم ، وقولك : جاء الشاهدون راكبة ، ضعيف ، والراجح راكبين بخلاف جاء الشهود راكبة ، قلما ضعف فيه ، ومن للتبعيض ، قال بعضهم : إلا إذا جعلت لا ناهية مستأنفة أو نافية فى جواب قسم ، فللتبيين وأن فائدة التبيين التنبيه على أن الظالم منكم أقبح من الظالم من غيركم .

( واعْلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ ) على من أوقد نار الحرب .

( واذْكُرُوا ) يا أيها الذين آمنوا ( إذْ ) مفعول به للفعل قبله ، أو ظرف متعلق بمحذوف نعت لمفعول محذوف ، أى اذكروا حالكم الكائنة والثابتة إذ ( أنتُم قليلٌ مسْتضعَفُون فى الأرْضِ ) أرض مكة وأرض المدينة ، فإن المهاجرين قليل ، وأهل المدينة قليل .

( تخافُونَ أنْ يتخطَّفكُم الناسُ ) باقى العرب والفرس والروم ( فَآواكُم ) تكفل بكم وحفظكم منهم ( وأيَّدكُم ) قوَّاكم ( بنَصْره ) يوم بدر على من قاتلكم نصرا متعديا إلى غيرهم ، وقيل : الخطاب

للمهاجرين ، استضعفهم كفار قريش وغيرهم ، وخافوا أن يتخطفوهم فآواهم الله سبحانه إلى المدينة ، أى ضمهم إليها ، أو جعلها لهم مأوى يتحصنون به ، وأيدهم بنصره بالأنصار وبإمداد الملائكة .

وقيل : الخطاب للعرب مطلقا ، فإنهم كانوا أذلاء فى أيدى فارس والروم والترك وأعرى أجساما وأجوع بطونا ، وأشدهم ضلالا ، وأشقاهم عيشا ، يوكلون ولا يأكلون فآواهم الله عز وجل بالنبوة والشريعة والنصر ، وفتح البلاد ، وغلبت الملوك ، ورد هذا القول بأن العرب كانت وقت نزول الآية كافرة إلا القليل والبلاد غير مفتتحة ، والملوك غير مغلوبة ، نعم يصح ما ذكره بعد من أن الخطاب للعرب ، والإيواء والنصر بيوم بدر ، لكن باعتبار أنه إذا كانت هذه القوة والنصرة فى العرب المسلمين ، ولو على العرب المشركين فهى لسائر العرب ، عزلو علموا يتوصلون به إلى غلبة الملوك ( وَرَزَقَكُم من الطَّيِّبَاتِ ) الحلال مطلقا أو ما يستلذ من المآكل والمشارب والملابس ، أو من الغنائم ( لعلَّكُم ) تعليل أو ترج مصروف إلى المخاطبين ( تَشْكُرُون ) هذه النعم .

( يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تخُونُوا اللهَ والرسُولَ ) بإفشاء السر إلى الكفار ، أو بتقويتهم بفعل أو رأى ، أو بتعطيل الفرائض والسنن ، أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون ، أو بالغلول فى الغنائم ، قال الزهرى ، والكلبى ، وعبد الله بن أبى قتادة : نزلت الآية فى أبى لبابة بن رفاعة بن عبد المنذر الأنصارى ، من بنى عوف بن مالك ، إذ قال لبنى قريظة فى حكم سعد : إنه الذبح ، أو فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه الذبح ، وتأتى قصته إن شاء الله فى سورة الأحزاب .

وقيل : اسم أبى لبابة مروان ، وقيل : هارون ، وروى أنه قال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علىَّ ، وربط نفسه بسارية فى المسجد .

وقال السدى : كانوا يسمعون الشىء من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيفشونه ، حتى يبلغ المشركين ، فنزلت الآية .

وقال عطاء بن أبى رباح ، عن جابر بن عبد الله : سببها أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبا سفيان فى مكان كذا وكذا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « إن أبا سفيان فى موضع كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا » فكتب إليه رجل من المنافقين : أن محمدا يريدكم فخذوا حذركم ، قال العلماء : فعلى هذا معنى آمنوا أظهروا الإيمان ، وقد ضعف فى قلوبهم ، أو أسروا الشرك ، ويحتمل أن يخاطب المؤمنين حقا أن لا تفعلوا فعل ذلك المنافق .

وزعم المغيرة بن شعبة فيما ذكر الطبرى ، وجار الله : أنها نزلت فى قتل عثمان ، والمعنى لا تقتلوه ولا تخذلوه ، ولا يخفى مع كونه خطأ وتعصبا أنه بعيد ، وأصل الخيانة النقص ، كما أن معنى الوفاء التمام ، فإنك إذا خنت الرجل فى شىء وقد أدخلت عليه النقص فيه ، واستعمل فى ضد الأمانة لتضمنه إياه ، قال جار الله ، والقاضى : إن النقص خفيته ، وقد قال ابن عباس : المراد خيانة ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله .

( وتخُونُوا أمانَاتِكُم ) عطف على تخونوا ، فهو مجزوم ، ولا تخونوا أماناتكم ، أو عطف مصدره على لفظ الخيانة مقدرا مما قيل ، أى لا تكن منكم خيانة لله ورسوله ، خيانة لأماناتكم ، فهو منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد الواو

فى جواب النهى مثل : لا تكن جلدا وتظهر الجزع ، لكن على معنى أن خيانة الله ورسوله تصاحبها ، وتترتب عليها خيانة الأمانات فيما بينكم ، فاترك الخيانة كلها لا على معنى لا تجمعوا بين الخيانتين ، ولكم إفراد إحداهما ، وهو خلاف المشهور فى نصب الفعل بعد الواو فى الجواب ، فالجزم أولى .

وقد يقال : نهاهم عن الجمع بينهما لأنه أقبح ، ولم يرد أن إفراد أحدهما جائز ، وقرأ مجاهد وأبو عمرو بن العلاء فى رواية عنه : أمانتكم بالإفراد وفتح التاء ، وقدر بعضهم المضاف أى وتخونوا ذوى أماناتكم ، وفى الحديث : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » فأوقع الخيانة على الإنسان لا على الأمانة .

( وأنتُم تعلَمونَ ) تعرفون الحسن والقبيح ، أو تعلمون أن على الخيانة عقابا ، أو تعلمون الخيانة وتأتونها عمدا ، أقوال ، والجملة حال على تلك الأقوال وهى مؤكدة على الثالث إذ لا يسمى بالخيانة إلا فى العمد ، وإن أريد مجرد النقص مؤسسة .

( واعلَموا أنَّما أمْوالكُم وأوْلادكُم فِتْنة" ) اختبار ، هل تشكرون الله فى المال وتخرجون حقوقه ، وتضعونه فى موضعه ، ولا تربوا تغشوا ، وتشكرونه فى الأولاد ، وتنصفون فيهم ، ولا يحملكم حبهم على الحيف والجور لأجلهم ، ولا على البخل والجبن والجهل ، وإهانة الدين ، وفى الحديث : « إن الولد مجبنة مبخلة مجهلة وأنه من ريحان الله » أى من رزقه ، وحب المال والولد يشغلان القلب والبدن عن طاعة الله ، فالعاقل يرغب عنهما .

أو معنى كون الأموال والأولاد فتنة أنها سبب الوقوع فى الفتنة وهى الذنب ، فيجب المال والولد ، قال أبو لبابة ما قال اليهود ، وقد قال بعض : إن هذا من تمام ما نزل فيه ، وإنما صح الإخبار عن الأموال والأولاد أنها اختبار أو ذنب مبالغة ، أو بتقدير مضاف ، أى آلة اختبار ، أو رزق أموالكم وأولادكم اختبار ، أو سبب الذنب أو آلة الذنب ، أو اطلق المسبب واللازم وهو الذنب ، على الملزوم وهو المال والولد .

( وأنَّ الله عندهُ أجرٌ عَظيمٌ ) وهو الجنة لمن أدى الأمانة واتقى الله فى المال والولد ، وهما أيضا من جملة الأمانات .

( يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إن تتقوا الله يجْعَل لَكُم فُرقاناً ) فرقا بليغا بينكم وبين الكفار ينصركم عليهم نصرا يفرق بين المحق والمبطل ، أو بيانا يظهر أمركم وينشر عزكم فى أقطار الأرض ، تقول : بات زيد يقرأ حتى سطع الفرقان أى الفجر ، وقال مقاتل : مخرج من الشبهات ، وشرحا للصدور وتوفيقا ، وعن مجاهد : مخرجا عما تحذرون فى الدنيا والآخرة ، ومثله لعكرمة ، أو نصرا لأنه يفرق بين الحق والباطل ، أو هداية تفرقون فيها بين الحق والباطل ، وعن مجاهد حجة .

( ويُكفِّرْ عنْكُم سيِّئاتكُم ) ذنوبكم كبيرا وصغيرا يمحوها ويعاقبكم عليها ( ويغْفِرْ لكُم ) أى يسترها لا يفضحكم بها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، أو تكفيرها سترها وعدم الفضيحة بها ، وغفرها محوها وعدم العقاب عليها ، وقيل : السيئات الصغائر ، والتقدير ويغفر لكم ذنوبكم وهى الكبائر : وقيل : يكفر ما تقدم من السيئات مطلقا ، ويغفر ما تأخر كذلك ، وإن ذلك فى أهل بدر ، وقد غفر لهم ما تقدم وما تأخر إلا من خص بدليل .

( وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ) يقبل اليسير ويجازى عليه بما لا غاية له ، ويعفو عن الكثير ولا يخلف الميعاد ، وفى ذكر الفضل تنبيه على أن ما جعله جزاءً ليس فى الحقيقة جزاء مقابلا للتقوى مساويا لها ، بل تفضل وإحسان ، أو جعل الفرقان والتكفير والغفران جزاء للتقوى ، وعنده الفضل العظيم لأهلها زيادة على الجزاء .

( وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ) واذكر إذ يمكرون بك ، وزعم بعض أن إذ معطوفة على إذ فى قوله : « واذكروا إذ أنتم قليل » وهو سهو ، لأنه لم يقل : وإذ يمكر بك ، وأصل المكر الخديعة والضر فى الحقيقة ، وعن ابن فورك أصله المدافعة على جهة اللعب حتى يوقع فى حفرة ، والمضارع حكاية للحال الماضية بجعلها كأنها حاضرة ، وذلك أن قريشا أرادوا مكره وشرعوا فيه ، وذلك فى مكة ، فنجاه الله ، فذكره ذلك ليشكر .

( لِيُثْبِتُوكَ ) يحبسوك عن الذهاب والتصرف ، بالإيثاق بحبل أو حديد ، أو فى بيت مغلق ، وبه قال السدى ، وعطاء ، وابن أبى كثير ، أو بكثرة الضرب والجرح به ، قاله أبو حاتم ، وبالأول قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقد قرأ ابن عباس : ليقيدوك أى يوثقوك ، وقيل : ليسخروك ، وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الثاء وتشديد التاء حكاه الإمام أبو عمرو الدانى ، وحكاه عنه النقاش ليبيتوك من البيات ، وقيل : هذه ومعناه قريب من معنى قوله:

( أَوْ يَقْتُلُوكَ ) لكن التبييت القتل ليلا ( أَوْ يُخْرِجُوكَ ) من مكة ( وَيَمْكُرُونَ ) يتعاطون ضره خفية ( وَيَمْكُرُ اللهُ ) أى يجازيهم على مكرهم ، وسمى الجزاء باسم الذنب ، أو يرد مكرهم عليهم ، أو يعاملهم

معاملة الماكر ، وقد قلد المسلمين فى أعينهم حتى اغتروا بقلتهم ، فكانت الوقعة عليهم ، وذلك فى أمر بدر ، ولا يوصف الله بالمكر إلا مقابلة مكر ، لأنه يوهم الذم ، وذلك وقوف مع الوارد فى صفة الله ، ولم يرد وصف المكر إلا مع ذكر مكر الإنسان ، وأجيز وصفه بــه مطلقا اســتعارة ، كقول على : من وسع عليه فى الدنيا ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع .

( واللهُ خَيرُ الماكرين ) أى أعظمهم مكرا ، أو زعموا أن فى مكرهم منفعة فأخبر الله أن مكرى أنفع ، أو خرج خبر عن التفصيل أى فى مكر الله من بين مكر الماكرين نفع ، وحكم وعدل ، والآية مدنية تذكير بما وقع بمكة ، عكرمة ، ومجاهد : أنها مكية ، وعن ابن زيد : أنها نزلت عقب كفاية المستهزئين .

قيل : ولاعل معنى كونها مكية أن القصة مكية ، وذلك أنه لما سمعت قريش بإسلام الأنصار ومبايعتهم علموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجدون منعة ، ويتفاخم أمرهم ، ويجمعون لحربهم ، وخافوا ذلك ، وذلك بعد موت أبى طالب ، فاجتمعوا فى دار الندوة وهى دار قصى بن كلاب ، وكانوا لا يقضون أمرا إلا فيها ، وكانت للمشاورة فى الحرب وغيرها لا للسكنى ، والندوة الاجتماع ، وحضر فيها رؤسائهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل ، وأبو سفيان ، والمطعم بن عدى ، والنظر بن الحارث ، وأبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأمية بن خلف ، واعترضهم إبليس فى صورة شيخ فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا شيخ من نجد ، سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ، ولن تعدموا منى رأيا ونصحا ، فقالوا : ادخل ، فدخل .

قال بعضهم : إنما تمثل فى صورة نجدى لأنهم قالوا : لا يدخلن معكم فى المشاورة أحد من أهل تهامة ، لأن هواهم مع محمد ، فلذلك تمثل فى صورة نجدى ، وكان فى ثياب رثة ، وروى أنه دخل فيهم وجلس معهم فقالوا : وما أدخلك فى مجلسنا بغير إذننا ؟ فقال : أنا رجل من أهل نجد ، قدمت مكة فأحببت أن أسمع من حديثكم ، وأقتبس منكم خيرا ، ورأيت وجوهكم حسنة ، وريحكم طيبة ، فإن أحببتم جلست معكم ، وإن كرهتم مجلسى خرجت ؟ فقال بعض لبعض : هذا نجدى لا بأس عليكم منه •

فقال أبو البخترى : أما أنا فأرى أن تأخذوا محمدا وتحبسوه فى بيت مقيدا ، وتشدوا وثاقه ، وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون منها طعامه وشرابه ، وتتربصون به ريب المنـون حتى يهلك ، كمن هلك من قبله من الشعراء ، فقالوا نِـعْم الرأى رأيت •

وصرخ الشيخ النجدى وهو إبليس لعنه الله وقال : بئس الرأى رأيتم ، تعمدون إلى رجل له فيكم صفو ، وقد سمع به من حولكم فتحبسونه وتطعمونه وتسقونه ، فيخرج أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه ، فيوشك صفوه الذى فيكم أن يقاتلوكم ويأخذوه من بين أيديكم ، فتفسد جماعتكم ، فقالوا : صدق النجدى •

فقال هشام بن عمرو من بنى عامر بن لوى : أمـا أنـا فأرى أن تحملوم على بعير فتخرجوه من أرضكم ، فيذهب حيث شاء ، ويليه غيركم فلا يضركم ما صنع ، فتستريحون منه إذا غاب ، فقالوا : نِـعْم الرأى •

فقال النجدى : بئس الرأى تعمدون إلى رجل قد أفسد جماعتكم ، واتبعه منكم طائفة سفهاء فتخرجونه إلى غيركم ، فيفسدهم كما أفسدكم

أو أشد ، فيأتون عليكم فيخرجونكم من بلادكم ، ألا ترون إلى حلاوة منطقة ، وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه ، فقالوا : صدق الشيخ النجدى .

فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأى ما أرى غيره ، أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا قويا نسيبا وسطا ، وتعطوا كل فتى سيفا صارما فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه ، ولا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإذا رأوا ذلك قالوا : الدية فتؤدى قريش ديته ، وقيل : قال : فيضربوه جميعا فلا يدرى قومه من يأخذون به وتؤدى قريش ديته .

وقال بعضهم : قال : إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ؟ قالوا : ما هو يا أبا الحكم ؟ فذكر ذلك ، وعلى الروايات كلها قال النجدى : صدق والله هذا المفتى ، وقيل : قال : الشاب ، وقيل : قال : الرجل ، وإنه لأجودكم رأيا ، والرأى ما أرى ولا أرى غيره فتفرقوا عليه .

فأعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك بواسطة جبريل عليه السلام ، وأمره بالخروج إى المدينة ، وأن لا يبيت الليلة على فراشه ، ولما كانت العتمة اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه .

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلى بن أبى طالب : « نم على فراشى ، وتغط بردائى هذا الحضرمى الأخضر » وفى رواية : « بردتى فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه » وكان صلى الله عليه وسلم ينام فيها ، ففعل علىّ ما قال له .

قال محمد بن كعب القرظى ، أجتمعوا له وفيهم أبو جهل فقال وهم على بابه : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تتابعوه كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده حفنة من تراب قال : « نعم أنا أقول ذلك وأنت أحدهم » وأخذ الله على أبصارهم ، فنثر التراب على رءوسهم وهو يقرأ « يسٓ » إلى « لا يبصرون » ومضى إلى غار ثور ، فجاء رجل وقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ فقالوا : محمدا ، وكانوا يعتقدون أنه فى الدار ، قال : خيبكم الله ، قد والله خرج وما ترك رجلا منكم إلا وقد وضع التراب على رأسه ، أفما ترون ما بكم ، فوضع كل واحد يده على رأسه فإذا عليه تراب ، وماتوا كلهم يوم بدر .

وقيل : اجتمعوا فى بابه ليقتلوه إذا قام من نومه ، فكانوا يرصدون الشخص المتغطى بالبردة ، فلما قام رأوه عليا فقالوا : أين صاحبك ؟ قال : لا أدرى ، وعلى كل حال أرسلوا فى طلبه ، وأرسلوا من يقتص الأثر ، فاقتصه مقتص حتى وقف بهم على فم الغار ، وقال : إنه دخل الغار أو صعد السماء ، فقالوا : لو دخل الغار لتفسخ نسيج العنكبوت ، ولما باضت الحمامة فى فمه وهو فيه ، وقال علىّ فى شأن نومه ذلك :

وقيت بنفسى خير من وطىء الثرى
ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجرى

رسول إله خاف أن يمكروا به
فنجاه ذو الطول الإله من المكرى

( وإذا تُتْلى عَلَيْهم آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لو نَشاءُ لقلْنا مِثْل هذَا ) من عندنا أو مما نجده مكتوبا ، وذلك كذب على كل حال ليست فصاحة القرآن ، وما يتضمنه فى قوتهم وملكتهم ، ولا فى ما يجدونه مكتوبا ، وإلا فما منعهم من أن يشاءوا القول فيقولوا ، وقد حدَّهم وفرعهم بالعجز ، فى غاية من العناد والمكابرة ، وحب الغلبة .

وعن الكلبى ، والسدى ، وابن جريج ، وابن جبير : أن قائل ذلك النظر بن الحارث ، أو القول إليهم لأنه فيهم ولرضاهم بقوله ، ولأنه رئيسهم وقاضيهم وموسوم بالفهم فيهم ، وسكون إلى قوله : حتى إذا قال شيئا قاله كثيرا ، ولأنهم قالوا مثل ما قال ، وكان كثير السفر إلى الحيرة وفارس ، ويسمع القصص من الرهبان والعجم ، ويشترى كتبهم ، ويمر باليهود والنصارى فيراهم يقرءون ويركعون ، ويسجدون ويبكون ، وسمع من أخبار رستم وأسفنديار فقال ذلك .

وقيل : لما رجع من سفرة من أسفاره إلى تلك البلاد ، وجد النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ ويركع ويسجد ويبكى ، كما رأى هؤلاء فقال ذلك ، وقد اشترى نسخة من حديث رستم وأسفنديار ، وهو من بنى عبد الدار ، وقد قتل صبرا بالصفراء عند الانصراف من بدر فى موضع يقال له : الأثيل ، وكان الذى أسره المقداد فلما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله قال المقداد : هو أسيرى يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنه كان يقول فى كتاب الله ما قد علمتم » ثم أعاد الأمر بقتله ، فأعاد المقداد قوله ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أغنى المقداد من فضلك » فقال المقداد : هذا الذى أردت فضربت عنقه .

وقتل أيضا صبرا عقبة بن أبى معيط ، وما رواه الطبرى ، والخازن ،

عن ابن جبير : من أنه قتل يومئذ صبرا الثالث أيضا وهو المطعم بن عدى غير صحيح ، لأنه مات قبل بدر ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لو كان المطعم حيا وكلمنى فى هؤلاء ــ أشار إلى أسارى بدر ــ لتركتهم له » .

( إنْ هَـذا إلا أساطِيرُ الأوَّلينَ ) ما سطره الأولون من الأخبار واقصص ، وأل فى الأساطير للحقيقة لأنه لم يرد أن ذلك مجموع أساطيرهم ، بل أراد أنه بعضها ، والأساطير جمع أسطورة بمعنى مسطورة ، أو جمع إسطار لا جمع أسطر كما زعم بعضهم ، وإلا قيل أساطر بدون ياء لأنه ليس فى أسطر ياء ولا مدة تقلب ياء فى الجمع ولما قال : « إن هذا إلا أساطير الأولين » قال له عثمان بن مظعون رضى الله عنه : اتق الله يا نظر ، فإن محمدا يقول الحق ، قال النظر : وأنا أقول الحق ، قال عثمان : فإنه يقول : لا إله إلا الله ، فقال النظر وأنا أقول لا إله إلا الله ، ولكن هذه بنات الله عندنا ، يعنى اللات والعزى ، ومناة ، قيل : وغيرهن .

قيل : فأنزل الله : « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » فقال النظر : ألا ترون أنه قد صدقنى أن للرحمن ولدا ، فقال الوليد ابن المغيرة : لا والله ما صدقك ، ولكن قال : « إن كان » منكرا لقولك ، فصفق لها النظر وغضب ، وقال : ما حكى الله عنه فى قوله :

( وإنْ قالـُوا ) وإنما أسند القول إليهم ، والقائل النظر لما مر ، وقد قيل : إنهم قالوا كما قـال ، وقـال أنس : القائل هنـا أبو جهل ( اللـَّهمَّ إنْ كانَ هَـذا ) ما يقوله محمد من القرآن والوحى وأنـه رسول ( هـُو الحقَّ ) لفظ هو فصل ، والحق خبر كان ، قال الزجاج : ولا أعلم أحداً قرأ برفع الحق على أنه خبر هو ، والجملة خبر كان ، وقال جار الله : قرأ الأعمش بالرفع على ذلك ، وأل فى الحق للعهد ، أى

الحق الذى يدعيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو كونه حقا منزلا لا الحق مطلقا ، لتجويزهم أن يكون حقا غير منزل ، كما اعتقدوا فى أساطير الأولين ، وقيل : أرادوا بأساطير الأولين أكاذيبهم ، وزاد لما ذكرته إيضاحا لقوله :

( مِنْ عِنْدِكَ ) وهو حال من الحق ، أو خبر ثان لكان مطلقا ، أو خبر ثان للمبتدأ فى قراءة الرفع فقط ، وروى أنه لما قال النظر : « إن هذا إلا أساطير الأولين » قال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ويلك إنه كلام الله » فقال « اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك » ( فامْطِرْ عَلينَا ) ألق علينا كهيئة الأمطار ( حِجارةً ) عقوبة لنا على الإنكار كما فعلت بأصحاب الفيل وبقوم لوط ( مِنَ السَّماءِ ) فائدته مع أن الإمطار لا يكون إلا من السماء ، الإشارة إلى أن الحجارة هى المسوَّمة للعذاب ، المعدة فى السماء ، أو أرادوا مطلق الحجارة ، فقوله : « من السماء » تقوية .

( أو ائْتنَا بعذَابٍ أليمٍ ) غير أمطار الحجارة كالإحراق والإغراق ، والخسف والصيحة ، ونحو ذلك مما عذبت به الأمم ، وهذه المقولة أبلغ فى التكذيب من الأولى ، وهم فيها أشد وثوقا حتى إنهم جعلوا حقيقة ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كالمحال ، بحيث علقوا بها أحد العذابين ، معتقدين أنها منتفية فضلا عن أن يعذبوا ، وفى ذلك أيضا تهكم منهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ومن قال بقوله ، وفى مجرد قولهم : « إن كان هذا هو الحق » أيضا تهكم بمن يقول على سبيل الحصر ، إنما يقول صلى الله عليه وسلم هو الحق .

قال معاوية لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ،

فقال : أجهل من قومى : قومك إذ قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الحق : « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة » ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له ، وما بين نزول الآية فى قول النظر وموته إلا بضعة عشر يوما .

( وما كانَ اللهُ ليعذِّبهمْ ) هذه اللام مؤكدة للنفى قبلها ، ودالة على أن هذا العذاب استئصال ، قال أبو زيد : سمعت من العرب من يقول : ما كان الله ليعذبهم بفتح اللام وهى لغة غير معروفة ولا مستعملة فى القرآن ( وأنْتَ فيهِم ) إذ من عادة أمر الله وحكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال ونبيهم أو مؤمنوهم بين أظهرهم على ما مر ، وفى ذلك تنبيه على أنهم أحقاء بعذاب الاستئصال لو لم يكن فيهم ، وهذا وما بعده إلى آخر الآية نزل بمكة ، وقيل : بالمدينة بعد وقعة بدر حكاية لما مضى ، وقيل : نزل هذا بمكة إثر قولهم : « أو ائتنا بعذاب أليم » ونزل قوله :

( وما كانَ اللهُ مُعذِّبهم وهُم يسْتغفِرُونَ ) فى طريقه إلى المدينة عند الهجرة ، فهى مدينة ، فإن المدنى ما نزل بعد الهجرة فى أى مكان ، والمكى ما نزل قبلها كذلك ، وهذه إشارة إلى أن سبب إمهالهم ، وعدم إجابة دعائهم على أنفسهم بإمطار الحجارة ، أو بعذاب غيره هو استغفار لهم ، ولولاه ما أثبت النبى صلى الله عليه وسلم فيهم ، بل يخرجه فيعذبهم ، وكانوا يقولون : غفرانك اللهم ، وكانوا يقولون بعد الفراغ من الطواف : غفرانك غفرانك ، ويقولون : لبيك لا شريك لك ، وقيل لما أمسوا ندموا على قولهم : « اللهم إن كان هذا هو الحق » فقالوا : غفرانك اللهم .

وقال الضحاك : المستغفرون هم بقية المؤمنين فيهم بعد خروجه ،

حكم عليهم بالاستغفار ، لأن فيهم من يستغفروهم بقية المؤمنين المستضعفة ، وأن ذلك نزل فى مكة ، وقيل عن الضحاك ، وابن عباس ، وأبى مالك : إن الضمير فى قوله : « وهم يستغفرون » لهؤلاء المؤمنين الباقين بمكة ، ويضعفه أنه لم يجر لهم ذكر ولا دليل عليهم سوى الاستغفار ، وهو دليل ضعيف بالسياق السابق واللاحق ، وبوجود الاستغفار من الكفر ، وذكر أيضا عن ابن عباس ما ذكرته أولا ، وذكر عنه ، وعن مجاهد ما كان الله ليستأصلهم بالعذاب ، وفيهم من سيسلم فيستغفر .

فهذا الاستغفار من لوازم الإسلام ومسبباته ، حتى أن بعضا فسر هذا الاستغفار بالإسلام ، وفسره بعضهم بالصلاة ، فلوجود من سيسلم فيهم حكم عليهم بالاستغفار من باب الحكم على المجموع ، وبه قال الزجاج ، وفيهم أبو سفيان ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام ، وعن مجاهد : المستغفرون ذرية بعضهم ، ونسب الاستغفار إليهم ، لأن ذريتهم منهم ، وعنه وعن عكرمة مولى ابن عباس ، وعن قتادة لا أعذبهم وهم مستغفرون ، أما إذا كانوا غير مستغفرين فسأعذبهم لأنهم غير مؤمنين ، فضلا عن أن يستغفروا وهو قريب من قول بعضهم : إن ذلك جلب لهم إلى الإيمان ، أى أطيعوا حتى لا أعذبكم ، كقولك لعبدك : لا أعذبك وأنت تطيعنى ، تريد منه أن يطيعك فينجو من عذابك ، ويحتمله قوله تعالى : « وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وعلى كل حال فجملة « وهم يستغفرون » حال ، وهى حال مقدرة على القول بأن المعنى سيسلم بعضهم ، والقول بأن المعنى تستخرج منهم ذرية مسلمة ، وفى الحديث عن ابن عباس ، وأبى موسى الأشعرى : « أن الله أنزل علىَّ أمانين لأمتى « : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم

وما كــان الله معذبهم وهم يســتغفرون » فإذا مضــيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة » قيل : ما من أمة فيها خمسة عشر رجلا من المسلمين يستغفرون إلا رحم الله تلك الأمة .

( وما ) نافية أو استفهامية إنكارية ( لَهم ) خبر ومبتدؤه المصدر من قوله ( ألاَّ يُعذِّبَهم اللهُ ) أو لهم نابت عن فعل أو وصف رافع المكتفى به عن الخبر ، والمصدر فاعل ، وذلك عــلى النفى ، وأما عــلى الاستفهام فما مبتدأ ولهم خبر ، وألا يعذبهم الله حال على تأويل غير تعذيبهم الله ، وتأويل هذا بغير معذبهم الله ، أو بغير ذى تعذيبهم الله ، وقيل : إن زائدة عملت ، والجملة حال وهو قول الأخفش ، ورد بأن الأصل الزيادة ، وأن الزيادة لا يعمل إلا إن اختص كالياء الزائدة ، عملت الجر فى الاسم لاختصاصها بها ، وأن لا تختص بالفعل فقد دخلت على الحرف فى قوله :

فأمهلــــه حتى إذا إن كأنـــه
معاطى يـــد فى لجة الماء غـــامر

وقولـــه :

فأقســـم أن لـــو التقينـــا وأنتم
لكـــان لكم يوم من الشر مظلم

وعلى الاسم فى قوله :

* كأن ظبية تعطو إلى وارف السلم *

فى رواية جر ظبية ، ويجوز تقدير الجار أى ومالهم فى أن لا يعذبهم

وهو مختار ابن هشام ، وقال الطبرى : المعنى ما يمنعهم من أن يعذبوا فقدر من وعلقها بمالهم لتضمنه ما يمنعهم ، وجعل لا زائدة ، وقيل : ما منعهم من أن يعذبوا ، وجعل المصدر مفعولا لما لهم ، ولا يرد عليهما أن الجار والمجرور لا يعمل فى المفعول كما قال ابن هشام ، لأن العامل الجملة ، وعلى كل حال فالمعنى ما لهم أن لا يعذبهم الله إذا خرجت من بين أظهرهم أنت وجميع المؤمنين ، أو إذا تركوا الاستغفار ، أو إذا أسلم من يسلم منهم ، أو إذا أخرجت الذرية المسلمة منهم ، أى هم أهل لذلك سواء فعل بهم ذلك أم لا ، فتراهم قتلوا يوم بدر ، ولم يستأصلوا لحضور عكرمة بن أبى جهل وغيره ممن سيؤمن .

وعن بعضهم : لما خرج المؤمنون والنبى من بين أظهرهم ، عذبوا بفتح مكة ، وقيل : هذا العذاب القتل والأسر يوم بدر ، على أنه ليس المراد : وما لهم أن لا يعذبهم عذاب استئصال ، ولو كان هو المراد بالعذاب الأول فى أحد الأوجه ، وقيل : هذا العذاب عذاب الآخرة والأول عذاب الدنيا .

وقال ابن إسحاق : قوله : « وما كان الله ليعذبهم » إلى « يستغفرون » من مقول المشركين على طريق الالتفات فى ضمير الغيبة والتصرف فى الكلام فى قوله : « وأنت » والأصل ما كان الله ليعذبنا وأنت فينا ، وما كان الله معذبنا ونحن نستغفر ، اعتقدوا أن لا تعذب أمة ونبيها فيها ، ولا تعذب وهى تستغفر ، أى إن صدقت فى ادعائك النبوة ، فهذان مانعان من عذابنا ، فحكى الله قولهم ذلك تقبيحا عليهم ، ورد عليهم بقوله : « وما لهم أن لا يعذبهم » الخ ، أى هم أحقاء بأن يعذبوا ، ولو كنت فيهم وكانوا مستغفرين ، لأنهم غير مخلصين فى

استغفارهم بأن يصيبهم العذاب دونك ، ولكن قضينا أن لا نعذبهم . بل نمهلهم على عادتنا فى الإمهال ، وقال الحسن : « وما كان الله ليعذبهم » إلى « يستغفرون » منسوخ بقوله : « وما لهم أن لا يعذبهم » الخ ، ويرده ان الإخبار لا يدخله النسخ لاستلزام نسخة الكذب .

( وهُم يَصدُّونَ ) الناس ( عَنِ المسْجِدِ الحَرامِ ) وذلك أنهم ألجئوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين إلى الهجرة ، فبعدوا عن المسجد الحرام ، ولم يجدوا الوصول إليه بهم وأحصروهم عام الحديبية ، وكانوا يقولون : نحن ولات البيت الحرام ، نصد من نشاء ، وندخل من نشاء ، فأنزل الله رداً عليهم قوله : ( وما كانُوا أوْلياءَهُ ) أى أولياء المسجد الحرام ، فإذا لم يكونوا أولياءه فليسوا أيضا بأولى بالحرم على الإطلاق ، لأن المسجد داخل الحرم ، فليس لهم أن يمنعوا مريد دخول الحرم لدخول المسجد ، وقيل : الضمير لله ، والماصدق واحد ، فإن من لم يكن وليا لله لا يكون وليا لبيته ومسجده .

( إنْ أوْلياؤه ) أى أولياء المسجد أو الله ( إلا المتَّقُون ) للشرك وكبائر النفاق ، فليس يكون الموحد وليا له ولا لمسجده ، إلا إن كان برا تقيا ، فكيف بالمشرك المعادى للدين أن يكون والى أمره ، وعن الكلبى ، وابن عباس أيضا : نزل ذلك فى شأن الحارث بن عامر بن نوفل ، إذ أمره صلى الله عليه وسلم بالإيمان فقال : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، وإن تركنا هنا لأن على دين هؤلاء ولو خرجنا عنه لأخرجونا ، **فأنزل الله كيف أعذبهم إن آمنوا وأنت فيهم وهم مستغفرون ، وإنما أعذبهم إن لم يفعلوا .**

( ولكنَّ أكْثرهُم لا يعْلَمونَ ) أنهم ليسوا أولياءه ، وإنما قال :

« أكثرهم » لأن فيهم قليلا يعلمون أنهم ليسوا أولياءه ، وعاندوا طلبا للرياسة ، أو لأن فيهم من جنح إلى الإيمان وعلم ذلك ، ولكن لم يخلص إيمانه ، أو لأن فيهم من أسلم وأخفى السلامة ، فكان بصورة مشرك فجاء لفظ الأكثر باعتبار صورته ، وقد قيل بهذين الوجهين فى العباس وأم الفضل وغيرهما ، وقيل : المراد الكل بالأكثر ، كما يراد بالقلة العدم ، قال سيبويه : تقول العرب : قلَّ من يقول كذا ، وهى تريد أن لا أحد يقوله .

( ومَا كانَ صَلاتُهم عِنْدَ البيْتِ ) الكعبة ( إلا مُكاءً ) صفيرا من مكا يمكو كدعا دعاء ، ورغا رغاء ، وبكى بكاء ، وصرخ صراخا ونحو ذلك من الأفعال الدالة على الصوت الثلاثية المفتوحة العين الآتى مصدرها بوزن فعال بضم الفاء وتخفيف العين ، وقال قتادة : المكاء ضرب الأيدى وهو ضعيف ، وليس بخارج عن القياس فى المصدرية لخروج الصوت من الضرب ، وقيل : المكاء الصفير فى الأيدى ، وقرأ إلا مكا بالقصر ، ونسب لأبى عمرو ، والمشهور عنه المد .

( وتَصْدِيةً ) تصفيقا تفعلة من الصدى كزكى تزكية بتخفيف الياء ، يقال صدى بالتشديد الجبل ونحو تصدية ردد مثل الصوت الذى يلفظ به الإنسان أو غيره ، وذلك أنهم يضربون أيديهم هذا هو المشهور ، وقال قتادة : يضجون ويصيحون بما لا يعنى ، وبما لا معنى له ، وذلك التصدية ، وعلى كل حال فقد شبه صوت تصفيقهم أو صياحهم بالصوت الذى يرده الجبل ونحوه فى عدم النفع ، أو فى كونه لا معنى له ، وربما صاحوا بماله معنى ، لكنه كعدم المعنى لأنه غير معتبر ، ويصح على تفسير قتادة أن يكون من صد يصد بكسر الصاد إذا ضج وصاح ، وهو لازم ضعف للمبالغة فعيل صدد يصدد بتشديد الدال الأولى فيهما ،

أبدلت الثالثة فيهما حرف علة فقيل : صدى يصدى بدال واحدة مشددة ، مثل زكى يزكى ، فالمصدر تصدية كتزكية .

وقال سعيد بن جبير : التصدية المنع ، فأما أن يكون تفسيرا بالواقع من تصفيقهم أو صياحهم فإنه منع عن الصلاة والقراءة ، أو تفسير بالصد الذى هو المنع وهو الصد المتعدى ، شدد للمبالغة ، فهو من صده يصده بالضم فعيل صدده يصدده بتشديد الدال الأولى فيهما ، أبدلت الثالثة حرف علة فكان المصدر تصدية كتزكية مثل ما مر .

وروى أنهم كانوا يدخلون أصابعهم فى أشداقهم ، وذلك المكاء ، ويصفرون ، وذلك التصدية ، وفى رواية عن ابن جبير : التصدية منعهم المؤمنين عن المسجد وأمر الدين ، لا بأصوات اللغو ، وعلى كل حال فالمراد بالآية ذكرهم بما يستحقون به العذاب ، ويمتنع به أن يكونوا أولياء الله أو مسجده ، فإن من كانت صلاته الصفير والتصفيق لا يليق وليا له ، وكانوا يعتقدون أن المكاية والتصدية عند البيت صلاة أو دعاء ، وكانوا كما قال ابن عباس : يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، يعنى قريشا ، وكانوا يتقربون بذلك ، وكان بعض أقوياء العرب يمكو على الصفا فيسمع من جبل حراء وبينهما أربعة أميال .

وإن قلنا : ليسوا متقربين بذلك ، فمعنى كونه صلاة أنهم أبدلوا الصلاة به وجعلوه مكانها ، وقيل : أحدثوا المكاء والتصدية حين جاء النبى والمؤمنون ليشغلوهم به عن الصلاة والقراءة والعبادة ، ونسبه بعضهم لأكثر المفسرين ، وكانوا إذا جاء النبى أو مؤمن يصلى اجتنفه رجلان يمينا وشمالا بالمكاء والتصدية ، وكان نفر من بنى عبد الدار

يعارضون النبى صلى الله عليه وسلم فى الطواف ، يستهزئون به ويدخلون أصابعهم فى أفواههم ويصفقون كما قال مجاهد ، وكان إذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يصفران ، ورجلان عن يساره يصفقان من بنى عبد الدار كما قال مقاتل .

صحح بعضهم ما مر من أن المكاء والتصدية عبادة قديمة فيهم ، وبه قال ابن عباس ، ويمكن أن يزيدوا فيهما ليشغلوه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقرأ الأعمش ، وعاصم ، وإبان بن ثعلب فى رواية عنهم بنصب صلاة على أنه خبر كان ، ورفع مكاء وتصدية على الاسمية بكان ، وفيها الإخبار بالمعرفة عن النكرة ، وهو وارد فى السعة والضرورة ، لكن الراجح عكسه ، وزعم قوم أن هذه القراءة لحن .

وروى عن الأعمش أنه قال : قال بعض : إن هذه قراءة عاصم وقرأ بها فقال له : أفإن لحن عاصم تلحن أنت ، وزعم الفارسى أن داعى هذا القارىء إلى ذلك توهمه أنه لو كان صلاة اسم كان لقيل : كانت ، وممن قال لا يخبر بالمعرفة عن النكرة الا فى الضرورة : ابن هشام ، وأجازه بعض فى السعة إن وصفت النكرة أو أضيفت أو تعلق بها شىء .

( فذُوقُوا العَذابَ ) يعنى القتل والأسر يوم بدر قاله الحسن ، والضحاك ، وابن جريج ، ولا يلزم منه أن يكون ذلك نزل بعد بدر حكاية لما قيل لهم خلافا لبعض ، بل يحتمل أن يكون قبله ، وقد قالوا : ائتنا بعذاب فجاءهم هذا العذاب ، وقد قيل : إن أل للعهد ، والقائل لهم فذوقوا العذاب : الملائكة ، أو شبه حالهم بحال من قيل له ذلك ، ويحتمل أن يكون بعده قال بعضهم : الراجح أن يكون الكل نزل بعده حكاية ، وقيل : العذاب عذاب الآخرة ، كأنه قيل : يقال لهم فذوقوا العذاب ،

والقاتل الملائكة ( بما كُنْتم ) بسبب كونكم ( تكْفُرونَ ) كفر اعتقاد ، وكفر عمل .

( إنَّ الَّذينَ كَفرُوا ينْفقونَ أمْوالَهم ليصُدّوا ) الناس ( عَنْ سَبيلِ اللهِ ) أى إن الذين كفروا يريدون إنفاق أموالهم لذلك ( فسَيُنفِقونَهَا ) فى ذلك ، فالإنفاقان واحد ، وكذا إن أريد بذكر الإنفاق أولا لبيان علة الإنفاق ، ويذكره ثانيا بيان أنه سيقع ويرتب على وقوعه الحسرة والغلبة ، وذلك أن عبد الله بن ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية وغيرهم من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، كلموا أبا سفيان ومن له مال فى تلك العير التى جاء بها من الشام ، أن محمدا قد قتل خياركم فأعينونا بهذا المال ، لعلنا ندرك منه ثأرنا ، فأرادوا ذلك وأنعموا به وأنفقوها يوم أحد ، فهو المال الذى أرادوا إنفاقه ، أو أنعموا به وأنفقوه عن قريب ، ولكن ما استعمل إلا يوم أحد كخيل وسلاح وزاد ، أو أنفقوها عن قريب صرفت للرجال ليتمكنوا من الحرب ، والقرب نسى فلا ينافى السين .

وجزم عاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمر ، وابن سعد بن معاذ أنه أنفق فى غزوة أحد ، وعن السدى ، ومجاهد ، وابن جبير : أن أبا سفيان أنفق فى غزوة أحد على العرب المتجمعين بمكة ونواحيها من غير قريش أربعين أوقية ذهبا ، والأوقية أربعون درهما ، قيل : واستأجر أيضا ألفين من العرب سوى ذلك ، قيل : هم من كنانة ، ونزلت فى ذلك ، وقيل : الإنفاق الأول يوم بدر ، والمضارع فيه لحكاية الحال الماضية كأنها حاضرة على أن الآية نزلت بعد الإنفاق ، وللاستقبال على أنها نزلت قبله ، وللحال الحقيقة على أنها نزلت وقت الإنفاق .

والإنفاق الثانى يوم أحد أو قبله لغزوة أحد ، فيقدر مضاف أى فسينفقون بقيتها ، أو يجعل ذلك من باب الاستخدام بأن يرجع الضمير إلى الأموال المذكورة لا بقيد إنفاقها الأول ، أو يضمن الإنفاق معنى الإنقاص ، وذلك أن المطعمين أبا جهل وعتبة وشيبة ونبيها ومنبها ، وأبا البخترى ، والنظر ، وحكيما ، وأبيا ، وزمعة ، والحارث ، والعباس ، يطعم منهم كل يوم عشر جزر ، وقال الضحاك : يوما عشرا ، ويوما تسعا ، وهو أنسب بما مر فى عدد المشركين .

وتخريج الآية على المطعمين ، ومنهم العباس يقضى أنه كافر حين كان بمكة ، وحين خرج إلى بدر وأسلم بعد ما أسر ، وقيل : كان بمكة مسلما ، وإنما خرج معهم غير قاصد للشر فيما قال ، وذلك هو الإنفاق الأول ، وأنفقوا أيضا لغزوة أحد وهو الإنفاق الثانى ، وذلك توجيه للأقوال والروايات ، وتطبيق لها بالآية على ما تتقبله الصناعة بحسب ما ظهر لى ، والذى أقول به : إن المضارع الأول للاستمرار التجددى ، والكلام يشمل كل من كانت عادته الإنفاق للصد عن سبيل الله وهو دينه ، واتباع رسوله من المطعمين الاثنا عشر وغيرهم ، ولو صح أن سبب نزول الآية من ذكر .

( ثمَّ تكُونُ عليْهِم حَسرةً ) ندما وتلهفا وغما فى الدنيا ، هذا هو المراد ، والله أعلم ، ولو كانت أيضا كذلك فى الآخرة ، وقيل : المراد هنا فى الآخرة وعليه يستثنى العباس ، إلا إن كان حال الإنفاق مؤكدا فإنه يكون عليه ذلك فى الآخرة تضييقا فى قبره ، أو فى المحشر ، ثم ينجو ، وإنما كانت حسرة فى الدنيا ، لأنهم أنفقوها ولم ينفعهم إنفاقها ، والحكم على الأموال بأنها حسرة مبالغة ، فإن الحسرة إنما هى عاقبة إنفاقها ، ولا يخرج عن هذا بتقدير مضاف هكذا ، ثم يكون إنفاقها لأن

الإنفاق أيضا ليس حسرة ، بل ترتب عليه ، وزعم السعد أن ذلك استعارة تمثيلية حيث شبه كون عاقبة إنفاقها حسرة بكون ذاتها حسرة ، وأطلق المشبه به على المشبه .

( ثم يُغْلَبُونَ ) وهذا يوم أحد ، قال ابن سلام : بين الله أنهم سيغلبون قبل أن يقاتلوا بسنة ، وقيل : المراد أن آخر أمرهم أن يغلبوا ، ولو كانت الحرب قبل ذلك دولا ( والَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّم يحْشَرُونَ ) يجمعون إن لم يتوبوا .

( ليميزَ اللهُ ) وقرأ حمزة ، والكسائى ، ويعقوب ، وقتادة ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، والحسن بضم الياء ، الألى وفتح الميم وكسر الياء الثانية مشددة ، وهو أبلغ ( الخَبيثَ ) الكافر ( مِنَ الطَّيِّبِ ) المؤمن ، قاله ابن عباس ، والسدى ، وقيل : الخبيث العمل الفاسد ، والطيب العمل الصالح ، واللام على القولين متعلقة بيحشرون أو يغلبون ، فإن التمييز يكون بإلقاء الكافرين فى النار ، وجزاؤهم على كفرهم ، وبغلبتهم ، وقال ابن سلام والزجاج : الخبيث ما أنفقه المشركون فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والطيب ما أنفقه المسلمون فى سبيل الله ، فتعلق اللازم بتكون وإن علقت بيتقون كانت للصيرورة .

( ويجْعَل ) الفريق ( الخَبيثَ بعضَه عَلى بعضٍ فيرْكُمَهُ ) يجمعه ويضمه ( جَميعاً فيجْعَلَه فى جَهَنَّم ) أو يجعل المال الخبيث المنفق فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضه على بعض ، ويجمعه ويضمه ، ويجعله فى جهنم يعذب به منفقوه ، قال صلى الله عليه وسلم : « يخرج يوم القيامة من الأموال ما كان صدقة أو قربة ، ثم يؤمر بغير ذلك فيلقى فى النار » قال الحسن : إن الكفار يعذبون بذلك المال ، أو

يجعل الخبيث من الناس والمال بعضه على بعض ، بأن يضم على كل كافر ما أنفق فى العداوة ليزيد به عذابه ، ومن قال : الخبيث العمل الفاسد ، والطيب العمل الصالح قال : معنى جعل الخبيث بعضه على بعض وركمه جزاء الكفار بأعماله وقربه بوبالها .

( أولئكَ هُمُ الخَاسِرونَ ) يعنى الذين كفروا ، أو الذين أنفقوا ، أو الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث ، والماصدق واحد ، والعبارة عبارة حصر ، كأنه لكمال خسرانهم لا خسران إلا خسرانهم أنفقوا أموالهم ولم ينفعهم إنفاقها ، إذ كانوا مغلوبين ، وعوقبوا بالعذاب الدائم .

( قُلْ للَّذينَ كَفرُوا ) أبى سفيان وأصحابه ( إنْ ينْتَهوا ) عن الكفر والمعاداة ( يُغْفر لَهم ما قَدْ سَلفَ ) من ذنوبهم ، الإسلام جب لما قبله مطلقا ، قال فى القناطر : قال عليه الصلاة والسلام : « الإسلام جبٌّ لما قبله » فوسع الله تعالى للمشرك إذا أسلم جميع ما بيده من الأموال والأنكحة ، ولو اكتسبها حرام ولم يطالبه بشىء من مظالم العباد من الرماء وغيرها ، وهذا من سعة رحمته تعالى انتهى .

وكذا الذمى داخل فى كون الإسلام جبا ، لكن تبقى عليه حقوق الآدميين عند جار الله وهو صحيح ، واختلفوا فى المرتد فقيل : إذا أسلم كان إسلامه جبا لما قبله مطلقا ، وقيل : يؤخذ بحقوق الآدميين ، وقيل : يلزمه قضاء ما ترك من الفرائض فى حال الردة ، وقال أبو حنيفة : يلزمه قضاء ما ترك فى حالها وما قبلها فى حال الإسلام أو الشرك الأول ، وقرىء يغفر بالبناء للفاعل ففيه ضمير يعود على الله .

( وإنْ يَعودُوا ) إلى المعادات والقتال ، وأما الكفر فلم يفصلوا

عنه فضلا عن أن يقال عادوا فيه ( فَقَدْ مضَتْ سُنَّةُ ) عادة ( الأولينَ )
المتحزبين على أنبيائهم ، وهى أن يهلكوا وينصر الأنبياء والمؤمنون ،
فإن عدتم فتوقعوا وقعة كوقعة بدر ، والأولون موتى بدر ، وعليه
السدى ، وابن إسحاق ، كما أن وقعة بدر أقرب إليهم ، وقد عاينوها ،
واللام فى قوله : « للذين » للتبليغ كقولك ، قل لزيد قم ، فالمراد قل لهم :
إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف ، إن تعودوا فقد مضت سنة الأولين
بالتاء والكاف خطابا كما قرأ به ابن مسعود ، وأثبته فى مصحفه ، كما
ذكر عنه الكسائى أن ذلك فى مصحفه ، وجار الله أن ذلك قراءته فعدل
عن ذلك الذى هو مقتضى الظاهر إلى الغيبة غضبا وصوناً إلى الحضرة
عن صفة خطابهم ، ولا يلزم به من ذلك ، كما توهم بعضهم أنه لا يكون
مؤديا للرسالة إلا بتلك الألفاظ التى فى قراءة ابن مسعود ، ولك أن تجعل
اللام للتعليل ، أو بمعنى فى أى فى شأن الذين كفروا ، فالغيبة أحق
بالمقام ، وهى على ظاهرها ، فالمراد قل ذلك فيتوصل إليهم ، وفسر
أبو حنيفة العود بالارتداد ، واحتج به على مقالته السابقة .

( وقَاتلُوهُمْ حتَّى لا تَكُون فِتْنَةٌ ) قال ابن عباس ، وابن
عمر : شرك ، وقال ابن إسحاق : فتن أحد عن دينه كما كانت قريش
تفتن بمكة من أسلم كبلال ، وقال الحسن : بلاء ، وعلى الأول يخصص
أهل الكتاب ، فإنه تقبل عنهم الجزية ، كما يخصص قوله : « أمرت أن
أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » أى وأنى رسول الله ، وكان
عمر يأخذ ممن دخل من العرب فى دين أهل الكتاب ضعف ما يأخذ فى
الزكاة عن المسلمين ، وعليه العامة ، وكان علىّ ، وابن سلام يريان
قتلهم ويقولان : الآية فى مشركى العرب .

( ويَكونَ الدِّينُ كلهُ لله ) بأن يضمحل عنهم أديان الشيطان ،

فلا يبقى فيهم إلا دين الله فلا يرى دين ينسب لغيره ، وحينئذ لا شركة له فى الدين ، وأما قبل ذلك فقد شاركه الشيطان فى مطلق الدين ، وكان له دين الكفر ، أو الدين الطاعة والعبادة .

( فإن انْتَهَوْا ) عن الكفر والمعاداة ( فإن الله بما يعْملونَ بَصير ) فيثيبهم به ، وقرأ يعقوب ، وسلام بن سليمان : تعملون بالتاء الفوقية ، خطاب النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أى أجازيكم على ما عملتم من الاجتهاد والدعاء إلى الإسلام ، حتى انتهوا عن ظلمة الكفر والعداوة بسبب ذلك ، فكما يثابون على الانتهاء ، يثاب المسلمون فى تسببهم فى الانتهاء .

( وإنْ تَولَّوا ) أعرضوا عن الإيمان ، وأصروا على الكفر والمعاداة والقتال ، والفعل ماض ( فاعْلَموا ) أيها المسلمون ( أنَّ الله مَوْلاكُم ) ناصركم وحافظكم فثقوا به ، ولا تبالوا بمعاداتهم وقتالهم ( نِعْم الموْلَى ) الله ، فإنه لا يضيع من تولاه ( ونعم النَّصيرُ ) الله ، فإنه لا يغلب من نصره .

( واعْلمُوا أنَّما ) اسم موصول ، والفاء فى الخبر لشبه الموصول باسم الشرط فى العموم والإبهام ، وعن الفراء : يجوز كون ما شرطية ، وعليه فاسم أن محذوف أى أنه وهو ضمير الشأن كقوله :

إن من يدخل الكنيسة يوما
يلق فيها جاذرا وظباء

ولا يجوز هذا عند سيبويه إلا فى الضرورة ( غَنِمْتم ) الغنيمة

فى اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعى ، فالغنيمة ما ناله المسلمون من المشركين بالقتال أو بالقهر كائنا ما كان ، والمغنم الفوء بالشىء ، واستثنى بعضهم الأصول فلا تسمى غنيمة ، بل تسمى فيئا ، وليس كذلك ، فإن الفىء ما جاء بلا قتال وقهر : كالعشر والجزية ، وأموال الصلح والمهادنة ، وقال : من مات منهم فى دار الإسلام ولا وارث له ، وإخراج الأصول قيل : وخمس الغنيمة ونحو ذلك ، ولا خمس فيه هذا هو الصحيح ، وهو قول الثورى ، وعطاء .

وقال قتادة : كل ذلك يسمى غنيمة ، ويسمى فيئا ، والغنيمة والفىء شىء واحد ، وفيه الخمس ، وكذا حكى ابن المنذر ، عن الشافعى : أن فى الفىء الخمس لمن ذكره الله فى هذه الآية ، وأربعة الأخماس للمقاتلة والمصالح ، وذكر عنه أنه كان فى قرى فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن أربعة أخماسها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضعها حيث شاء ، قال قتادة : إن الفىء داخل فى هذه الآية وإن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه فى سورة الحشر : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » الآية ، وكانت هى الحكم أولا ، ثم أعطى الله الخمس أهلهـا ، وجعل أربعة الأخماس فى المقاتلين ، ورد بأن هذه السورة ببدر قبل الحشر فى بنى النضير ، وقيل : هذه الآية لقوله سبحانه : « قـل الأنفـال لله والرسول » وأن غنائم بدر لم تخمس ، وأكثر الروايات أنها خمست .

ومنها أن عليا قال : كانت لى شارف من المغنم ببدر ، وشـارف أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخمس ، والأكثرون على أنه لا يخمس الفىء ، وأنه يقسم على المسلمين مطلقا بحسب المصلحة ، فيعطى الرجل بالنظر إلى قومه ، والرجل بالنظر إلى قتاله ، والرجل بالنظر إلى عياله ، والرجل بالنظر إلى حاجته ، وكان الفىء فى زمان

النبى صلى الله عليه وسلم فيما ذكروا عن عمر خاصا به ، يتصرف فيه كما شاء ، ينفق منه سنة على عياله ، والباقى فى السلاح والكراع ، ويصرف بعده للمقاتلة الذين أثبت أسماءهم فى ديوان الجهاد بقدر ما يكفيهم ، ثم مصالح المسلمين ، ثم الأهم فالأهم ، وقيل : للمقاتلة لأن بهم أرهب العدو ، وكالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل : هو الإمام .

( مِنْ شَىْءٍ ) حال من الرابط المحذوف ، أى ما غنمتموه من شىء ومن للبيان ، وفائدته التعميم حتى أنه يشمل الصبى والمرأة ، صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنب بعير ، ثم أخذ وبرة منه وقال : « ما لى ولا لكم منها ، أى من الغنيمة مثل هذه إلا الخمس ، ثم هو ردٌّ عليكم فأدوا الخياط والمخيط ، فإن الغلول نار وشنار على الغلة يوم القيامــة ولكم الأكل والركوب والعلف ، وليس أحدكم أحق بالغنيمة من الآخر ولو بالسهم » وقيل : يا رسول الله استشهد فلان فقال : « كلا إنى رأيته يجر إلى النار بعباءة غلها » .

وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الصفى وهو ما يختاره لنفسه قبل القسمة ، وتركه إكراما لأمته وادخارا لأجره ، وكتب به إلى بنى زهرة وقيس : أنه له فيما غنموه إن آمنوا ، وبكلمة الإخلاص والصلاة والزكاة ، وإن لكم حظا فى الخمس ، ولا صفى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجماع إلا ما قاله أبو ثور أنه باق للإمام وهو قول شاذ ، وأما الأرض وسائر الأصول فإن شاء الإمام قسمها كسائر الغنيمة ، وإن شاء تركها فى أيدى أهلها يجزأ من غلتها وبخراج يضربه عليها ، وإن شاء فعل غير ذلك كبيعها بحسب المصلحة مثل أن يرى أنه لو قسمها لاشتغلوا بها عن الجهاد فلا يقسمها ، وأما البالغون قبل ومن شارف البلوغ فللإمام عند مالك والجمهور القتل ، ويستحسن فى أهل الشجاعة

والاكناية أو الفداء ، ويستحسن فى ذى المنصب الذى لا رأى لـه ولا مكيدة أو المن ، ويستحسن فى من يرجى فيه النفع والحنو على أسرى المسلمين أو الاسترقاق أو ضرب الجزية .

( فأنّ ) بفتحة همزة أن عند الجمهور والمصدر من خبرها مبتدأ محذوف الخبر ، أى فثبوت خمسه لله واجب أو حق أو لازم أو نحـو ذلك ، أو خبر لمحذوف أى فالحكم أو الواجب أو الحق اللازم أو نحو ذلك ، ثبوت خمسه لله ، أو فاعل لمحذوف أى فثابت كون خمسه لله ، أو فحق ثبوت خمسه لله أو نحو ذلك .

وروى الجعبى عن أبى عمر ، وقيل : الجعبى عن أبى بكر ، عن عاصم وحسن ، عن أبى عمرو بكسر الهمزة ، ويؤيده قراءة النخعى فلله خمسه بإسقاط أن الموافق لإثباتها مكسورة فى عدم التأويل ، والتقدير وقراءة الجمهور آكد وأثبت للإيجاب ، كأنه قيل : فلا بد من إثبات الخمس فيه من حيث إنه إذا حذف الخبر أو المبتدأ أو رافع الفاعل ، واحتمل أوجها من الاتقديرات كما رأيت كان أقوى لإيجابه من النص على واحد .

( لله خُمُسَهُ ) وقرأ الحسن بإسكان الميم ، والمراد بذكر الله تعظيمه ، وافتتاح الجملة به للتبرك ، وأن من حق الخمس أن يتقرب به إليه كما قال مالك ، وأنه هو الحاكم فى الخمس يقسمه كيف شاء ؛ وليس المراد أن له سهما من الخمس ، فالدنيا والآخرة كلها لله ، فإنما يقسم الخمس على الخمسة المذكورة بعده ، أو سهمه سهم الرسول فيقسم أيضا الخمس المذكور على الخمسة المذكورة .

وقال مالك والزجاج : قسمه على الخمسة تمثيل بأهم من يدفع

إليه لا حصر ، فيجوز إعطاء الغير منه كقوله سبحانه : « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين » الخ وقد أجمعوا على جواز إنفاق الخير على غير من ذكر ، والصحيح الأول ، وبه أقول ، وهو قول الشافعى ، وأبى حنيفة ومالك ، وابن عباس ، والحسن بن محمد ، وعطاء ، وقتادة ، والنخعى ، وهو ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله .

وذكر الطبرى ، عن ابن عباس : أن الخمس مقسوم على أربعة ، وسهم الرسول لقرابته ، وليس له ولا لله شىء ، وقال أبو العالية : المراد بذكر الله أن له سهما فيقسم الخمس على ستة ، وسـهم الله يصرف للكعبة ، قيل : قال عن رسول صلى الله عليه وسلم : « كان يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ قبضة يجعلها للكعبة وهو سهم الله ، ثم يقسم الباقى على خمسة » وقيل : سهم الله لبيت المال ، وقيل : يضم إلى سهم الرسول ، وقال منذر بن سعيد : قالت فرقة : لفقراء المسلمين أو لبيت المال ورد عليه :

( وللرَّسُولِ ) سهمه بعد موته لمصالح المسلمين ، وما فيه قوة الإسلام عند الشافعى وأحمد ، وقالت فرقة : للكراع والسلاح ، قال الأعمش ، والنخعى : هو الذى كان أبو بكر وعمر يفعلانه ، وقال علىّ ، وقتادة ، والحسن : للإمام وهو حسن ، وقال أبو حنيفة : الأربعة المذكورة بعد ، وقالت فرقة : هو لأصحاب أربعة الأخماس الباقية ، وهم الجيش ، وقال قوم : لقرابته صلى الله عليه وسلم ، وقال مالك : إلى رأى الإمام ، وقال أصحاب الارأى هو لليتامى والمساكين وابن السبيل دون القرابة ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يورث .

واحتجوا بمنع أبى بكر وعمر وعثمان لذوى القربى ، وعورض

بنو هاشم بأن قريشا قربى ، وقد منع أبو بكر بنى هاشم الخمس ، وقال : إنما لكم أن يعطى فقيركم ، وتزوج أيمكم ، ويخدم من لا خادم له ، وأما غنيكم فهو كابن سبيل ويتيم غنيين ، لا يعطيان شيئا ، فتراه منعهم من الخمس المذكور لهم فى القرآن إلا بشرط الفقر ، فكيف يعطيهم سهم الرسول ، وقيل : لم يكن فى مدة أبى بكر مغنم •

( ولذِى القُرْبى ) صاحب القرابة المراد الجنس ، الصحيح أن لقرابته صلى الله عليه وسلم وهم المراد هنا سهما فى الخمس ، ولو كانوا أغنياء ، ولا يفضل الفقير والأقرب ، على الغنى والقريب ، وللذكر مثل حظ الأنثيين ، وبه قال الإمام مالك ، والشافعى ، والجمهور ، وقد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم العباس رضى الله عنه مع كثرة ماله ، وكذا الخلفاء بعده ، والمشهور عن أبى بكر أنه لا يعطى أغنياءهم كما مر ، وهو قول زيد بن علىّ قال : ليس لنا أن نبنى منه قصورا ، ولا أن نركب منه البراذين •

وعن أبى حنيفة ، وأصحاب الرأى : يقسم الخمس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لليتامى والمساكين وابن السبيل ، ودخل فقراء القربى فى المساكين ، ولا يعطى أغنياءهم ، وقال قتادة ، والحسن البصرى : كان سهم القرابة طعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما توفى كان للخليفة ، وقالت فرقة : هو لقرابة الإمام القائم بالأمر ، وذوى القربى بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبه قال الشافعى ، ومجاهد وعلى بن الحسن •

قال عثمان بن عفان ، وهو من بنى عبد شمس ، وجبير وهو بن مطعم ، وهو من بنى نوفل ، حين قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم

سهم القرابة من غنائم خيبر ، وقيل حنين على بنى هاشم وبنى المطلب ، ولم يعط بنى عبد شمس ، ولا بنى نوفل : يا رسول الله بنو هاشم لا ننكر فضلهم لموضعك الذى وضعك الله منهم ، وأما بنو المطلب فنحن وهم بمنزلة واحدة قرابتنا واحدة ، وأعطيتهم ولم تعطنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد ، وشبك بين أصابعه ، ما فارقنا بنو المطلب فى جاهلية ولا إسلام » وكانوا مع بنى هاشم فى الشعب حين تألبت عليهم قريش ، لا يواكلون ، ولا يشاربون ، ولا يناكحون .

وقال على بن الحسين فى رواية ، وعبد الله بن الحسين ، وابن عباس : ذوو القربى هم بنو هاشم فقط ، وقال قوم : قريش كافة ، وعن ابن عباس : هم بنو هاشم ، جعل لهم فى الخمس عوض عن الزكاة ، وأبى ذلك علينا قومنا وقالوا : قريش كلها قربى .

( واليَتَامَى ) الذكور والإناث الذين لا آباء لهم ، ولم يبلغوا ، يعطون من الخمس إن كانوا فقراء وآباؤهم غير مشركين ، واليتيم فى بنى آدم والجن من مات أبوه ، وفى البهائم من ماتت أمه .

( والمسَاكِينِ ) أهل الحاجة من الموحّدين .

( وابْنِ السَّبِيلِ ) البعيد عن أهله يعطى من الخمس ولو كان غنيا فى بلده إن احتاج ، وأضيف للسبيل لأنه مسافر ماشٍ فيه ، كأنه قيل : صاحب السبيل أو ملازمه ، أو لأن السبيل تبرزه فكأنها تلده ، وقيل : الخمس كله للقرابة ، وقاله علىّ فقيل له : إن الله تعالى قال :

« واليتامى والمساكين وابن السبيل » فقال : أيتامنا ومساكيننا ، يعنى وأبناء السبيل منا ، والآية نزلت ببدر عند الكلبى وهو الصحيح ، وقال الواقدى : فى غزوة قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال ، على رأس عشرين شهرا من الهجرة •

ولا يجوز أن يحرم أحد من تلك الأصناف ، وإن لم يوجد صنف صرف فيمن وجد ، وقال مالك : إن للإمام أن يعطى الأحوج ، وإن حرم الغير ، وأما أربعة الأخماس فتعطى لمن شهد الوقعة ، وللنبى صلى الله عليه وسلم سهم رجل فيها ، يعطى للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة ، واحد له واثنان لفرسه على الدسحيح ، وهو قول الجمهور ، وبه قال مالك ، والشافعى وأحمد •

وهكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : للراجل سهم ، وللفارس سهمان ، وروى ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك ، وإن كان للراجل أفراس لم يعط إلا على واحد ، وأتى خالد ابن الوليد بفرس هجين فقال : لأن أسف التراب أحب إلىّ من أن قسم له ، وذكر بعضهم عنه صلى الله عليه وسلم قسم للهجين وأعطاه سهما ولاحظ فى ذلك للطفل ، والمرأة ، والعبد ، وقيل : إن يعطوا قاتلوا وقيل : يعطون بدون أن يجب لهم سهم تام •

( إنْ كنتُم آمنْتم باللهِ ) شرط لقوله : « واعلموا أنما غنمتم » الخ فيقدر جوابه من جنسه ، أى إن كنتم آمنتم بالله إلى آخره » فاعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه » إلى قوله : « السبيل » أو فاعلموا أن لهـؤلاء الخمس ، أو فاعلموا أن لهم الخمس هـذا هـو الصحيح لقرب دليل الجواب ، ولفظ اعلموا يتضمن الأمر بالانقياد لأمر الله ،

فإن العلم العملى إذا أمر به فالمقصود منه بالذات العمل ، لا مجرد الإدراك ، فإنه مقصود بالعرض ، فكأنه قيل : سلموا إليهم الخمس ، واكتفوا بأربعة الأخماس ، وقيل : شرط لقوله : « فاعلموا أن الله مولاكم » ويضعفه البعد ، وأما العمل فموجود ، فان المراد بعلم أنه مولاهم أن يجترءوا على العدو ، ولا يبالوا به ، وفى الآية إخبار عن اسم كان بالجملة الماضوية المثبتة المجردة من قد ، وأوجب البصريون تقدير قد فى مثل ذلك ، والصحيح أن الكلام صحيح بدون تقدير .

( ومَا أنزلْنَا ) من آيات القرآن والمعجزات ، والملائكة والنصر ، والعطف على اسم الجلالة ( عَلى عَبْدِنا ) محمد صلى الله عليه وسلم ، والإضافة للتشريف ، وقرىء عبدنا بضم العين والياء جمع عبد بفتح فإسكان ، وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون .

( يَوْمَ الفُرْقَانِ ) متعلق بأنزلنا ، والفرقان مصدر فرق المخفف على غير قياس ، أو اسم مصدر لفرق المشدد ، وفيه مبالغة ليست فى الفرق ، ويوم الفرقان يوم بدر ، لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل ، بإعزاز الحق وإذلال الشرك ، وأجاز عياض تعليقه بغنمتم على ضعف لكثرة الفصل .

( يَوْمَ ) بدل من يوم بدل الكل ، والمراد بهما يوم بدر ( الْتقَى الجَمْعان ) الفريق المؤمنون ، والفريق المشركون ، وكان رئيسهم عتبة ، وذلك الالتقاء هو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، وقال أبو صالح : لتسعة عشر يوما من رمضان بالمثناة ، وقال عروة بن الزبير : لتسع منه ، وتقدم كلام فى ذلك ، والأول قول الجمهور وهو الصحيح ، والثالث شاذ .

( واللهُ على كلِّ شيءٍ قَدير ) كما نصركم وأنتم قليل على عدوكم الكثير ، وأمدكم بملائكته •

( إذْ ) بدل من أحد اليومين بدل كل ، وقيل : متعلق بالتقى ( أنتُم بالعُدْوة ) بضم العين عند نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائى ، وبكسرها عند ابن كثير ، وأبى عمرو ، ويعقوب ، وبفتحها عند قتادة ، والحسن ، وذلك كما قال أبو على الفارسى ثلاث لغات والأوليان أولى ، وعن بعضهم : أنه يجوز فى قراءة الفتح أن يكون تسمية بالمصدر ، والخطاب للمؤمنين ، والعدوة شفير الوادى ، لأنه عد عدا ماءة الوادى أن يتجاوزه ، أى منعه ، ولأنه عدا الوادى أى أجاوزه ، والمراد هنا الأرض الموالية ، للشفير ، سميت باسمه للمجاوزة ، وقرىء العدية بكسر العين وإبدال الواو ياء لضعف الفصل بالساكن بينها وبين الكسرة •

( الدُّنْيا ) نعت للعدوة وهو وصف مؤنث بألف كالفضلى ، ومذكرة اسم تفضيل وهو الأدنى ، فهو دال على التفضيل ، كما يدل مذكره عليه ، وكلاهما من الدنو وهو القرب ، كأنه قيل العدوة التى هى أقرب من غيرها ، أو هو وصف مؤنث مذكرة اسم تفضيل خارج عن التفضيل وهو الأدنى بمعنى القريب ، فكأنه قيل : العدوة القريبة ( وهُم ) أى المشركون ( بالعُدْوة ) فيه القراءات السابقات ، والباءان صرفيتان ( القُصْوى ) البعدى مؤنث الأقصى بمعنى الأبعد الذى هو اسم تفضيل باق على معناه ، أو خارج عنه ، فالمعنى العدوة التى هى أبعد من غيرها ، أو العدوة البعيدة ، والقرب والبعد أمران نسبيان ، والمعتبر فيهما هنا المدينة ، فالعدوة الدنيا ما يلى المدينة ، والقصوى ما يلى مكة ، والقياس القصيا بالياء كما هو لغة تميم ، وكالعليا والدنيا ، ولعله اعتبر فيه ما هو

الغالب فيه ، وهو استعماله غير صفة فلا شذوذ ، والحق ما يأتى عن ابن هشام ، وذلك أن فعلى بضم الفاء وإسكان العين إذا كان صـفة تقلب لامه ياء إن كانت واوا تخفيفا .

قال ابن هشام : وأما قول الحجازيين القصوى فشاذ قياسا ، فصح استعمالا ، نبه به على الأصل كما فى استحوذ والقود ، أى لأن القاعدة استجاد بالنقل والقلب والقاد بالقلب للمتحرك بعد فتحه ، وإن كان فعلى اسما لم يغير كخزوى اسما لموضع فرقا بين الاسم والصفة ، ولم يعكس لأن الصفة أثقل ، فكانت بالتخفيف بالقلب أحق وأدعى المرادى أن الصرفيين يبدلون فى الاسم دون الصفة ، ويجعلون حزوى شاذا : وكذا يجعلون القصوى إذا اعتبر غالب استعمالاته وهو استعماله غير وصف كذا قيل ، ولغة الحجاز أكثر استعمالا ، وقرأ ابن مسعود : إذ أنتم بالعدوة العليا ، وهم بالعدوة السفلى .

( والرَّكْب ) اسم جمع راكب ، وقيل : جمع ، والمراد أبو سفيان ومن معه أو إبلهم ، ولا يطلق لما كثر جدا من الجموع ، ولا على راكبى غير الإبل ، ولا على غير الإبل ، وقد يطلق على جماعة المسافرين مطلقا وقول ابن قتيبة الركب العشرة ونحوها ، يقضى أنه لا يطلق على الثلاثة والأربعة ونحوهما مما بعد عن العشرة ، وليس كذلك فإنه يطلق عـلى الثلاثة فصاعداً ولو إلى أربعين أو أكثر مما ليس بكثير جدا ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الثلاثة ركب وخير الركب أربعة » .

( أسْفَلَ ) منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف خبر المبتدأ ، وقول بعضهم : إنه فى محل رفع ، وجهه أنه نائب عن ثابت أو مستقره المرفوع على الخبرية ، أو عن جملة فعلية خبرا لم ينقل منها الضمير إلى أسفل ،

ولو بنى على نقله لم يصح له أن يقول فى محل رفع ، لأن الرفع يجىء له على جهة النيابة عن المرفوع ، والرفع للجملة لا للفعل وحده ، وهو حين النقل نائب عن الفعل فقط ، وأما قول سيبويه إنه فى محل خفض تقديره فى مكان أسفل ، فمعناه إنه ظرف مكان ، وأنه ليس نفس الركب وليس معناه أنه مجرور المحل بفى بحيث يجوز العطف عليه بالجر ، وقرىء برفع أسفل على أنه نفس الركب ، أما على الحكم بالتسفل على الركب لتسفل موضعه فلا تقدير ، أو على تقدير وموضع الركب أسفل منكم أى من موضعكم .

( منكُم ) أيها المؤمنون ، والجملة حال من ضمير الاستقرار فى « إذ أنتم بالعدوة » أو معطوفة على أنتم بالعدوة ، أو على هم بالعدوة كما عطف قوله : « هم بالعدوة » على أنتم بالعدوة ، ويجوز كون الواو فيه حالية من ضمير الاستقرار ، واختار بعضهم كون الواوين عاطفتين ، كان أبو سفيان فى موضع أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر ، وتسفله بالإضافة إلى أعلى الوادى من حيث يأتى نكب إليه أبو سفيان بالعير حين سمع بخروج النبى صلى الله عليه وسلم .

وذكر الطبرى عن مجاهد أن أبا سفيان وأصحابه أقبلوا من الشام تجارا لم يشعروا بأصحاب بدر ، ولم يشعر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بكفار قريش ، ولا كفار قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حتى التقوا على ماء بدر فاقتتلوا ، وهذا على ظاهره مشكل ، ووجهه أن قريشا جاءت تمشى ولا تدرى أين تلتقى مع المؤمنين ، والمؤمنون جاءوا ولا يدرون أين يلتقون مع هؤلاء ، حتى تلاقوا بما مر من الطليعة أو غيرها ، فلا إشكال .

وفائدة ذكر التوقيت ، وذكر أن المؤمنين بالعدوة الدنيا ، والكافرين بالقصوى ، وأن الركب أسفل إعظام المنة إذ من الله على المؤمنين بالغلبة ، مع أن الحال هذه ، فإن العدوة الدنيا تسوخ فيه الأقدام ، ولا يمشى فيها إلا بتعب ، ولا ماء فيها ، بخلاف القصوى فليست كذلك ، وفيها العدو الكثير ، وكانت عير أبى سفيان وراء ظهورهم ذاهبة إلى مكة ، والإنسان يشتد فى الحرب إذا كان معه ما يخاف عليه ، ويثبت فيها أكثر مما يشتد ، ويثبت فى غير ذلك ، ولذلك كانت العرب تخرج إلى الحرب بنسائهم على الجمال وأموالهم ، لئلا يبرحوا عن الحرب ذبا عن الحريم ، ولا يتركون وراءهم ما تحدثهم أنفسهم بالانحياز إليه ، وكان الغالب مع ذلك المسلمين فى قلتهم فما ذلك إلا صنع من الله .

( ولَوْ تَوَاعَدْتُم ) خطاب للمؤمنين والكافرين ، أو الضمير للمؤمنين والكافرين كذلك ، وكان ضمير خطاب تغليبا للمؤمنين المخاطبين ، أو الضمير للمؤمنين فقط ، وعليه فالتقدير : ولو تواعدتم مع الكافرين ، والمراد المواعدة بالقتال لوقت مخصوص فى مكان مخصوص ( لاخْتَلَفْتُم فى المِيعَاد ) فى الوعد بأن يتأهب الكفار وتقدم ، ويثبطكم بعض المؤمنين خوفا لقلتكم ، بل كان القتال بلا مواعدة ، خرج المؤمنون للعير والكفار ليمنعوها ، فالتقوا على غير ميعاد كما مر أن بعض الكفار قال : خرجتم لتمنعوا عيركم وقد نجت فلنرجع إلى مكة .

( ولَكِنْ لِيَقْضِىَ ) يظهر ويوجد فى الخارج ( اللهُ ) متعلق بمحذوف يقدر مقدما ، أى دبر الله ذلك ، أو جمع بينكم على هذه الحال من غير تواعد ، ليقضى الله ، أو مؤخرا للحصر هكذا ليقضى الله ( أمْراً ) هو نصر أوليائه على أعدائه ( كانَ مَفْعُولا ) حقيقا بأن يفعل ، أو مكتوبا فى اللوح المحفوظ ، أو مقضيا فى الأزل أن يفعل دبر ذلك ، أو جمع بينكم على هذه الحال من غير تواعد .

( ليَهْلِكَ ) بدل اشتمال من ليقضى أو متعلق بمفعولا ، أو ينقضى ، وقرأ الأعمش بفتح لام يهلك ، ورواها عصمت عن أبى بكر عن عاصم ( مَنْ هَلَكَ عَنْ بيِّنةٍ ) عاينها واضحة لا تخالجه شبهة فلا تبقى له حجة ولا معذرة عند ربه ( ويَحْيا مَنْ حَىَّ عَنْ بيِّنةٍ ) بالفك عند نافع ، وأبى بكر ، ويعقوب ، وابن كثير فى رواية البزى ، قال سيبويه : أتانا بهذه اللغة يونس ، قال الفراء : وهى حسنة ، ووجهها الحمل على المضارع فإنه لا إدغام فيه ، لأن الياء الثانية فيه تقلب ألفا ، فاجتماع المثلين فى الماضى كالعارض لعدمه فى المضارع والأمر ، والعارض لا يعتد به غالبا ، وقرأ الباقون حى بالإدغام نظرا إلى أنهما مثلان فى كلمة حركة ثانيهما لازمة ، وكلاهما فصيح ، والفك أكثر فى كلامهم ، قاله الشيخ خالد .

وظاهر تمثيل ابن هشام أيضا اختيار الفك ، والمراد بالهلاك حقيقة الموت ، وبالحيات ضده ، والمعنى ليهلك من شارف الهلاك ، فإن الإنسان ولو كان عمره طويلا مشارف للموت ، أو ليكون هلاكه هلاكا عن بينة ، أو يهلك عن بينة من كان فى علم الله أنه يهلك كذلك ، وليحيا من شارف الحياة ، فإن الإنسان فى كل حال مشارف للحياة التى بعد حاله مالم ينقض أجله ، أو من حيى بعد الخروج عن أمه ، وبعد البلوغ ، ولو لم يحضر وقعة بدر ، فإن وقعته آية واضحة من كفر بها كان مكابرا لعقله ، ومغالطا له ، ولا سيما من حضرها ، أو لتكون حياته حياة عن بينة ، أو ليحيا عن بينة ، من كان فى علم الله أنه يحيا عنها .

وقال ابن إسحاق : الهلاك والحياة ستعاران للكفر والإيمان ، وفيه الأوجه السابقة من المشارقة وما بعدها ، وزعم شيخ الإسلام أن تلك الأوجه مختصة بقول ابن إسحاق ، ويقرب منه قول قتادة ، إن المراد الضلال والاهتداء وإنما تعدى الهلاك بعن لأنـــه فوات وخروج عن

الإيمان بالضلال ، أو بالموت ، أو لتضمنه معنى صدور الهلاك عن كذا ، وتعدى يحيا بعن لتضمنه معنى صدور الحياة عن بينة ، ومسمى النكرتين واحد على خلاف الغالب كقوله : « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » والتنكير فيهما للتعظيم ( وإنَّ الله لَسَمِيعٌ ) بقول من كفروا ، وقول من آمنوا ( عَلِيمٌ ) باعتقادهم وسائر أحوالهم يثيب على الخير ، ويعاقب على الشر ، أو يدبر أموركم ومصالحكم معشر المؤمنين .

( إذْ ) مفعول لاذكر محذوفا كما قال المهدوى ، أو بدل من إذ قبلها ، أو من يوم الفرقان ، أو يوم التقى الجمعان ، أو متعلق بعليم أى يعلم المصالح إذ ( يُرِيكَهُمُ الله فى مَنَامِكَ قَلِيلاً ) من يقول الرؤيا الحلمية تتعدى إلى اثنين أصلهما المبتدأ والخبر ، فهى عنده هنا متعدية إلى ثلاثة بالهمزة ، فإن يرى مضارع أرى ، فالكاف مفعول أول فضلة فاعل للرؤيا فى المعنى ، والهاء مفعول ثان مبتدأ فى الأصل ، والميم علامة ، وقليلا مفعول ثالث خبر فى الأصل ، ومن يقول متعدية إلى واحد فهى عنده متعدية لاثنين بالهمزة ، وقليلا حال ، والمنام مصدر ميمى بمعنى النوم ، أو اسم زمان .

وذلك أن الله سبحانه أرى النبى صلى الله عليه وسلم المشركين فى منامه قليلا ، فأخبر أصحابه فقالوا : رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم حق فزال خوفهم ، فاجترءوا على العدو وثبتوا ، وحرصوا على اللقاء ، والقلة التى رآها فى المنام بمعنى ضعف حالهم ، وعدم ثباتهم للمؤمنين ، كما تقول فى الشىء الكثير إنه قليل نظرا إلى قلة ثمنه أو منفعته ، أو القلة قلة عدد ، فيكون تأويل رؤياها الانهزام .

وعن الحسن : المنام موضع النوم وهو العينان ، كما قيل للقطيفة :

المنامة ، لأنه ينام فيها ، وعليه النقاش ، وحكاه عن المازنى ، قال بعضهم : وعليه فالرؤية فى اليقظة ، قال جار الله إن هذا التفسير المذكور عن الحسن فيه تعسف ، وما أحسب الرواية فيه صحيحة ، عنه وما تلاءم علمه بكلام العرب وفصاحته ، وذلك لأنه خلاف الظاهر والمتبادر ، والتكرره فى وإذ يريكموهم الخ ، لأنه صلى الله عليه وسلم مخاطب فيه أيضا .

( ولَوْ أراكَهم كَثيراً ) وأخبرتهم ( لَفشِلْتم ) جبنتم عن لقائهم وضعفتم ، والفشل الضعف عن الشىء بعد الشروع فيه ، أو بعد العزم على التلبس به ( ولَتَنازعْتم ) اختلفتم ( فى الأمْر ) أمر القتال ، فبعض يدعو إلى الإقدام ، وبعض إلى الإحجام ، مثل من تجابذوا شيئا كل ينزعه عن الآخر .

( ولكنَّ اللهَ ) وقرأت فرقة بتخفيف النون مكسورة ، ورفع اسم الجلالة ( سَلَّم ) سلمكم من التنازع والفشل المستلزمين للهزيمة ، أو من الهزيمة لعدم ما يوجب الفشل والتنازع ، وذلك كله نعمة توجب الشكر ( إنَّه عَليمٌ بذاتِ الصُّدورِ ) بالخصلة التى هى صاحبة الصدور ، وهى ما يكون فى الصدور من جراءة وجبن ، وصبر وجزع ، وكفر وإيمان ، وحب الله وغير ذلك ، فيجازى على ذلك ، أو ذات الصدور نفس الصدور ، أى عليم بالصدور نفسها ، فيكون كناية عن علم ما فيها مما ذكره .

( وإذ يُرِكُمُوهُم ) الرؤية بصرية فى غير المنام باتفاق هنا ، متعدية لاثنين بالهمزة ، الأول الكاف والميم علامة ، والواو تقوية ، والثانى الهاء ( إذ التَقَيْتُم فى أعْينكُم ) متعلقان بيرى ( قَليلاً ) حال من الهاء والتاء فى التقيتم للمؤمنين والمشركين ، تغليبا للمخاطبين وهم

المؤمنون ، أو خطابا للكل تنزيلا للمشركين منزلة من حضر مع المؤمنين فى وقت نزول هذه الآية ، أو التاء للمؤمنين فقط ، فالتقدير إذا التقيتم مع المشركين أراهم الله المشركين قليلا ، حين تصافوا للقتال زيادة للتثبيت ، وما الخبر كالعيان ، وتصديقا للرؤيا بأن ستر الله عنهم أكثر المشركين بسائر ، أو يحدث فى أعينهم ما يستقلون به الكثير كما يحدث فى أعين الحول ما ترون به الواحد اثنين .

قيل لبعض الحول : إن الأحول يرى الواحد اثنين ، وكان بين يديه ديك واحد ويراه اثنين ، فقال : مالى لا أرى هذين الديكين أربعا ، وتقليل الكثير ، وتكثير القليل ممكنان فى قدرة الله بما شاء ، قال ابن مسعود : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم سبعين ، قال أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا : كم كنتم ؟ فقال ألفا ذكره جار الله ، ولا يرد على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن القوم ما بين التسعمائة إلى الألف » لأن ابن مسعود رضى الله عنه ومن جرى مجراه لم يعلموا بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو علموا بها وصدقوا بها ، وتوهموا أن الأكثر لم يحضروا هناك ، بل تأخروا ، أو رأوا أن مقالته لم يقلها على طريق الجزم ، بل قالها مستندة إلى قول المشرك إنهم ينحرون يوما عشرا ويوما تسعا ، فتوهموا كذب المشرك ، أو تيقنوا أنهم كما قال ، وأنهم حاضرون كلهم ، وأنهم فى ذلك العدد الذى رأوا سبعين أو مائة تسليما لقول النبى ، وأمر الله ، وأجيز أن تكون القلة فى الآية بمعنى ضعف حالهم ، وعدم ثباتهم للمؤمنين وهو خلاف ما مر عن ابن مسعود .

( ويُقَلِّلُكُم فى أعيُنِهِم ) ليجترءوا عليكم ، ولا يبالوا بكم ، وتسكن قلوبهم إلى أنهم غالبوكم ، فلا يستعدون ، ذلك بعد أن رأوهم ،

وقبل أن تتصافوا للقتال ، أو بعد التصاف ، وقبل الشروع فى القتال ، أو المراد بالأعين أعين قلوبهم ، أعنى ما تعتقده قلوبهم ، فإذا تصاففتم أو شرعتم فى القتال ، أو رأوكم فاجأتهم كثرة لم يسعدوا لها ، وشدة سكنوا إلى غيرها فبهتوا وقلت شوكتهم إذ رأوا ما لم يحتسبوا ، وسيأتى فى السورة أنهم رأوهم مثلهم ، فبذلك تزيد الحجة عليهم قوة ، وتزيدون فى الإيمان قوة .

قيل لأبى جهل : انصرفوا فقد نجت العير ، فقال : الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم ، وإنما هم أكلة جزور أى ناقة ، والأكلة بفتح الهمزة والكاف جمع آكل كطالب وطلبة ، يعنى أنهم قليل قدر ما تشبعهم ناقة منحورة ، ثم قال : فلا تقتلوهم واربطوهم فى الحبال .

( ليَقْضى الله أمْراً كانَ مفْعُولا ) ذكر هنالك تعليلا لجمعهم على الحالة السابقة هنالك وهنا ، تعليلا للتقليل فى أعينهم والإراءة ، فإنه تنازع فيه يركموهم ويقللكم ، أو ذكر هنالك مرادا بالأمر فيه نصر المؤمنين ، وهنا إعزاز الإسلام ، والماصدق واحد ، أو مرادا بالأمر هنالك التقاءهم على الحالة السابقة ، وهنا إعزاز الإسلام ونصر أهله ، وقيل : المراد واحد ، والتكرير للتأكيد ، ورجحه بعضهم .

( وإلَى الله تُرجَعُ الأمورُ ) فى الآخرة فيجازى عليها ، ويعاقب ، وقرأ الحسن ، وعيسى بن عمر ، والأعمش بفتح التاء وكسر الجيم من رجع اللازم ، وأما قراءة نافع بالبناء للمفعول فمن المتعدى ، أو من أرجع بإدخال همزة المتعدية على رجع اللازم .

( يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إذا لَقيتُم فئةً ) إى إذا حاربتم جماعة

من الكفار ، فإن اللقاء اسم غالب للقتال ، وما كان المؤمنون يحاربون إلا الكفار ، والفئة من الأسماء التى حذف لامها وعوض عنه التاء التى تبدل فى الوقف هاء ، والأصل فئوة من فاوت بمعنى جمعت ( فاثْبتُوا ) لقتالهم ، ولا تحدثوا أنفسكم بالفرار ، ومن الثبوت التحريف للقتال ، والتحيز إلى فئة ، فيه ، فليس هذا نسخا للتحرف والتحيز ، بل تقرير لهما ، لأن بهما التمكن من القتال .

( واذْكُرُوا اللهَ كَثيراً ) فى لقاء عدوكم بقلوبكم وألسنتكم ، مثل أن يقول : لا إله إلا الله ، أو سبحان الله ، أو يقرءوا القرآن ، وفى ذلك استظهار على العدو ، وموت على ذكر الله لمن مات ، ولذلك أمروا بالذكر ، وهكذا فى الأحوال الشديدة ، وقيل : إن ذلك تنبيه على أنه لا يجوز خلو القلب واللسان عن الذكر ، ولا يرفع الصوت بالذكر ولا بغيره فى القتال ، لأنه ربما ذهبت فيه قوة الإنسان ، وربما ظن العدو به دهشا ، ولا سيما إذا كان ألفاظا إلا إن كان من الجميع عند الجملة ، فإنه كاسر لعضد العـــدو .

وكان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يكرهون الصوت عند قراءة القرآن والجنازة والقتال ، قال ابن عباس : يكره التلثم عند القتال ، ولذا تسنن المرابطون بثغور الاندلس وغيره بطرحه مع حبهم له ، وقيل : المراد بذكر الله الدعاء بالنصر ، وقيل ذلك كله ، وفى الحديث عــن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا إجابة الدعاء عند القتال ، وإقامة الصلاة ، ونزول الغيث » وذكروا أيضا ذلك بين الأذان والإقامة ، وفى السحر وغير ذلك ( لعلَّكم تفْلحُونَ ) ترج مصروف إلى المؤمنين وأو تعليل .

( وأطِيعُوا اللهَ ورسولَه ) فى أمر القتال وغيره ( ولا تَنازعُوا )

الأصل تتنازعوا ، حذفت إحدى التاءين ، وقرىء بإثباتهما مع إدغام الأولى فى الثانية اعتمادا على لا قبلها ، والتنازع باختلاف الآراء كما فعلوا بأحد وببدر قبله .

( فَتَفْشَلُوا ) منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد فاء السببية الواقعة فى وجوب النهى ، ولذا عطف عليه بالنصب فى قوله : ( وتَذْهبَ ريحُكُم ) وقرأ هبيرة عن حفص ، عن عاصم بالجزم فى تذهب ، فيكون تفشلوا معطوفا على تنازعوا ، وتذهب معطوفا عليه ، فكلاهما مجزوم ، وكذا قرأ عيسى بن عمرو بالجزم ، لكنه قرأ بالمثنات تحت ، لأن الريح يذكر ويؤنث ، بل تحتمل هذه القراءة التأنيث أيضا كما يقال : طلع الشمس ، وقرأ أبو حيوة بالنصب والمثناة تحت ، ورواه إبان وعصمت عن عاصم ويجوز فى النصب مطلقا أن يكون على أن الواو واو الجمع التى ينصب المضار بعدها ، وفى الجزم مطلقا أن يكون عطفا على تنازعوا ، كأنه قيل : ولا تذهب ريحكم على حد لا أرينك هاهنا ، والجمهور على أن الريح مستعارة للدولة أو النصر ، والقوة استعارة تصريحية أصلية تحقيقية ، فإن الدولة فى تمشى أمرها ونفاذه كالريح هبوبها ونفوذها ، فجعلت الدولة من جنس الريح على طريق مبالغة العرب ، وادعائها ، فأطلق عليها لفظ الريح ، يقال : هبت ريح فلان ، والريح لفلان ، إذ دالت له الدولة ونفذ أمره .

قال الشاعر :

أتنتظـــران قليـــلا ريث غفلتهم

أم تعدوان فإن الريح للعـــادى

وقال عبيدة بن الأبرص :

كما حميناك يوم النعب من شطب
والفضل للقوم من ريح ومن عدد

وقال الشاعر الأنصارى :

قد عودتهم ظباهم أن تكون لهم
ريح القتال وأسلاب الذين لقوا

وقال الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها
فإن لكل عاصفة سكونا

وعن زيد بن على : ريحكم رعبكم الذى فى قلوب أعدائكم ، يذهب بأمر الله من قلوب العدو إذا تنازعوا ، ولو لم يعلم العدو بالتنازع ، وقيل : إن علم وإلا فالذاهب قوة المتنازعين ، وقد فسر مجاهد الريح بالنصر والقوة ، وقد ذهبت ريح أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أحد ، وفسره السدى بالجراءة والجد ، ومقاتل بالجدة ، وابن زيد وقتادة بالريح الحقيق ، فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثها الله ، يضرب بها وجوه العدو ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالصباء وأهلكت عاد بالدبور » .

قال بعضهم : فالريح فى الآية الصبا إذ بها نصر محمد وأمته ، وقيل : هذا فى غزوة الخندق خاصة ، والمشهور العموم ، وقد خرج أبو داود

عن النعمان بن مقرن أنه قال : شاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح ، وينزل النصر ، قال أبو حاتم فى كتابه ، عن إبراهيم : فتفشلوا بكسر الشين وهذا غير معروف •

( واصْبِرُوا ) فى اللقى ( إن الله مع الصابرين ) بالحفظ والنصر ، قال جابر بن عبد الله ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإن جاءوكم يزحفون ويصيحون ويبرقون فالزموا الأرض جلوسا ، واعلموا أن الجنة تحت الأبارقة » ذكره الشيخ ، وذكره البخارى ومسلم ، عن عبد الله بن أبى أوفى هكذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أيامه التى أفنى فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم وقال : « أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال : « اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » انتهى أو هكذا ينبغى أن يكون المسلم فى ولاية الإمارة والقضاء ، لا يتمنى ولا يطلب ، فإن امتحن صبر على إقامة الحق •

( ولا تكُونوا كالّذينَ خرجُوا من دِيارِهم ) وهم أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير ( بَطراً ) فخرا وكفرانا للنعمة بصرفها فى غير محلها ( ورِئاءَ النّاسِ ) الرئاء فعال كقتال من الرؤية فهو بالهمزة بعد الراء ، لأن عين راء همزة والألف بعدها زائدة ، والهمزة الآخرة بدل من الباء التى هى لام الكلمة ، وقد تسهل الهمزة الأولى إلى الباء ، أظهروا شجاعتهم وسماحتهم للناس ليثبتوا عليهم وهو شرك صغير ، وقيل : نفاق ، وترك العمل لأجل الناس شرك ، وحقيقة النفاق فى عرف فقهائنا عمل

الموحد الكبيرة سرا أو جهرا غير كبيرة الشرك ، ويطلق أيضا على أسرار الشرك ، وإظهار التوحيد ، هذا تحقيق المقام ٠

نهى الله المؤمنين أن يكون خروجهم إلا شكرا وتواضعا لله ، وإخلاصا له عكس هؤلاء الكفار فى خروجهم ، وزادوا أيضا بطرا ورياء حين بلغوا الجحفة ، أرسل إليهم أبو سفيان : ارجعوا فقد نجت عيركم ورجالكم ، فقال أبو جهل : لا والله حتى نرد بدرا ونشرب الخمور ، وتعزف أى تغنى وتضرب الدفوف القينات ، أى الإماء ، ونطعم من حضر من العرب ، وتسمع بنا العرب ، فلا تزال تهابنا ٠

وذكر الشيخ هود : أن إبليس آتاهم فى صورة سراقة بن مالك ، فقال : يا قوم لا ترجعوا حتى تستأصلوهم ، وإنى جار لكم من كنانة أن يأتيكم من كنانة ما تكرهون ، والمشهور أن هذا حين الخروج من مكة لا فى الجحفة ، ولعله قاله أيضا فى الجحفة لئلا يستعجل الرجوع مخافة من كنانة ، وتفسير بعضهم البطر فى الآية والرياء بما قالوا وبما فعلوا فى الجحفة ، لا يصح إلا على قول من لم يشترط فى المفعول لأجله اتحاد زمانه وزمان عامله ، فإن بطرا ورياء مفعول لأجلهما ، والثانى بواسطة العطف ، أو على جعلهما حالين مقدرتين على طريق المبالغة ، بأنهم نفس البطر والرياء ، أو على تقدير ذوى بطر ورياء ، أو بطرين ومرائين ، لكن على أن التقدير فى الحال المقدرة يجوز من غير صاحبها ، ولم يجوزه ابن هشام ٠

قال جار الله : فوافوهـا يعنى بدرا ، فسقوا كأس المنايا مكـان الخمور ، وناحت عليهم النوائح مكان القينات ٠ انتهى ، ولله در ابن جابر الأندلسى إذ قال :

بدا يوم بدر وهو كالبدر حَوله
كواكبُ فى أفْق المواكب تنجلى

وجبريلُ فى جُند الملائك دونه
فلم تغْنِ أعداد العدو المخذلى

رمى بالحصى فى أوجه القوم رميةً
فشرّدهم مثل النعام المجفّل

وجادلهم بالمشرفىّ فسلّموا
فجادله بالنّفس كل مجدل

عبيدةُ سل عنْهم وحمزة واستَمع
حديثهم فى ذلك اليوم من علَى

هم عتبُوا بالسّيف عتبة إذ غدا
فذاقَ الوليدُ الموتَ ليس له ولى

وشيبةُ لما شابَ خوفاً تبادرت
إليه العوالى بالخِضاب المعجّل

وجال أبو جَهْل فحقق جهله
غداة تردّى بالرّدى عن تذلل

فأضحى قليباً فى القليب وقومه
يؤمّونه فيها إلى شر منهل

وجاءهُم خير الأنام مُوبخاً
ففتَّح من أسماعهم كل مقفل

وأخبر ما أنتم بأسْمع منْهم
ولكنَّهم لا يهتَدون لمقْول

سلُوا عنْهم يومَ السَّلا إذ تضاحكوا
فعادَ بكاءً عاجلا لم يؤجَّل

ألم يعلَموا علم اليقين بصدْقه
ولكنَّهم لا يرجِعُون لمعقل

فيا خيْرَ خلَق الله جاهكَ ملْجئ
وحبُّك ذُخْرى فى الحساب وموئلى

عليك صلاة يشْمَل الآل عرفها
وأصْحابك الأخيار أهل التفضُّل

( ويصدُّونَ ) يمنعون الناس ( عَنْ سبيلِ الله ) الجملة مستأنفة أو حال بتقدير المبتدأ أو بلا تقديره عند بعض أو معطوفة على بطرا أو رياء إذا جعلا حالين ، وأولى ببطرين ومرائين ، أو على خرجوا أو على بطرا أو رياء إذا جعلا مفعولا لأجلهما على حذف حرف المصدر ، ورفع الفعل ، والأصل وإن يصدوا أى وصدا لكن هذا يصح على عدم شرط اتحاد الزمان ، أو يكون الصد فى خروجهم نفسه ( واللهُ بما يعْملُون مُحيط ) لا يخفى عليه شىء فهو معاقبهم عليه .

( وإذْ زيَّن لَهم الشَّيطانُ أعْمالَهم ) من معادات رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرها ، والتزيين بالوسوسة أو بالكلام بأن ظهر لهم ، وتكلم فى صورة إنسان ( وقالَ ) بلسانه ( لا غالبَ لكُم اليومَ ) يوم بدر على أن تصوره سراقة كان يوم بدر ، وهذا القول قاله يوم بدر ، أو أراد باليوم الزمان مطلقا الذى هو وقت إرادة الخروج من مكة وما بعده إلى وقت القتال ، على أنه تصور لهم بصورته حينئذ ، وقال هـذا القول حينئذ ، ولكم متعلق بمحذوف خبر لا ، واليوم متعلق به أيضا أو بلكم ، أو تعلق أحدهما باسم لا لكان شبيها بالمضاف فيقال لا غالبا ، وأجيز كون لكم لقتاله واليوم ظرف خبرى .

( مِنَ النَّاسِ ) لكثرة عُددكم وعددكم ( وإنّى جارٌ لكُم ) مانع أن يأتيكم كنانة بما تكرهون ، تقدم أنهم لما أرادوا الخروج لمنع العير ، ذكروا حروبا كانت بينهم وبين بكر بن وائل من كنانة ، حتى كادوا يتركون الخروج خوفا على أموالهم ونسائهم وذراريهم وضعفائهم ، فظهر لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جشعم الشاعر ، وكان من أشراف كنانة ، وهو من بكر بن وائل ، وهم من كنانة فقال لهم : إنى جار لكم من أن يأتوا من خلفكم بما تكرهون ، وزاد بعضهم أنه قال : لا تمرون بحى من كنانة إلا أمدوكم بالخيل والرجال والسلاح ، وذلك قول الجمهور فى الآية .

وقال ابن عباس فيها : إنه جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين معه راية فى صورة سراقة فقال لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، أى ناصر ومصاحب وزين لهم أن جند الشياطين جند من كنانة ، وأن من بقى منهم لا يأتيكم بسوء ، ولما رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبضة انهزم المشركون ، وأقل جبريل إلى إبليس لعنه الله

وكان فى صف المشركين ، يده فى يدى الحارث بن هشام ، انتزع يده منه ثم ولى مدبرا ، وقيل : فعل ذلك لما رأى الملائكة تنزل ، وأن الحارث قال له : أفراراً من غير قتال ، وقيل قال له : اتخذ لنا فى هذه الحال ، فجعل الحارث يمسكه فما أطلقه حتى ضربه فى صدره فوقع فانطلق منهزما مع جندم من الشياطين ، وتصوره تخييل لا تغيير للحقيقة ، لأنه لا قادر على ذلكم إلا الله .

وقال غير الجمهور : إن تزين الشيطان لهم بالوسوسة ، وكذا القول ، قال لهم فى صدورهم : إنكم على الحق أو إن اتباعكم إياى فيما تفعلون من القربات مجير لكم من أن يغلبكم محمد وأصحابه حتى قالوا : إنهم أهدى الفئتين ، ودينهم أفضل الدينين كما مر ، وبذلك قال الحسن ، ولا إشكال فى إمكان وسوسته بذلك ، فبطل قول بعضهم إنه لا يمكن أن يوسوس بقوله : « إنى جار لكم » .

( فلمَّا تَرَاءتِ الفِئتانِ ) فئة الإسلام وفئة الكفر ، أى رأت كل منهما الأخرى والتقتا للقتال ، وتراءت تفاعلت لكن حذفت لام الكلمة وهى الياء المبدلة ألفا ، والأصل تراءت بألف بعد الهمزة أيضا حذفت لسكون التاء الأصيل ولم يعتد بكسرتها لعروضها للساكن ، وقرأ الأعمش ، وعيسى بن عمر : ترد بإسقاط الألف قبل الهمزة أيضا ، وحكى أبو حاتم ، عن الأعمش أنه أمال ورقق الراء ، ثم رجع عن ذلك .

( نَكَصَ ) رجع من حيث جاء فقوله : ( عَلَى عَقِبيْهِ ) تأكيد لنكوصه زيادة لذمه ، وقيل : نكص بمعنى رجع على عقبيه أو غيرهما ، فقوله : « على عقبيه » بيان لكون الرجوع من حيث جاء ، وقيل : معنى

تكون صه على عقبيه الانهزام والإحجام ، وليس المراد أنه رجع إلى عقبيه ، واختار بعض واستبعد القولين قبله ، وقيل : معناه أنه صار ما خيل لهم أنه مجيرهم سببا لهلاكهم ، ثم أعلم أنه إذا بنينا على قول الجمهور أن القول باللسان فى مكة فقد تبعهم أيضا فى صورة سراقة حتى تراءت الفئتان ، انتزع يده فهرب ، وكانت الهزيمة ، ولما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقة بن مالك ، فبلغ ذلك سراقة ، فأتى مكة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم ، فقالوا أما أتيتنا يوم كذا فى مكان كذا ؟ وقلت كذا وفعلت كذا ؟ فحلف بالله ما رأيتكم وما كنت معكم ، ولما أسلموا علموا أنه الشيطان .

( وقَالَ إنِّى بَرِىءٌ منْكُمْ ) أتخلص منكم لا يصيبنى ما يصيبكم ، وهذه المقالة أيضا فى الظاهر بلسانه يسمعونها ، أو تمثيل بحاله وعدم إغنائه عنهم شيئا ( إنِّى أرَى مَا لا تَرَوْنَ ) رأى جبريل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم معتجرا ببرد يمشى ، وفى يده اللجام يقود الفرس ، ورأى الملائكة ، ورأى جبريل قاصدا له ، وسكن غير نافع ، وابن كثير هذه الياء ، والياء فى قوله : ( إنِّى أخَافُ اللهَ ) أن يعذبنى بعذاب ، أو يصيبنى بمكروه ، ولم يخف الموت على أنه عالم بأن الأجل المنظر هو إليه يوم القيامة كما قال الحسن ، واختاره ابن بحر ، وخاف أن يميته فيكون ذلك الوقت هو الوقت المنظر إليه ، على أنه غير عالم بأن أجله يوم القيامة ، وعلى كل حال فليس المعنى أنى أتقى الله .

وقال الكلبى : إنه أراد أنى أتقى الله ، قال : وهو كاذب ، وقيل : لما رأى نزول الملائكة خاف قيام الساعة ، وقيل خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطيعوه ، وهكذا عادة عدو الله إبليس لعنه الله ، أن يخذل أولياءه ويتبرأ منهم إذا رأى الحق غالبا .

قال ابن إسحاق : ذكرني أنهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقة لا ينكرونه ، حتى إذا كان يوم بدر ، والتقى الجمعان نكص على عقبيه ، فقال له الحارث بن هشام ، أو عمير بن وهب : أين أي سراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ قال حسان :

قَومى الذين هم آوَوْا نبيَّهم
وقدَّموه وأهلُ الأرض كفَّارُ

إلا خَصَائص أقواهم هم سلَفُوا
للصَّالحين مع الأنصار أنصارُ

مسْتبشرينَ بقسم الله قَولَهم
لما أتاهم كريم الأصل مختارُ

أهلاً وسهلاً ففى أمن وفى سعةٍ
نعم النبىُّ ونعم القسم الجارُ

فأنزلوهُ بدارٍ لا يخافُ بها
منَ كان جارهُم جاراً هى الدارُ

وقاسَمُوهم بها الأموال إذ قَدمُوا
مُهاجرين وقسم الجاحد النارُ

سِرنا وساروا إلى بدرٍ لحينهم
لَوْ يعلمُون يقينَ العلم ما سارُ

دَلاَّهم بغـرورٍ ثـم أسـْلمهم
إنَّ الخبيث لمـن ولاه غـَرَّارُ

وقالَ إنى لكم جـارٌ فاوْردهم
شَرَ الموارد فيـه الخزىُ والعارُ

ثـم ألتقينـا فولَّوا عَن سُراتهم
من منْجدِين وفيهم فرقة غـارُ

وفى الحديث : « ما رُئىَ إبليس يوما فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة لما رأى مـن نزول الرحمة ومحـو الذنوب العظام إلا ما رئى يوم بدر فإنه رأى جبريل يزع الملائكة أى يحبسهم لئلا يتقدم بعض عن بعض فى الصف » وفى رواية : « إلا ما رأى يوم قيل : يا رسول الله وما رأى ؟ قال : « رأى الملائكة يزعها جبريل » .

( واللهُ شَدِيدُ العقابِ ) من قول ابن إبليس ، ويجوز أن يكون من كلام الله مستأنفا .

( إذْ يقـُولُ المنافِقـُون ) بدل من إذ قبلها ، أو متعلق بنكص ، أو زين ، والمنافقون إنما هم مـن أهل المدينة ( والَّذينَ فى قـُلوبـُهم مَرَضٌ ) شبهة وشك ، لم يخلص إيمانهم من أهل مكة ، أو منها ومن المدينة : وقيل : المرض الشرك فهم المشركون ، وقيل : هم المنافقون ، فيكون العطف لتغاير الوصفين .

( غَرَّ هؤلاءِ ) أى المسلمين ( دِينـُهمْ ) الإسلام بأن حملهم على

قتل أنفسهم رجاء للثواب ، قالوا ذلك لما رأوا قلة المؤمنين ، وكثرة الكافرين ، وقتلوا جميعا يوم بدر ، قال بعضهم : الذين فى قلوبهم مرض ناس تكلموا بالإسلام فى مكة ، ولم يرسخ فيهم ، شاهدوا بدراً ، قال الكلبى : لم يخلف المشركون بعدهم أحدا قد احتلم فنفر معهم ناس أجابوا إلى الإسلام ، وتكلموا به .

قال الشعبى : منهم من أكره ، ومنهم من داهنَ ، فلما رأوا قلة المؤمنين ارتابوا ونافقوا وقاتلوا مع المشركين ، وقالوا : غر هؤلاء دينهم ، وكذا قال مجاهد ، وبين أنهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، والعاصى بن منبه بن الحجاج ، وعلى بن أمية بن خلف ، والحارث بن زمعة بن الأسود ابن عبد المطلب ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، قال عياض : ولم يذكر أحدا ممن شهد بدرا ، وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش فى قوة عظيمة قالوا ذلك ، انتهى .

قلت : هذا ما جزمت به فى تفسير الآية كما رأيت ، والحمد لله على موافقة عالم وتعبيره بالاحتمال ، يدل على أن الراجح أن المنافقين من أهل مكة ، وقد قيل بذلك بأن لم يسم من لم يرسخ إيمانه منافقا .

( ومَنْ يتوكّلْ علَى اللهِ ) جوابه محذوف ، أى فإن الله حافظه وناصره ، دل عليه قوله : ( فإنَّ اللهَ عزيزٌ ) لا يغلبه أحد فلا يذل من استجار به ( حكيمٌ ) فيعاقب ويثبت ويفعل ما يستبعده العقل ، ومن قال : خبر اسم الشرط جملة الشرط أجاز كون « فإن الله عزيز حكيم » جوابا لكن الصحيح التزام عود الضمير من الجواب ، والأظهر هنا والكلام كله جواب لقول المنافقين .

( ولوْ تَرَى ) يا محمد أو كل من يصلح للرؤية ، والظاهر الأول ( إذْ ) متعلق بترى ، والمضارع بعد لو الشرطية بمعنى الماضى ، وقال السعد : ليس المعنى على حقيقة المضى ( يتَوفَّى الَّذينَ كفَرُوا ) مفعول يتوفى الذين ، ومفعول ترى محذوف ، أى ولو ترى الذين كفروا ، أو حال الذين كفروا ، ولحذفه أتى بمفعول يتوفى ظاهرا لا ضميرا ، ويجوز أن يكون الذين مفعولا لترى ، ومفعول يتوفى ضمير محذوف ، أى يتوفاهم ، ويجوز أن يكون ذلك من باب التنازع .

( الملائِكَةُ ) فاعل يتوفى ، والجمع من حيث إن لملك الموت أعوانا ، أو لأن الكلام فى قتال بدر ، ومن ضرب أحدا ضربا يموت به صح أنه قتله ، ولو كان القابض الله ( يضْرِبُون وجُوهَهم وأدْبارهُم ) حال من الملائكة ، أو من الذين ، أو منهما لاشتماله على ضميرهما ، ويجوز أن يكون فاعل يتوفى ضمير الله ، والملائكة مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة حال من الذين مربوطة بالضمير دون الواو الأولى ما مر من أن الفاعل الملائكة ، ويدل له قراءة ابن عامر ، والأعرج : تتوفى بالمثناة فوق ، وأن الغالب فى الجملة الاسمية الواقعة حال أن تقرن بالواو ، والمراد بالوجوه ظاهرها وبالأدبار الأستاه ، وخص الموضعان لأن الوجه أعز الأعضاء الظاهرة ، والدبر أصون شىء أن ينال ، فالضرب فيهما أشد خزيا ونكالا ، والله كريم فكنى عن الاستاه بالأدبار هذا هو الظاهر ، وبه قال مجاهد ، وابن عباس فى رواية .

وقال الحسن ، وابن عباس فى رواية : أراد بالوجوه ما أقبل منهم من وجه وصدر وبطن وغير ذلك ، وبالأدبار ما أدبر من دبر وظهر وغيرهما ، وبه قال ابن جريج ، ويجوز أن يراد بالوجه والدبر ظاهرهما ، ويكنى عن جميع الجسد بهما ، كما تقول : زيد بنام صباحا ومساء ، تريد وصفه

بكثرة النوم ، وأنه لا يحصره بوقت ، وذلك أن الملائكة يضربون الكفار عند الموت بسياط من نـــار ، وقيل ذلك يوم بدر يضربون وجوههم إذا أقبلوا ، وأدبارهم إذا أدبروا بالسيوف ، وبه قال ابن عباس .

قال الحسن : إن رجلا قال : يا رسول الله رأيت فى ظهر أبى جهل مثل الشراك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك ضرب الملائكة » وقيل : إن الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم بعد ما يصرعون بالقتال يوم بدر ، وجواب لو محذوف تفظيعا للأمر وتهويله ، أى لرأيت أمرا فظيعا منكرا ، ويجوز تقديره بعد الحريق أو بعد العبيد .

( وذُوقُوا عَذابَ الحَرِيقِ ) مفعول لقول محذوف معطوف على يضربون ، أى ويقولون ذوقوا ، وهذا يوم القيامة عند الحسن ، فالمراد بالملائكة ملائكة التوفى والزبانية ، فملائكة التوفى تضرب الوجوه والأدبار عند التوفى ، والملائكة الزبانية تقول : ذوقوا عذاب الحريق ، فيجوز تقدير : وتقول الملائكة أو ملائكة العذاب : ذوقوا ، وقال ابن عباس ذلك بعد التوفى ، فالقائلون ملائكة التوفى ، وقيل ذلك عند التوفى والضرب ، كانت لهم مقامع من حديد محمية بالنار يضربونهم بها فيجرحونهم جروحا تلتهب نارا ، وقيل : الأصل وحالهم يوم القيامة أن يقال لهم ذوقوا ، والتعبير بالذوق بشارة على جهة التهكم ، فإن الذوق فى الأكل والشرب والحريق الحرق .

( ذَلكَ ) المذكور من الضرب والعقاب مبتدأ خبره ( بمَا ) بسبب ما ( قَدَّمت أيدِيكُم ) من الكفر والمعاصى ، وذلك من كــلام الملائكة فى أحد الأوقات المذكورة ، أو من كلام الله سبحانه ، والمراد بما كسبتم

بقلوبكم وجوارحكم ، وعبر عن ذلك باليد ، لأن غالب الأعمال فى الجملة بها ، أو المراد بالأيدى القوة .

( وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بظلاَّم للعَبِيدِ ) عطف على ما ، أى وبأن الله للدلالة على أن كون ما قدمت أيديهم سببا للضرب ، والعذاب إنما هو لكونه لا يظلم ، ولو كان يظلم حاشاه لأمكن أن يعذبهم وتضربهم ملائكته بغير ما قدمت أيديهم ، ولا يترتب على كونه يظلم حاشاه أن لا يعذبهم بما قدمت أيديهم ، ولا تضربهم ملائكته ، فإن ترك عقاب المسىء ليس ظلما شرعا ولا عقلا ، فضلا عن أن يكون نفى الظلم سببا للعقاب ، ولو كان ترك عقاب المسىء فى حق الله خروجا عن الحكمة ، والعدل ، فإن عقاب المسىء عدل ، كما أن إثابة المحسن عدل ، وثوابه وعقابه إنما هما على اختيار المكلف وتناوله ، لا على مجرد الخير والشر ، فإنه خالقهما والإلزام أن يكون يظلم حاشاه .

والمبالغة فى ظلام ترجع للنفى فيما يقال ، أو ظلام للنسب ، أى ليس بذى ظلم ، أو للمبالغة باعتبار كثرة العبيد ، أو باعتبار عظم الذنب من حيث إنه لولا الاستحقاق لكان المعذب بالعبيد الكثير ، أو المعذب بذلك العذاب العظيم بليغا فى الظلم ، ويصح أن يكون ذلك خبرا لمحذوف هكذا ، والحكم أن الله الخ .

( كَدَأْبِ آل فِرعَونَ ) أى دأب هؤلاء الذين كفروا بك يا محمد ، كدأب آل فرعون ( والَّذينَ مِنْ قَبْلهِم ) من قبل آل فرعون ، كقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وأجاز بعضهم تعليقه بقدمت ، والدأب العادة أو ما يدأب عليه يداوم ،

أو السنن والطريقة كما قال به جابر بن زيد رحمه الله ، والشعبى ، ومجاهد ، وعطاء ، والمصدق واحد ، وفسر الدأب بقوله :

( كَفرُوا ) أى آل فرعون والذين من قبلهم ( بآياتِ اللهِ ) داموا على الكفر بالآيات ، والكفر بها يستلزم أيضا الدوام على سائر المعاصى ، فكانت عادة كل قوم من هؤلاء الكفر والمعاصى ( فَأخَذَهُم اللهُ بذُنُوبهم ) فمن مفرق ، ومن مرجوف ، ومن مرجوم ، ومن ممسوخ وغير ذلك ، كما أخذ هؤلاء الذين كذبوا بك بوقعة بدر ، ولك أن تجعل العادة مجموع الكفر والأخذ فى مجموع الأمم ، وأن تجعلها الأخذ فيكون تقديم الكفر بيانا لما يترتب عليه العادة ، وهى الأخذ لا لأنه عادة أو بعض عادة ، فالتقدير على هذا كعادة الله فى آل فرعون ومن قبلهم ، وأضيفت العادة إليهم كما يضاف المصدر إلى ظرفه ومفعوله ، وعلى كل حال فالأخذ إنما يتصور عادة أو بعضها باعتبار وقوعه فى ذاك القوم ، وفى ذاك وفى ذاك وهكذا إلا فى الواحد ، لأن الواحد لهم أخذ واحد ، إلا إن يعتبر أحاد القوم .

( إنَّ اللهَ قوىٌ ) فى أخذه الكفار ( شَدِيدُ العِقابِ ) عليهم فلا أحد يقوى عليه ولا على رفعه .

( ذَلكَ ) الأخذ مبتدأ خبره ما بعده ، وقيل : عذابه ، عن سيبويه أنه خبر لمحذوف أى الحكم ذلك ( بأنَّ ) بسبب أن ( اللهَ لَمْ يكُ ) أصله يكون بإسكان الكاف وضم الواو والنون ، نقلت ضمة الواو لثقلها إلى الكاف ، وحذفت ضمة النون للجازم فكانت ساكنة ، فحذفت الواو الساكن بعدها ، ثم حذفت النون تخفيفا لشبهها بحرف العلة الذى يحذف

للجازم كما يخففون لم أبالى إلى لم أبل بإسكان اللام وحذف الألف قبلها .

( مُغيِّراً نِعْمَةً أنعمها عَلَى قَوْمٍ ) بإزالتها أو بإزالة معظمها أو بتبديلها بالنقمة ( حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بأنفُسِهِم ) ما فيهم من خير بشر ، أو من شر إلى ما هو أسوأ منه ، فهؤلاء وكفرة قريش كانوا قبل بعث الرسل مشركين عبدة أصنام ، ولما أرسل إليهم الرسل كذب كل قوم رسوله ، وما جاء به ، وسعوا فى قتله ، ولا شك أن التكذيب والسعى فى القتل زيادة فى الشر فحالهم فيها أسوأ من حالهم قبلها ، وكانت قريش لم توصف بقطع الرحم ، فلما جفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوا به .

وكان أهل سبأ فى نعمة عظيمة ، فبدلوا بها جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، والرسل من جملة النعم ، ولما لم تشكر قريش نعمة الرسالة نقلها الله إلى الأنصار بأن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليهم ، ولا يخفى أن سبب الأخذ هو تغيير الناس ما بأنفسهم كما هو المراد بالآية ، وليس سببه عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم كما هو ظاهر الآية ، ولا ما هو المفهوم من هذا الظاهر ، وهو جرى عادته على تغييره متى يغيروا حالهم كما زعم القاضى .

( وأنَّ اللهَ سميعٌ ) لا يخفى عليه قول من الأقوال ، فلا يخفى عليه أقوال مكذبى الرسل ( عَلِيمٌ ) بما يفعل الخلق وبما فى صدورهم ، فهو عليم بما يفعل المكذبون ، وبما فى صدورهم ، فهو يجازى كلا بما فعل ، والعطف على أن الله لم يك مغيراً .

( كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ) من طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم ( بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ) تكرير للتأكيد ، ولما يتعلق به من زيادة كفران النعم ، وجحود الحق ، فإن لفظ الرب مشعر بالتربية من حال إلى حال ، أو بالإنعام فإن السيد قائم بعبيده ، ومن بيان ما أخذ به آل فرعون ، وقيل : الأول لتشبيه الكفر بالكفر ، والأخذ بالكفر ، والثانى لتشبيه التغيير فى النعمة بسبب تغيير ما بأنفسهم ، حتى إن بعضا علق هذه الكاف بيغيروا .

( وكلٌّ ) من الفرق المهلكة على الاطلاق وقال جار الله : كل من غرقى القبط وقتلى قريش ( كانُوا ظَالِمِينَ ) أنفسهم وغيرهم بالتكذيب وغيره من الكفر والمعاصى .

( إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ ) مثل ما مر ، وقيل : المراد بالدواب الناس ، وما مر أبلغ فى الذم ( الَّذِينَ كَفَرُوا ) أصروا على الكفر ورسخوا فيه كما يدل عليه قوله : ( فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ) بالعطف بالفاء دلالة على أن تحقيق الكفر يستدعى تحقق عدم الخروج عنه ، ومن عطف الاسمية على الفعلية وهم بنو قريظة .

( الَّذِينَ ) بدل بعض من الذين ( عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ) رابط الموصول محذوف ، أى عاهدتهم ، وأما الهاء فى منهم فرابطة للبدل عائدة على الذين الأول ومن للتبعيض ( ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ) عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قريظة أن لا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه عدوه ، ونقضوا بأن أعانوا مشركى مكة بالسلاح والدروع على قتاله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدهم ، فلما

اجتمعت الأحزاب عليه صلى الله عليه وسلم ظن قريظة أنه مغلوب مستأصل فأعانوا الأحزاب بالسلاح والدروع ، وركب كعب بن الأشرف ، لعنه الله إلى مكة فخالف قريشا عليه ، ولما انجلت الحال أمره الله بالخروج إليهم ، وضربت أعناقهم بحكم سعد بن معاذ ، كما يأتى إن شاء الله •

وفى متعلقة بعهدهم ، كأنه قيل : ينقضون العهد الذى عهدوه فى هذه المرة ، والذى عهدوه فى تلك المرة ، أو متعلقة بينقضون ، وتعلم من كون من للتبعيض أنها متعلقة بمحذوف حال من الذين الثانى ، أو من رابطة المحذوف ، وقول القاضى لتضمين المعاهدة معنى الأخذ يقتضى تعلقها بعاهدت ، وليس بمغن عن تقدير مفعول لعاهدت ، فالأولى ما ذكرته وفى الإبدال تلويح بأن رؤساء قريظة شر من مهائر قريظة التى هى شر الدواب ، ويجوز أن يراد بالذين الثانى ما أريد بالأول ، فيكون بدل كل ومن للبيان •

( وهُم لا يتّقونَ ) مستأنف أو حال من واو ينقضون ، والمراد لا يتقون عاقبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار ، أو لا يتقون الله فيه ، أو لا يتقون بضرة للمؤمنين وتسليطهم عليهم ، وهم لجمعهم بين الكفر والغدر من شر الدواب ، فإن من شأن من يرجع إلى عقل ولو بلا دين أن يتقى الغدر ليسكن الناس إلى كلامه •

( فإمّا ) إن الشرطية وما الزائدة بإدغام النون فى الميم ، ولذلك ساغ التأكيد فى قوله : ( تثْقِفنّهم ) تأسرهم وتحصلهم فى ثقافك ، وهو ما يشد به الأسير أو غـيره ، وقيل : تخطفنهم ، وقيل : تجدنهم وتظفرن بهم ( فى الحرْبِ فَشرِّدْ ) فرق عن محاربتك ونكل عنها وتفرد ( بِهِم ) بقتلهم والنكاية فيهم ( مَنْ ) بفتح الميم مفعول شرد ( خَلْفهم )

بفتح الفاء ، أى الذين وراءهم من الكفرة ، فإنه إذا فعل لهؤلاء الناقضين ما يسوء من القتل وغيره ، ففرق عنه جمع كل ناقضة للعهد ، وكل عدو من ورائهم من أهل مكة واليمن وخافوا ، أو المراد لمن خلفهم من يأتى خلفهم فى مثل طريقتهم من مكة أو اليمن أو غيرهما فى زمانهم ، أو بعده ، وهذا أولى .

قيل : التشريد التفريق على إزعاج ، وفسر ابن جبير التشريد بالإنذار ، وعن أبى عبيدة سمع بهم ، وذلك أنه إذا قتلهم وانتقم منهم كان ذلك إنذارا أو ابلاغا لمثلهم أن يفعلوا مثل فعلهم ، وإلا فليس فى اللغة شرد بمعنى أنذر أو سمع ، والذى فيها شرد به بمعنى سمع الناس بعيوبه ، وفى مصحف ابن مسعود شرذ بذال معجمة ، وبها قرأ الأعمش ، قال أبو الفتح : لم يمر بنا فى اللغة شرذ باعجام الذال ، وكأنها بدل من المهملة ، قال المرادى : وذلك شاذ ، وجزم به عن أبى الفتح ، والمعنى الجامع لها أنهما مجهوران متقاربان ، وقال جار الله ذلك على القلب المكانى الأصل شذر ، يقال شذر القوم تفرقوا ، وقرأ أبو حيوة من خلفهم بكسر ميم من والفاء ، وحكاها المهدوى عن الأعمش ، والمعنى واحد ، فإنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد فى الوراء .

( لعلَّهُم يذَّكَّرونَ ) يتعظون ، والضمير للناقضين المأمور بتشريدهم ، على أن التشريد بالأسر والسلب والإخراج من الأموال والديار ونحو ذلك ، وإن كان بالقتل فالمراد يتعظ باقيهم ومن معهم ، أو الضمير لمن خلفهم .

( وإمَّا ) مثل ما مر ( تخافَنَّ مِنْ قومٍ ) معاهدين ( خِيانةً )

فى العهد بامرأة تلوح كما فعلت قريظة والنضير ( فانْبِذْ ) اطرح ( إليهمْ ) عهدهم ( على سَوَاءٍ ) حال من ضمير انبذ على عدل ، وطريق قصد غير منكرة ، وذلك أن تخبرهم إخبارا مكشوفا بينا أنك قطعت ما بينك وبينهم ، ولا يعاجلهم بالحرب ، وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة .

( إنَّ الله لا يُحبُّ الخَائنينَ ) تعليل جملى مستأنف ، أو كلام مستأنف فى ذم ناقض للعهد غير تعليل كا قال مجاهد ، أراد قريظة ، ولو قطعت العهد بدون أن تخبرهم كان جوراً أو فعلا تنكرة العقول وخيانة ، وقيل : عنى على سواء : على استواء فى العلم ، بأن يعلموا بقطع العهد كما قطعته وعلمت به ، وقيل : على سواء فى الخوف ، بأن تلقى من القطع مثل ما لاحت لك أمارته من القطع ، وهو قول الفراء ، وقيل : على استواء فى العداوة .

وعلى هذه الأقوال الثلاثة يتعلق لمحذوف حال من ضمير نبذ ، أو من هاء إليهم ، أو منهما ، وقال الوليد بن مسلم : المعنى على مهل ، واللغة تأباه وعليه فهو حال من ضمير انبذ ، واقل كثير من المفسرين : الآية فى بنى قريظة ، وحكاه الطبرى عن مجاهد : وفيه أن أمر بنى قريظة تم فى الآية قبلها ، وأنهم بعد ذلك لم يكونوا فى حد من تخاف خيانته ، ولا عهد لهم ينبذ ، ويفهم اشتراط الخوف أنه لو ظهر النقض ظهورا مقطوعا به كما قاتل أهل مكة خزاعة ، وخزاعة فى ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن له حاجة إلى نبذ العهد إليهم ، كما لم يعلم أهل مكة بخروج النبى صلى الله عليه وسلم وجنوده حنئذ ، إلا وبينه وبينهم أربعة فراسخ .

وقال يحيى بن سلام ، والشيخ هود : يخاف هنا بمعنى تعلم ،

قال عياض : وليس كذلك وعن بعضهم إذ لم يتيقن بالنقض ، ونبذ إليهم فأنكروا النقض أتم لهم ولا بد ، وكان بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم وهو عبد الله بن سعد إذا أسر أسيرا لم يتصرف فيه حتى يقول للمسلمين معه : هل له عهد عند أحدكم ؟ فإن قال بعض : نعم أطلقه .

( ولا تَحْسَبَنَّ ) [ فى قراءة بالفوقية ] يا محمد ( الَّذينَ ) مفعول أول ( كفَرُوا ) وهم من نجا من المشركين يوم بدر ، وقيل : يوم بدر وغيره ، وبالأول قال الزهرى ، وقيل : الآية مزيحة لما يحذر به من بذ العهد وإيقاظ العدو ( سَبَقُوا ) مفعول ثان ، أى لا تحسبنهم ناجين فإنهم سيدركون كما قال ( إنَّهم لا يُعْجِزونَ ) تعليل جملى مستأنف ، وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة على التعليل الإفرادى ، أى لأنهم لا يعجزون ، والمعنى لا يفوتون الله ، أو لا يجعلوه عاجزا بأن يسبقوه أولا يجدونه عاجزا ، ويضعف جعل سبقوا حالا ، وأنهم لا يعجزون بالكسر مفعولا على زيادة لا ، فإن الأجل عدم الزيادة .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص يحسبن بالمثناة التحتية ، قال بعضهم : مع فتح السين ، والمشهور عنهم الكسر ، ففى يحسب ضمير يعود إلى أحد أى لا يحسبن أحد ، أو إلى الحاسب ، أو المؤمن ، أو الرسول ، أو إلى من فى قوله : « من خلفهم » وفى مفعوليه الوجهان المذكوران ، ويجوز كون الذين فاعل يحسب ، فيكون المفعول الأول محذوفا أى لا يحسبنهم الذين كفروا ، والهاء عائدة للذين ، لأنه فى نية التقديم ، والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ، ويجوز تقديره ظاهرا هكذا : لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ، وإنما حذف سواء كان ضميرا أو ظاهرا لأنه نفس الذين فى المعنى ، فاكتفى عنه بالذين ، والمفعول الثانى جملة سبقوا ، وجملة إنهم لا يعجزون بالكسر على زيادة لا وفيه

ضعف ، فيكون سبقوا حالا ، ويجوز أن يكون سبقوا سادا مسد مفعولين على تقدير إن المصدرية ، أى إن سبقوا وهو ضعيف ، لأن إن المصدرية كالموصول الاسمى فلا يحذف ، نعم أجاز بعض حذف الموصول الاسمى للدليل ، وبعض إن ذكر مثله .

وأما قول شيخ الإسلام أن إن المقدرة مخففة لا المصدرية فباطل ، لأن المخففة المفتوحة أيضا مصـدرية ، وكذا المفتوحة المشددة وأيضـا تقديرها مخففة بلا فصل بقد ضعيف ، وبالفصل بها زيادة فى التقدير ، ويجوز على ضعف أن يكون أنهم لا يعجزون بالفتح سادا مسد المفعولين على زيادة لا ، وفيه ضعف ، فيكون سبقوا حالا ، والأظهر أن قـوله : « إنهم لا يعجزون » تعليل كما مر للنهى ، كأنه قيل : لا يعجزون الله أو طالبهم ، وذلك أنهم يدركون فى الحرب بعد ذلك بالقتل ، أو بالأسر ، أو بهما ، ولهم النار بعد ذلك فلا يغيظنك فواتهم ، وقيل : المراد أنهم يدركون فى الآخرة .

وفى رواية عن عاصم : لا تحسبن بالفوقية المفتوحة وفتح السين ، وكذا قرأ الأعرج ، وقرأ مجاهد بكسر الفوقية والسين ، وهو رواية عن ابن كثير ، والمشهور عنه فتح الفوقية ، وقرأ الأعمش وابن مسعود فى رواية عنه ، ولا يحسب بفتح التحتية والسين والباء الموحدة على حذف النون المؤكدة الخفيفة ، لأنها تحذف قبل الساكن ، وعلى كل حال فمحل تحسب الجزم بلا ، وهو مبنى ، وزعم بعض أن المضارع الموكل بالنون الداخل عليه جازم معرب مقدر الجزم ، وقرأ ابن مسعود : أنهم سبقوا بفتح الهمزة وهى قراءة تقوى جعل سبقوا فى قراءة غيره بالتحتية سادا مسد مفعولين ، وقرأ بعضهم يعجزون بفتح العين وشد الجيم ، وقرأ

ابن محيصن بإسكان العين وكسر النون على أنها للوقاية ، والياء محذوفة ، أو نون الرفع كسرت للياء المحذوفة هى نون الوقاية .

( وأعِدُّوا ) هيئوا أيها المؤمنون ( لَهُمْ ) لناقضى العهد ، أو للذين سبقوا ، أو للكفار مطلقا ( ما اسْتَطَعتُم مِنْ قُوَّةٍ ) من كلّ ما يتقووا به على حربهم ، من سيف ورمح ، ونبل ودروع ، ودواب زاد ، وجوالق وغير ذلك ، فعطف ما بعده عليه عطف خاص على عام ، لشرف الخاص ، فإن الخيل من أشرف ما يتقوى به ، وأما ما رواه عقبة بن عامر ، من قوله صلى الله عليه وسلم عـلى المنبر : « ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » ثلاثا فليس بحصر ، بل بيان لمعظم القوة كقوله صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة » فلا دليل فيه لمن فسر القوة بالرمى .

وذكر عمر بن عنبسة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماعا منه : « من رمى سهما فى سبيل الله فأصاب العدو أو أخطأهم فهو كعتق رقبة » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد ثلاثة : الصانع محتسبا ، والرامى والمد » وقال : « ارموا واركبوا وإن ترموا أحب إلىَّ من أن تركبوا ، ومن ترك الرمى رغبة عنه بعد ما علمه فهى نعمة تركها أو كفرها » وقال يوم بدر : « إذا غشوكم أو قال كثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم » وفى رواية : « فعليكم بالنبل » وقال عقبة ابن عامر ، سماعا منه صلى الله عليه وسلم : « ستفتح عليكم الروم ، ويكفيكم الله فلا يعجزن أحدكم أن يلهوا باسهمه وسمعه يقول : « من تعلم الرمى وتركه فليس منا أو قد عصى » .

وفى الحديث : « من بلغ بسهم فهو له درجة فى الجنة » وروى :

« عدل رقبة محررة وكل لهو باطل وغير محمود إلا تأديب الرجل فرسه وملاعبة أهله ورميه بقوسه » ومات عقبة عن سبعين قوسا فى سبيل الله ، وما ترك الرمى والجهاد وهو شيخ كبير ، وعن عكرمة القوة الحصون ، وعنه ذكور الخيل ، والرباط إناثها وضعف ، وقال السدى : القوة السلاح .

( ومِنْ رِباطِ الخَيْلِ ) مصدر رابط بفتح الباء والطاء ، ووجه المفاعلة أن الكفار قد ربطوا الخيل ، أو أن المؤمن يربط فيراه المؤمن الآخر فيربط مثله ، فيتسابقون فى ذلك ، أو مصدر ربط الثلاثى على غير قياس ، ومعنى ربط الخيل اتخاذه للقتال ، ويطلق على شده فى مكان للحفظ ، أو مصدر بمعنى مفعول سمى به الأفراس ، أو اسم للأفراس التى تربط فى سبيل الله ، والإضافة للبان على الوجهين ، أو جمع ربيط كفصيل وفصال ، وقرأ الحسن ، وعمرو ، وابن دينار ، وأبو حيوة : ومن ربط الخيل بضم الراء والباء ، وعن الحسن أيضا ضم الراء جمع رباط ككتاب وكتب .

والمراد بالخيل الذكور والإناث ، وعن عكرمة أن المراد هنا الإناث ، ووجه بأن العرب تربط الإناث من الخيل بالأفنية للنسل ، وعن ابن سيرين : أنه سئل عمن أوصى بثلث ماله فى الحصون فقال : يشترى به الخيل فيرابط عليها فى سبيل الله ، ويغزى عليها فقيل : إنما أوصى فى الحصون فقال : ألم تسمع قول الشاعر :

* إن الحصون الخيل لا مدر القرى *

ذكره جار الله ، وكان خالد بن الوليد لا يركب إلا إناث الخيل فى القتال لقلة صهيلها ، والصحابة يركبون ذكور الخيل عند القتال ، وإناثه عند الغارات والبيات ، وربط الذكور أولى لأنها أقوى على الفر والكر ،

وفى الحديث : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » وفى رواية بعد هذا ما نصه : « الأجر والغنيمة » وفى الحديث : « يوزن لرابطها للقتال ما أكلت وما شربت ولو لم يعلم ، وأثرها فى الأرض وروثها وبولها ، ومن ربطها تعففا لم ينس حق الله فى رقابها وهو الإحساس إليها » وقيل الحمل عليها ولا فى ظهورها ، أى بأن يحمل المنقطع إلى أهله فهى له ستر ، ومن ربطها فخرا ورياء فوزر ، ومن ربط فرسا فى سبيل الله فهو كباسط يده بالصدقة لا يقبضها .

( تُرهِبُون بِهِ ) بالربط والخيل أو بأعداء ، أو بما استطعتم ، والإرهاب التخويف ( عَدُوَّ اللهِ وعدوَّكُم ) وهو كفار مكة ، أو الكفار مطلقا ، فإنهم أعداء الله ورسوله إذا رهبوا بذلك أسلموا أو تركوا الحرب ، وأدوا الجزية إن كانوا من أهلها ، وفى تكرير لفظ عدو زيادة ذم ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى عدوا لله بتنوين عدو ، وإدخال لام الجر على اسم الجلالة ، وقرأ يعقوب والحسن ، قيل : وأبو عمرو بن العلاء بفتح الراء وتشدد الهاء ، وكل من همزة أرهب ، وتشديد رهب للتعدية ، قال الطبرى : فسر ابن عباس ، وعكرمة : ترهبون بتخزون ، وقال أبو عمرو الدانى : قرأ بذلك ، وعن مجاهد ، وابن عباس : أنهما قرآ تحزنون .

( وآخَرِينَ مِنْ دُونهِم لا تعْلَمُونَهم ) لا تعرفونهم ، قال ابن زيد : هم المنافقون ، لا يعلمونهم لأنهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهم عدو كمين يستحق الإرهاب ، ولو لم يقاتل ، وقال مجاهد : هم قريظة ، وزاد بأنهم معرفون أنهم أعداء ، وأجيب بأنهم لم يعرفوا بأعيانهم ، هذا فلان القرظى ، وهذا فلان القرظى ، وقال السدى : هم فارس ، وفيه ما فى القول قبله ، وقيل : كل عدو للمؤمنين

غير الفرقة التى أمر أن يشردهم من خلفهم ، وقال الحسن ، والطبرى : كفار الجن .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا دار فيها فرس عتيق » وفى رواية : « فيها فرس للجهاد » وعن الحسن : إن صهيل الخيل ينفر الجن ، وروى عنه : يرهب الجن ، ويصح أن يقدر فى القول بالمنافقين ، والقول بالجن لا تعلمونهم أعداء بإبقاء العلم على أصله بدون تأويله بالعرفان ، ويصح كذلك لا تعلمونهم راهبين ، وهذا يصح ولو فى من علم أنه مشرك ، ولم يظن به أن يكون راهبا .

( وما تُنفقُوا مِنْ شىءٍ ) بيان لما زيادة لتعميمها ، ويتعلق بمحذوف نعت لما بينا على التحقيق من جواز نعت ما الشرطية ( فى سَبيلِ الله ) الجهاد والغزو ، وقيل : عام فى كل خير ( يُوَفَّ ) أى يساق جزاؤه مثله أو أكثر فى الدنيا ( إليكُم وأنتُم لا تُظلمُونَ ) بنقص ثوابه فى الآخرة ، أو يوفَّ إليكم فى الدنيا والآخرة ، وأنتم لا تظلمون بترك التوفية ، أو نقص الثواب ، والجملة حال أو مستأنفة .

( وإنْ جَنحُوا ) مالوا ، أو يتعدى بإلى ، وإذا وصل بلام فهى بمعنى إلى كما فى الآية ، وقيل : يتعدى بإلى وباللام ، وسمى جناح الطائر جناحا لأنه يميل ، أو لأنه جانب ( للسَّلْم ) الصلح ، وقرأ أبو بكر بكسر السين ( فاجْنَحْ ) مل ، وقرأ الأشهب العقيلى بضم النون ، وهو لغة قيس ، قال أبو الفتح : الضم القياس ، لأن الثلاثى المفتوح العين اللازم ضم عين مضارعه أقيس كقعد يقعد ، وهو أولى من جلس يجلس بالكسر ، وأما الفتح فى قراءة الجمهور فلحرف الحلق ( لَها ) للسَّلم وهو يذكر ويؤنث ، وقال أبو حاتم هو مذكر ، فإنما

يؤنث حملا على ضده وهو الحرب ، أو لمعنى المسالمة والهدنة ، وقيل : هو مؤنث كالحرب ، والآية محكمة بمعنى أنهم إذا أرادوا السلم فعاهدهم بحسب المصلحة إن رأيتها ، وإلا فلا ، وقال بعضهم : ليس للإمام أن يهادنهم سنة كاملة إن كانت فيه قوة ، وإن كانت القوة للمشركين جاز أن يهادنهم عشر سنين لا أكثر كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة عشر سنين ، ثم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة .

وقال ابن زيد ، وعكرمة ، وقتادة ، والحسن : منسوخة بآية القتال فى براءة ، على أن الضمير فى جنحوا للكفار مطلقا ، وقيل : لأهل الكتاب قريظة لاتصال الآية بقصتهم وقال الطبرى : هـذه الآية فى من تجـوز مصالحته ، والتى فى براءة فى عبدة الأوثان فلا نسخ فى ذلك ، وعن ابن عباس : منسوخة لقوله : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون » وهذا بعيد عن ابن عباس فيما قيل ، والمشهور عنه أنها منسوخة بآية براءة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » وقال مجاهد : نسخت بقوله : « فاقتلوا المشركين » والحق أن الآية محكمة فى أهل الكتاب أو فى العموم ، وأن السّلم موقوف على مصلحة يراها الإمام .

( وتَوكَّلْ علَى اللهِ ) فى السّلم لا تخف خداعهم ، فإن الله يرد مكرهم عليهم ( إنَّه هُو السَّميع ) لأقوالهم ( العَليمُ ) بأفعالهم وما أضمروه .

( وإنْ يُريدُوا ) قال مجاهد هم قريظة ( أن يخْدعُوكَ ) فى أثناء السّلم ، وقال الحسن : هم المشركون إن أظهروا لك الإيمان وأسروا الكفر ليخدعوك به ( فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ ) كافيك الله ، يكفى عنك ضرهم وينصرك عليهم ، والآية كما قال ابن هشام : دليل على جواز الإخبار

بالمعرفة عن النكرة ، فإن إضافة حسب لا تفيد التعريف على المشهور ، ولكن رجح بعضهم أنها تفيده فلا دليل فى الآية .

ومن كتب : « وإن يريدوا » إلى « حكيم » فى أول يوم جمعة من رمضان ، بين الظهر والعصر على طهارة فى خرقة صوف ، أو فى قلنسوة من حرير أخضر وأصفر وأحمر ، وحملها وقت الحاجة لدفع شر الشياطين ، والسحرة ، والظالمين ، وأهل العداوة ، زال ذلك عنه ، وزالت عنه التهمة ، وحضرته مهابة وقبول ومحبة وائتلاف ونال الخير .

( هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ) قواك فى بدر وسائر أيامك ( وبالمؤمنينَ ) الأنصار والمهاجرين وغيرهم ، أيده الله بأسباب باطنة ، وهى النصر ، وظاهرة وهى المؤمنين .

( وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمِ ) قلوب المؤمنين على الإطلاق ، وأزال حمئة العرب والعصبية التى تستعملها العرب فى أدنى شىء ، وكانوا يكاد لا يتألف فيهم قلبان ، وأزال ذلك منهم حتى صاروا كنفس واحدة ، وذلك إعانة للنبى صلى الله عليه وسلم ومعجزة له ومن جملة ذلك ما كان بين الأوس والخزرج ، فزال ذلك بالإسلام ، وقد قال الأكثرون : إن المراد بالمؤمنين الأوس والخزرج ، وإن الآية فيهم ، ألف بينهم وصاروا أنصار الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكانت بينهم أحقاد لا أمد لها ، ووقائع هلكت فيها سادتهم ، وتحاور يهيج الضغائن ، وأشعار تديم التحاسد والتنافس ، وعادة كل من الطائفتين أن تكره ما أحبته الأخرى وتنفر عنه ، فأنساهم الله ذلك ، وقال ابن مسعود : نزلت الآية فى المتحابين فى الله ، وقال مجاهد : إذا ترآى المتحابان فى الله فتصافحا

وتضاحكا تحاتت خطاياهما ، فقال له عبدة بن أبى لبانة : إن هذا ليسير ، فقال : لا تقل ذلك ، فإن الله سبحانه يقول :

( لَوْ أنفقْتَ ما فى الأرْض جَميعاً ما ألَّفْت بين قلُوبهِم ولكنَّ اللهَ ألَّفَ بينَهم ) قال عبدة : فعرفت أنه أفقه منى ، وعن سهل بن سعد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ما ألفه لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » قالوا : من كان من أهل الخير ألف أشباهه وألفوه ، وكانت الحرب بين الأوس والخزرج قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، يجتمعون فيقتتلون فى كل عام ، كانوا يقتتلون فى حرب رجل يقال له شمير ، وكانوا عند مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى حرب حاطب بن عبد الله مولى لهم ، وأنزل الله بينهم الترحم ، ووافقوا النبى صلى الله عليه وسلم ، وسموا أنصارا ، وجعل بلدتهم دار هجرة ومتبوأ للإيمان ، وسماها المدينة بغير حضار عليها ، وأكرمهم بنبيه ، أقام فيهم عشر سنين ، وجعل مدفنه فيها .

وكان يوصى بالأنصار خيرا ويقول : « استوصوا بالأنصار خيرا اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ، فقد قضوا ما عليهم ، وبقى الذى لهم اللهم اغفر للأنصار ، وذرارى الأنصار » وقال للأنصار : « موعدكم الكوثر » قالوا : ما الكوثر يا رسول الله ؟ قال : « نهر لى فى الجنة شرابه أبيض من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، عليه غلمان مخلدون ، كعدد نجوم السماء ، معهم الأباريق لا يسقون إلا من أمرت ، فآويكم يومئذ كما آويتمونى فى الدنيا » قالوا : قد رضينا يا رسول الله ، فقال لهم : « يا معشر الأنصار لولا الهجرة لكنت امرىء منكم ، ولو سلك الناس واديا أو شِعْبا لسلكت واديكم وشعبكم » .

ولم يقسم يوم حنين لهم شيئا ووجدوا من ذلك ، فقالوا : أعطى قريشا وآثر علينا إذا كانت الحرب صلينا بحرها وشدتها ، وإذا كانت الغنائم كانت لغيرنا أعطى قوما سيوفنا تقطر من دمائهم ، ادخلوا فساطيطكم فلا يؤثر رسول الله عليه وسلم إلا الحسن الجميل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ناس من قريش : « يا معشر قريش مالى لا أرى فيكم من الأنصار أحدا ؟ » فوثب فتوسط فساطيطهم فقال ثلاث مرات : « اللهم اغفر لأصحاب هذه الفساطيط » فقالوا : هذه والله خير مما أعْطِيت قريش من الدنيا وما فيها ، وقال : « ألا تخرجون إلىّ يا معشر الأنصار ؟ ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بى ؟ ألم تكونوا عميا فبصركم الله بى ؟ ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى ؟ ومتفرقين فألفكم بى ؟ وعالة فأغناكم بى ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله صلى الله عليك وسلم فقال : « أما إنكم إن شئتم قلتم فصدقتم : ألم تأتنا طريدا فآويناك ، وفقيرا فواسيناك ، ومخذولا فنصرناك » فقالوا : لله ولرسوله المنة علينا ، فقال : « يا معشر الأنصار أما ترضون أن تذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله إلى منازلكم ؟ » فقالوا : بلى يا رسول الله رضينا .

( إنَّه عَزِيز" ) لا يغلب على أمر أراده هو ( حَكِيم" ) لا يفعل إلا الصواب ، ولا يضع الأشياء إلا فى مواضعها ، ومن عزته وحكمته صرف القلوب من العداوة إلى التحاب .

( يا أيُّها النبىُّ حَسْبُكَ اللهُ ) حسبك مبتدأ ، والله خبر ، بدليل « فإن حسبك الله » ( ومَنِ اتَّبعكَ مِنَ المؤمِنينَ ) العطف على اسم الجلالة كأنه قيل : يكفيك الله والمؤمنون ، هذا هو الأظهر السالم من ضعف وقلة ، وقال عامر الشعبى ، وابن زيد ، والشيخ هود : حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين ، وعليه فالعطف على الكاف بناء على

جواز العطف على ضمير الخفض المتصل بلا إعادة الخافض مطلقا ، وهو مذهب الكوفيين ، أو على مذهب المجيز إن وجد الفصل ، وقول بعض : إنه مخفوض بحسب محذوفا كقوله :

أكل امرىء تحسبين امرأ
ونار توقد بالليل نارا

غير صحيح لأنه لا دليل له فيه على تقديره ، بخلاف قوله : نارا آخر البيت ، فإنه مع السياق السابق يدل على تقدير كل قبل نار توقد ، ويجوز العطف على الكاف على أنها مفعول حسب ، على أن حسب اسم فعل بمعنى يكفى ، والله فاعل ، ويجوز كون الواو بمعنى مع ، ومن مفعولا معه ، والمراد بالمؤمنين كل من آمن به واتبعه ، وعن ابن عباس : الأوس والخزرج ، وقيل : المهاجرون والأنصار ، ونزلت قبل الخروج لبدر ، وقيل : نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال ، وعليه النقاش .

قال بعض : فالمراد من اتبعك إلى القتال ، وقال ابن عمر ، وأنس ، وابن عباس فى رواية ابن جبير عنده : الآية مكية كتبت فى سورة مدنية بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد أسلم قبله ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ، فذلك أربعون .

( يا أيُّها النبىُّ حَرِّضِ المؤمنينَ على القتالِ ) بالغ فى حث المؤمنين على القتال ، بذكر الثواب وتسهيل أمر القتال ، والوعد بالنصر ، وأصل الحرض القرب من الموت ، فيجوز أن يكون ذلك تلويحا إلى إزالة الهلاك والقرب منه ، فإنهم إذا لم يتأهبوا هلكوا أو قربوا من الهلاك ، وقرىء : حرص بصاد مهملة من الحرص ، حكاه الأخفش والنقاش .

( إنْ يَكُن مِنْكم عِشْرونَ صابِرُونَ يغْلبُوا مائتَيْن ) من الكفار ( وإن تكُن ) بالمثناة بالفوقية عند نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وروى خارجة ، عن نافع يكن بالتحتيــة منكم ( مائةٌ يغْلبُوا ألفاً مِنَ الَّذينَ كفَرُوا ) بإذن الله ، ظاهر الكــلام الإخبار ، ومعناه الأمر بمصابرة الواحد للعشرة ، فتكون الغلبة بعون الله إن صبروا ، وذلك يوم بدر وما بعده حتى كان تخفيف ( بأنَّهم ) بسبب أنهم ( قومٌ لا يفْقَهون ) أى جهلة بالله واليوم الآخر فلا يثبتون كما كثبت المؤمنون رجاء للثواب ، والدرجات العالية ، والنجاة من النار .

( الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنْكُم ) بإزالة تلك المشقة التى هى ثبات الواحد للعشرة ( وعَلم أنَّ فيكُم ضَعفاً ) أى ظهر فى الخارج أن فيكم ضعفا ، فعبر عن الظهور فى الخارج بالعلم ، لأنه لازم للظهور ومعيب له فى الجملة ، وإلا فالله عالم بالأشياء فى الأزل ، قبل أن تكون ، أو الواو للحال ، أى وقد علم أن فيكم ضعفا ، فالعلم على بابه ، والضعف ضعف البدن ، وقيل : ضعف البصيرة لا ضعف قلة ، لأنه إنما خفف عنهم حين شق عليهم مقاومة الواحد العشرة وهم كثير حين التخفيف لا قليل ، وكان بعضهم أضعف من بعض فى البدن ، وبعض أضعف من بعض فى البصيرة ، وبعض أضعف فيهما .

ولو قيل : المراد بالضعف ضعف البدن والبصيرة لجاز ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، وشيبة ، وطلحة بفتح الضاد ، وهما لغتان ، والضم لغة الحجاز ، والفتح لغة تميم ، وكذلك اختلاف القراء فى الروم ، وقرأ عيسى بن عمرو ضعفا بضم الضاد والعين ، والمعنى واحدا وثلاثة مصادر ، وقيل : الضم فى الجسم ، والفتح فى الرأى والعقل ، وعليه فيختلف معنى القراءات ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : ضعفاء بضم الضاد وبفتح العين والفــاء

مع المد جمع ضعيف ، وحكاها النقاش عن ابن عباس وبين التخفيف بقوله :

( وإنْ تكُنْ مِنْكُم مائةٌ صابرةٌ ) بالفوقية عند نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وإنما قرأ أبو عمرو ، وعاصم هنا تكن بفقية ، ويكن هناك بالتحتية نظرا إلى التأنيث فى صابرة ، والتذكير فى يغلبوا ، ولم يعتبر يغلبوا هنا لتأخره عن صابرة ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وقرأ الأعرج بالفوقية فى المواضع الثلاثة ، ولم يقرأ بها أحد فى « وإن يكن منكم ألف » ( يغلبوا مائتَيْن ) منهم وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين منهم ( بإذْنِ اللهِ واللهُ معَ الصَّابرينَ ) بالنصر والعون ، والإشارة بذلك إلى أن الواحد يثبت للاثنين ، ولا يحب عليه أن يثبت لثلاثة ، وإنما مثل هنالك بمثالين ، وهنا بمثالين ، مع أنه يكفى المثال الواحد هنالك ، والواحد هنا ، للدلالة على أن القليل والكثير واحد .

قال ابن جريج : كان عليهم أن يثبت الواحد للعشرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث حمزة فى ثلاثين راكبا ، فلقوا أبا جهل فى ثلاثمائة راكب ، فثقل ذلك عليهم وضجوا منه ، ثم نسخ بمقاومة الاثنين بالواحد فقوله : « إن يكن منكم عشرون » إلى آخر منسوخ لقوله : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » الخ ، ولا يشكل عليه أن الإخبار لا ينسخ لما مر أن قوله : « إن يكن منكم عشرون » الخ فى معنى الأمر ، وكذا « فإن تكن منكم مائة صابرة » الخ وكذا قال الحسن بالنسخ ، وذكر أنه ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظهر الإسلام وصار الجهاد تطوعا .

وكذا قال ابن عباس بالنسخ ، قال : لما نزل « إن يكن منكم عشرون »

الخ شق ذلك على المؤمنين ثم نسخ بقوله : « الآن خفف الله عنكم » الخ ، ونقص عنهم من الصبر بقدر ما خفف عنهم ، قال بعضهم : كان الفرار من الزحف كبيرة موبقة يوم بدر لمن فر حتى جاوز صف النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كان على العموم ثم نسخ بقوله : « إن يكن منكم عشرون » الخ ، ثم نسخ هذا « بالآن خفف الله » الخ نزلت بعد قتال بدر بسنة فى أمر أحد ، ثــم حل بعــد ذلك الفرار ، فمن قتل مقبلا أو مدبرا فإلى الجنة وهو شهيد إن وافق السنة ، والمقبل يسبق المدبر وهو ضعيف ، وقال أبو الحوارى : من قتل مدبرا فليس بشهيد ، وعن بعضهم : « ومن يولهم يومئذ دبره » الخ منسوخ بقوله : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » الخ وهو ضعيف .

وعن أبى الحسن العمانى : الفرار فى الجهاد غير الغرض ليس كبيرة ، وزعم بعض أن قتال الدفع يجوز الفرار منه ، وعن ابن عباس فى رواية وغيره : إن ثبات الواحد للعشرة كان على الندب والتحريض ، فعملوا به ، ولو كان غير لازم ، ثم خفف الله عنهم ببيان الحد الواجب للاثنين ، فليس ذلك بنسخ وهو ضعيف ، ومذهبنا أنه كان الثبات لعشرة واجبا ثم نسخ بوجوب الثبات للاثنين وهو من نسخ الثقيل بالخفيف ، قال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر مثل ذلك .

من قرأ « الآن خفف الله عنكم » إلى « الصابرين » عقب الصلاة فى سبعة أيام أولها العصر من يوم الجمعة إلى صلاة يوم الجمعة ليلا ونهارا ، وعند الفراغ من الأشغال زال عنه ما يخشاه ، وخفف عنه حمل الأثقال ، وثقل الأعمال ، قال الغزالى : كان الحسن البصرى يكتب رقاعا للحمى فتوضع على المحموم فتزول ، ولما مات وجد فيها : « بســم الله الرحمن الرحيم .. يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » « الآن

خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » « ربنا اكشف عنـــا العذاب إنا مؤمنون » « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله » « وإن يردك بخير فهو على كل شيء قدير » .

( ما كانَ لنبيٍّ ) من الأنبياء ونبينا صلى الله عليه وسلم داخل فى هذا العموم ، وقيل : ما كان لنبى قبلَك فما يكون لك ، وهذا لمعونة المقام ، وإلا فكم من أمر لم يكن للأنبياء قبله وكان له ، ويجوز أن يكون التنكير للتعظيم لا للعموم ، والمراد النبى صلى الله عليه وسلم ، والأصل ما كان لك فوضع الظاهر موضع المضمر ، وما تقدم أولى ، وقرئ : ما كان للنبى بتعريف الحضور ، فالمراد نبينا صلى الله علَيه وسلم ، ويحتمل الجنس .

( أنْ يكونَ ) وقرأ أبو عمرو بالفوقية ، قيل : وابن عامر نظر إلى معنى الجماعة ، وإلى ألف التأنيث كذا قيل ، والصواب أنه نظر إلى معنى الجماعة ، وإلا جاز قامت طلحة ، وجاءت سلمى إذا أريد بهما رجلان ، وليس بجائز ( لَه أسْرَى ) جمع أسير كقتيل وقتلى ، وقرأ أبو جعفر : أسارى وهو رواية المفضل ، عن عاصم ، وهو كما قال الزجاج جمع أسرى ، فهو جمع الجمع ، وقيل : جمع أسير شاذا ، وأصل المعنى واحد ، وقال أبو عمرو بن العلاء ، وهو أبو عمرو القارئ من السبعة : إن الأسرى هم غير الموثقين عند ما يؤخذون ، والأسارى هم الموثقون ربطا ، وأنه جمع أسير كما أن أسرى جمع أسير .

( حتَّى يُثْخِنَ فى الأرْضِ ) حتى يكثر القتل والجراح ، ويبالغ فى ذلك ، فيذل الكفر وأهله ، ويعز الإسلام وأهله ، يقال : أثخنه المرض

أثقله وذلك من الثخانة أى هى الغلظ والكثافة ، وقرأ أبو جعفر ، ويحيى ابن يعمر ، ويحيى بن وثاب بفتح الثاء وتشديد الخاء للتعدية لا للمبالغة ، كما قال بعض ، إلا إن أراد أن التشديد تلويح للمبالغة لوقوعها به فى الجملة ، ومعنى الآية إيجاب القتل وتحريم استبقاء الأسرى ٠

قال ابن عباس : كان ذلك يوم بدر ، ولما كثر المسلمون نـزل : « فإما منًّا بعدُ وإما فداء » قيل : فكان ناسخا لذلك كما فى كتاب الناسخ والمنسوخ ، وهو ظاهر كلام ابن عباس ، وجار الله ، قال الرازى : ليس ناسخا فإن الآيتين متوافقتان ، وكلتاهما يدل على أنه لا بد من تقديم الإثخان ، ثم بعده أخذ الفداء ، وأقول كلامه يقتضى هذا فى كل قتـال على حدة ، وليس بشىء ، وكان الفداء يومئذ أربعة آلاف درهم ، أربعة آلاف لكل أسير ٠

( تُريدُونَ ) أيها المؤمنون ( عَرَضَ الدُّنيا ) وهو ما يأخذون من فداء الأسارى ، وسمى عرضا لأن متاع الدنيا حادث قليل اللبث ، سريع الفناء ، وقرىء : يريدون بالتحتية ، ولا دليل فى الآية لمن يقدح فى عصمة الأنبياء ، لأنه صلى الله عليه وسلم إنما حكم بالفداء ، لأنه قد فوض الله إليه الحكم فى المصالح ، فرأى الحكم به مصلحة ، ولما نهاه كف وكان حراما ، بل قيل : إن الآية عتاب رقيق فى اختيار الفداء على القتل ، لا تحريم له ، وأما الأسر ففعلته الصحابة لا هو ، فإن كان ذنبا فمنهم إذا مروا بالقتل فأسروا ، بل لا ذنب لأنهم لم ينهوا عن الأسر يومئذ ، والأمر بالقتل لا يحرم الأسر ، فإنهم إذا أسروا فالأمر بعد للنبى ، فإن شاء ألحق الأسرى بالقتلى بالقتل ٠

ويدل على عدم تحريم الأسر ، وأن الآية عتاب أن الملائكة تعين

المؤمنين على أسر الكفار وتأسر ، بل قيل : كان مشروعا بشرط الإثخان ، وقد حصل الإثخان فى ظنهم بمن قتلوا وجرحوا ، ويرده أن الأسر يوم بدر كان فى وسط القتال قبل الإثخان وبعده ، لا بعده فقط ، وأما بكاؤه هو وأبو بكر لنزول الآية فإشفاق من فعل الصحابة إذا اشتغلوا بالأسر وتركوا القتل ، أو من فعلهم ما حدث تحريمه بعد الفعل ، أو من ميلهم للفداء ، أو موافقة حكمه بالفداء تحريم الفداء بعد الحكم ، رغبة فى أن لو وفقوا ما لم يحدث تحريمه أو تضعيفه .

ولم يدخل صلى الله عليه وسلم فى الخطاب بإرادة عرض الدنيا ولا فى غيبتها ، وإن دخل فالمراد بيان أن الراجح أن يختار القتل نفعا للإسلام حاضرا لا العرض للمسلمين ، لأنه ولو كان نفعا للإسلام أيضا لكنه آجل وما أراد العرض لنفسه قط ، وذكر بعضهم أنه دخل فى الآية من جهة المعاتبة فقط ، حيث أسروا ولم ينههم من عريشه ، وقد أنكر سعد بن معاذ ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أغفله بعد الأمر وظهور النصر ، ولذلك بكى هو وأبو بكر خوفا من نزول العذاب لكمال خوفهم ، واختار بعضهم أن العتب لأصحاب النبى كما يظهر مما مر ، كأنه قيل : لا يستقيم أن تأخذوا الأسارى للنبى .

( واللهُ يُريدُ الآخرةَ ) أى يريد لكم ثوابها ، أو سبب نيلكم ثوابها من إعزاز دينه بالإثخان ، وقرأ ابن جماز بجر الآخرة على حذف المضاف ، وإبقاء المضاف إليه مجرورا ، فقدره ابن مالك ، والله يريد عرض الآخرة من جنس المضاف المذكور ليشعر به ، وليس فى القياس كقول أبى داود حارثة بن الحجاج ، أو حارثة بن عمران الأيادى ، أو عدى بن زائدة :

أكــل امــرىء تحســبين امــرأ
ونــار توقـــد بالليل نـــارا

أى وكل نار توقد بالليل نـارا ، لأن الشرط فى الغالب أن يكـون المضاف المحذوف معطوفا على مضاف بمعناه ، والمضاف فى الآية لم يعطف ، بل عطفت الجملة ، فقراءة ابن جماز من غير الغالب لذلك ، وإنما سمى ابن مالك خير الآخرة عرضا تجوز للمناسبة ، أو لأنه عارض بمعنى حادث ، ولو كان يدوم ، وللمناسبة ومن قدره هكذا ، والله يريد عمل الآخرة كابن هشام ، أو ثواب الآخرة ونحو ذلك ، كان عنده من غير الغالب لما ذكر ، ولعدم مماثلة لفظ المحذوف للمذكور •

( واللهُ عَزيزٌ ) فأولياؤه تكون غالبة لأعدائه ( حَكيمٌ ) فى أفعاله وأقواله ، فمصلحتكم فى الإثخان لا فى الفداء ، قال ابن مسعود : جىء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر بسبعين أسيرا فيهم : العباس ، وعقيل بن أبى طالب ، فاستشار فيهم أصحابه ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم ويهديهم إلى الإسلام ، وخذ منهم فدية يتقوى بها أصحابك على الكفار •

وقال عمر رضى الله عنه : كذبوك وأخرجوك ، قدمهم واضرب أعناقهم ، فإنهم أئمة الكفر ، وأن الله أغناك عن الفداء ، مكن عليا من عقيل وهو أخوه ، وحمزة من العباس وهو أخوه أيضا ، ومكننى من فلان نسيب لعمر نضرب أعناقهم •

وقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه : انظر واديا كثير الحطب أدخلهم فيه وأضرمه عليهم نارا •

فقال العباس : إذن تقطع رحمك وسكت ودخل العريش ، وقد كان يهوى قول أبى بكر ، وقد قال سعد بن معاذ حين رأى الأسرى ، وقد وقد كان فى العريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كان الإثخان فى القتل أحب إلىّ يا رسول الله ، فكان بعض يقول : يأخذ بقول أبى بكر ، وبعض يقول ، عمر ، وبعض يقول ابن رواحة ، ثم خرج فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : « فمن تبعنى فإنه منّى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » زاد فى رواية : ومثل عيسى قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ومثلك يا عمر مثل نوح قال : « ربى لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا » زاد فى رواية ومثل موسى قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم » الآية وأخذ بقول أبى بكر وقال : أنتم اليوم عالة لا يفلتن أحد منهم ، إلا بفداء أو ضرب عنقه » .

وروى أنه لما خرج أعلمهم التخيير فاختار الأكثر الفداء ولما قال : « إلا بفداء أو ضرب عنقه » قال ابن مسعود رضى الله عنه إلا سهيل بن بيضاء ، فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت صلى الله عليه وسلم قال ابن مسعود : ما رأيتنى فى يوم أخوف أن تقع علىّ حجارة من السماء من ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلا سهيل ابن بيضاء » ونزلت الآية بموافقة قول عمر بعد أخذ الفداء الألف أربعة آلاف من بعضهم .

وذكر عبد الله بن حميد بسنده : أن جبريل نزل بالتخيير ، فعلى هذا فالعتب على اختيارهم ما هو مرجوح ، والعذاب فى قوله : « لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » على غير اختيارهم وإلا لم يصح ما ذكره ،

وذلك مثل أن يحمل على استبقاء الرجال وقت الهزيمة ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال للناس : « إن شئتم أخذتم فداء الأسرى ويقتل فى الحرب منكم سبعون على عددهم ، وإن شئتم قتلوا وسلمتم » فقالوا : نأخذ المال ويستشهد سبعون ، وفى هذه الرواية ما فى التى قبلها .

( لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ ) نعت لكتاب ، والخبر محذوف ، أى موجود ، وقيل : أغنى عنه الجواب ، وقيل : يجوز ذكر الخبر بعد لولا إذا كان خاصا فيجوز كونه جملة سبق ، والمراد بكتاب الله حكمه أى لولا حكم الله السابق إثباته فى اللوح المحفوظ ، وهو أن لا يعاقب المخطىء فى اجتهاده ، وما قاله النبى ، والعباس ، وأبو بكر ، لـم يوافق الحق عند الله ، وقد قالوه اجتهادا لا تشهيا ، أو هو أى لا يعذب أهل بدر كما قال الحسن ، وفى الحديث : « لا يدخل النار من شهد بدرا أو من شهد الحديبية إلا نخلة القسم » وبذلك الذى قال الحسن . قال ابن جبير ، ومجاهد ، وابن زيد : أو هو أن لا يعذب قوما بما لم يصرح لهم بالنهى عنه ، كما قال محمد بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب .

وزعم بعض أن المراد ان لا يعذب قوما فعلوا ذنبا بجهالة ، وقيل : محو الصغائر على أن ذلك الفعل فى حقهم صغير فى تلك الوقعة ، وقال الحسن فى رواية ، وابن عباس ، وأبو هريرة : هو ما قضاه الله من إحلال الغنائم والفداء لمحمد وأمته لضعفهم ، وكانت فى سالف الأمم محرمة ، وكانت تنزل عليها النار فتحرقها ، قال عكرمة : ما أحلت الغنيمة قبلكم ، ولا حرمت الخمر على أحد قبلكم ، وقيل : هـو أنه سبق فى علمه أنـه استحل لهم الفدية التى أخذوها ، وقيل : المراد عفو الله عن هذا الذنب ، وقيل : المراد بالكتاب القرآن ، سبق نزوله فآمنوا به ، وكان سببا للعفو عنهم ، وقال الطبرى : المراد ذلك كله .

( لمسَّكُم فيما أخذ ْتـُم ) ما مصدرية أى فى أخذكم الفداء أو اسم أى فى ما أخذتموه وهو الفداء ، وذلك أنهم أخذوه قبل أن يؤمروا به ، قال ابن إسحاق : لم يبق أحد ممن حضر بدرا إلا وأحب الغنائم إلا عمر ابن الخطاب ، وسعد بن معاذ لم يحضر لهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم .

( عَذاب" عَظيم" ) هو عذاب الآخرة أو عذاب مهلك كالصيحة والخسف ، أو عذاب غير ذلك ، روى أنهم لما أخذوا الفداء جاء عمر من الغد فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبا بكر قاعدين يبكيان ، فقال : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أبكى للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ، لشجرة قريبة يريد العذاب المذكور فى الآية ، ولو نزل عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر وسعد بن معاذ » .

( فكُلُوا ممَّا غَنمتـُم ) وهو ما يفتدى الأسير ، فإنه ما يفتدى به من الأنفال على ما مر ، وروى أنه لما نزل ما مر كفوا أيديهم عما أخذوا من الفداء ، فنزل تحليله بقوله : « فكلوا مما غنمتم » وقيل : لما نزل ذلك أمسكوا عن الغنائم فنزل : « فكلوا مما غنمتم » والفاء سببية لمحذوف ، أى أبحت لكم الفداء أو الغنائم فكلوا مما غنمتم ، والأمر الوارد بعد الحظر للإباحة ، فإذا كان قد منعوا عن الفداء ثم أبيح لهم فالأمر هنا للإباحة ، وزعم بعضهم أن الغنائم أحلت للأمة بهذا ، وليس كذلك ، فإنها أحلت قبل بدر فى السرية التى قتل فيها عمرو بن الحضرمى ، وإنما المبتدع فى بدر استبقاء الرجال .

( حَلالاً ) حال من ما أو من المحذوف تقديره غنمتموه ، أو صفة

لمصدر محذوف أى أكلا حلالا ، أو مفعول كلوا محذوف ، أى كلوا ما شئتم مما غنمتم أو مفعوله حلالا ( طَيِّباً ) نعت حلالا أو حال ثان ، وفائدة حلالا طيبا إزاحة ما وقع فى نفوسهم بسبب المعاتبة ، أو بالتحريم على ما مر •

( واتَّقُوا الله ) فى أمره ونهيه ، وأن تفعلوا شيئا قبل أن تؤمروا به ، وإنما فصل به بين قوله : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا » وقوله : ( إنَّ الله غَفورٌ ) لهذا الذنب ( رَحيمٌ ) حيث أباح لكم ما أخذتم ومثله بعده ، مع أنهما متصلان فى المعنى كما رأيت للزجر به عن التساهل ، لأنه ربما دعاهم إليهم تحليل ما أخذوا ونحوه وغفر ذنبهم •

( يا أيُّها النبىُّ قُلْ لمنْ فى أيدِيكُم ) فى مملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم ( مِنَ الأسْرى ) وقرأ ابن محيصن بإدغام النون فى اللام ، وقرأ أبو عمر ، وأبو جعفر ، وقتادة ، ونصر بن عاصم ، والحسن ، والجحدرى فى رواية عنهما : من الأسارى ( إنْ يَعْلَم اللهُ فى قُلُوبكم خَيراً )أى إن كان فيها خير كان كونه فيها ملزوم لعلم الله ، وعلم الله لازم له ، والمراد بالخير الإيمان والإخلاص ( يؤتكُم خَيراً ) أى يؤتكم أفضل دنيا وأخرى ، أو أخرى •

( مما أخِذَ ) وقرأ الأعمش يثبكم خيراً مما أخذ منكم ، وقرأ الحسن ، وشيبة بن نضاح ، وأبو حيوة : يؤتكم خيرا مما أخذ بالبناء للفاعل الذى هو الله ، أى أخذ هو أى الله منكم وهو الفداء ، وقد مر أنه أربعة آلاف على كل أسير وهو قول قتادة ، وقال عبيدة السلمانى : جعل على كل أسير مائة أوقية ، والأوقية أربعون درهما ، ويعادلها ستة دنانير ، وقيل : إن أسرى بدر افتدوا بأربعين أوقية أربعين أوقية ، إلا

العباس فبمائة أوقية ، وقال موسى بن عقبة : بأربعين أوقية أربعين أوقية ، وقال أبو نعيم بإسناد ، عن ابن عباس : إنه جعل على العباس مائة أوقية ، وعلى عقيل ثمانين ، فقال له العباس : أللقرابة صنعت هذا ؟ فنزلت الآية .

وفى رواية عنه : الأسرى فى هذه الآية عباس وأصحابه قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسول الله ، لننصحن لك على قومنا ، فنزلت الآية ، وأخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يا عباس افد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبى طالب ، وابن أخيك نوفل بن الحارث ، وحليفك عتبة بن عمرو » قال : إنى كنت مسلما ، ولكن القوم استكرهونى ، قال : « الله أعلم بما تقول إن يك ما تقول حقا فإن الله تعالى يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

وذكر بعضهم أنه من أفضل الأسرى العباس ، وعقيل ، ونوفل ، وكل أسلم ، وكان العباس أسلم قديما وكتم إسلامه ، وخرج مع المشركين يوم بدر ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من لقى العباس فلا يقتله فإنه خرج مستكرها » ففادى نفسه ورجع إلى مكة ، وقيل : أسلم يوم بدر فاستقبل النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بالأبواء ، وكان معه حين فتح مكة ، وقيل : أسلم يوم فتح خيبر ، وقيل : كان يكتم إيمانه وأظهره يوم الفتح ، وكان إسلامه قبل بدر ، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يحب القدوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه : « إن مقامك بمكة خير لك » .

وقيل : سبب إسلامه أنه خرج لبدر بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها المشركين ، وكان من العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين

خرجوا إلى بدر ، وجاءت نوبته يوم بدر فاقتتلوا ، ولم يطعم شيئا ، وأخذت منه فى الحرب حين أسر ، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسبها من فدائه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أما شىء خرجت به تستعين علينا به فلا نتركه لك » وكلفه فداء نفسه وفداء بنى أخيه عقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث ، فقال : تركتنى أتكفف قريشا ما بقيت ، فقال صلى الله عليه وسلم : « فأين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل » وكان قد دفع إليها عند إرادة الخروج إلى بدر أربعين أوقية ليلا ، وقال لها : لا أدرى ما يكون فى وجهى هذا أى توجهى ، فإن مت فهى لك ولعبيد الله ، وعبد الله ، والفضل ، وقثم ، فقال : من أعلمك بهذا يا ابن أخى ، فإنه ما كان ذلك منى إلا إليها ليلا ؟ فقال : « أعلمنى الله » فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك عبده ورسوله ، وكنت مرتابا ولا ريب الآن ، وأمر عقيلا ونوفلا فأسلما .

وروى أن الأسرى ببدر أعلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لهم ميل إلى الإسلام ، وأنهم يؤملونه ، وأنهم إن فودوا ورجعوا إلى قومهم التزموا جلبهم إلى الإسلام ، وسعوا فى ذلك ، ونزلت الآية فى ذلك .

( ويغفرْ لكُم ) ما سلف قبل الإيمان ( واللهُ غفورٌ رحيمٌ ) قال العباس : أبدلنى الله مما أخذ منى عشرين عبدا أدناهم ليضرب فى عشرين ألف درهم ، أى يتجر ، وأعطانى زمزما ما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة ، وأن أنتظر المغفرة من ربى ، يشير إلى الآية ، وفى رواية : أن العشرين عبدا بما معهم مكان العشرين أوقية ، وأعطانى زمزما إلى آخر ما مر .

وفى البخارى من حديث أنس ، أنه صلى الله عليه وسلم أتى بمال من البحرين فقال : « اشروه » يعنى صبوه فى المسجد ، وكان أكثر مال أتى به صلى الله عليه وسلم ، فخرج إلى المسجد قبل صلاة الظهر ، ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه ، إذ جاء العباس فقال : أعطنى فاديت نفسى وفاديت عقيلا ، فقال له : « خذ » فحثا فى ثوبه ، ثم ذهب يقله فلم يستطع ، فقال : يا رسول الله مُر بعضهم يرفعه بالحزم إلىّ ، قال : « لا » قال : فارفعه أنت علىّ ، قال : « لا » فنثر منه ، ثم ذهب يقله فلم يستطع ، فقال : يا رسول الله مُر بعضهم يرفعه علىّ ، قال « لا » قال : فارفعه أنت ، قال : « لا » نثر منه ثم احتمله فألقاه على كاهله ، فانطلق فما زال صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره حتى خفى علينا عجبا من حرصه ، فما قام عليه الصلاة والسلام وثم منها درهم ، وكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منى حين كان يحثو بنفسه فى ثوب نفسه ، وروى عن العباس أنه قال : ما أود أن هذه الآية لم تنزل ولى الدنيا بأجمعها .

( وإنْ يُرِيدُوا ) أى الأسرى ( خِيانَتَكَ ) أى نقض العهد ، أو المكر بك ، أو منع الفداء ( فَقَدْ خانُوا اللهَ مِنَ قَبْلُ ) ذلك بالكفر ، ونقض الميثاق المأخوذ عنه بإيضاح الآية حتى أدركوا بعقولهم إدراكا صار كعهد مقرر ( فأمْكَنَ منْهُمْ ) ببدر المؤمنين ، فإن أعادوا الخيانة فسيمسكنك منهم ، وقوله : « فقد خانوا الله » الخ نائب عن الجواب ، وتقدير الجواب : وإن يريدوا خيانتك فلا تبالى بهم أو نحو ذلك .

( واللهُ عليمٌ ) بما ظهر وما بطن ( حكيمٌ ) فى كل شىء ، ومن حكمته الثواب والعقاب ، والإمكان من الكفار إظهارا للدين ، وجعلهم أسرى فى أيديكم .

وتفسير الآية بقصة عبد الله بن أبى سرح كما فعل قتادة ، لا يصح إن أراد أنها نزلت فى شأنه ، لأنه قبل الفتح وقصته بعده إلا إن أراد التمثيل به ، وذلك أنه كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ولحق بالمشركين بمكة ، فقال : والله ما كان محمد يكتب إلا ما شئت ، والآية نزلت كما تلفظ به ، وسمع بذلك رجل من الأنصار ، فنذر لئن أمكنه الله منه ليضربنه بالسيف ، فلما كان يوم الفتح ، جاء به رجل من عامة المسلمين كانت بينهما رضاعة ، فقال : يا نبى الله هذا فلان أقبل تائبا نادما ، فأعرض عنه ، فلما سمع به الأنصارى أقبل متقلدا سيفه ، فطاف به ساعة ، ثم إن نبى الله قدم يده فبايعه ، قال : « أما والله لقد انتظرتك لتوفى نذرك » فقال : يا رسول الله هيبتك والله منعتنى ، فلولا أومضت إلىّ ، قال : « إنه لا ينبغى لنبى أن يومض إنما بعثت بأمر علانيـــة » .

( إنَّ الَّذينَ آمنُوا وهَاجرُوا ) أوطانهم ، وأقاربهم ، وأموالهم حبا لله ورسوله ، والمفاعلة لأنك إذا هجرت شيئا فقد هجرك ( وجاهَدُوا بأمْوالهم ) كالإنفاق والسلاح والخيل ( وأنفُسهِم فى سبيلِ اللهِ ) بمباشرة القتال وهم المهاجرون الأولون ( والذين آوَوْا ونَصرُوا ) ضموا النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرين إلى مازلهم ، وأسكنوهم إياها ، وقاموا بهم ونصروهم على أعدائهم المشركين والمنافقين ، وهم الأنصار رضى الله عنهم ( أولئِكَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ) فى الميراث والنصر .

( والَّذينَ آمنُوا ولَم يُهاجِرُوا مَـا لكُم مِن وَلايتِهم ) ميراثهم ونصرهم ( مِنْ شىءٍ حتَّى يُهاجرُوا ) كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة دون أقاربهم من الكفار ، حتى فتحت مكة ، ونسخت الهجرة

نسخ ذلك بقوله سبحانه : « وأولوا الأرحام » الخ فتوارثوا بالأرحام ، وكان الرجل قبل ذلك يسلم ولا يهاجر فلا يرثه أخوه ، ولا يرث أخاه فى النسب ، وآخى النبى صلى الله عليه وسلم بين أبى بكر وخارجة ، وبين أبى عبيدة وسعد بن معاذ على المواساة ، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام وقال : « تواخوا فى الله أخوين » واحد من الأنصار وواحد من المهاجرين .

وآخى قبل الهجرة أيضا بين المسلمين فى مكة ، كما روى أنه آخى بين أبى بكر وعمر ، وكان إذا مات المهاجر وترك أخاه الأنصارى ، وأخاه النسبى ، وإذا مات الأنصارى وترك أخاه النسبى المؤمن ، وأخاه المهاجر ورثه النسبى كما ذكره ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد ، ومجاهد ، وقتـــادة .

وروى أنه آخى بين المهاجرين والأنصار بعد قدومه بخمسة أشهر ، وكانوا تسعين رجلا ، من كل طائفة خمسة وأربعين ، ونسخ ذلك بعــد الفتح بقوله : « وأولى الأرحام » الخ فى هذه السورة ، وقيل : بالذى فى الأحزاب ، وعلى الأول فقوله فى هذه السورة : « وأولى الأرحام » متأخر النزول ، وكان ذلك فيما قال الحسن حضاً للأعراب على الهجرة ، وقال كثير : المراد بالولاية هنا التناصر والتعاون لا التوارث ، واختلفوا هل المهاجرون أفضل أو الأنصار ؟ قيل : المهاجرون لأنهم مبدأ الإسلام وأصله ، ولأن مفارقتهم أقاربهم وديارهم ، وأموالهم وأصحابهم ، أشد على النفس من إنفاق المال ، وإسكان المنازل وهو الصحيح ، لأن مفارقتهم منازلهم مقابل بإسكان الأنصار منازلهم للمسلمين المهاجرين ، وقد أنفق المهاجرون الأموال فقدرهم ، كما أنفق الأنصار وفاقوا بمفارقة ما ذكر ، وبما أوذوا فى الله وغير ذلك .

وأما نحو قوله صلى الله عليه وسلم : « لو سلك الناس مسلكا لسلكت مسلك الأنصار » فقاله تطييا لأنفسهم ، وشفقة لهم ، وصدق أنه يسلك مسلكهم لا بيان لكونهم أعظم ثوابا ، وكانت الخلافة فى المهاجرين ، وقيل : الأنصار أفضل وقرأ ابن وثاب ، والأعمش ، وحمزة : ولايتهم بكسر الواو وتشبيها بما يدل على الحرفة ، كأنه بتوليه صاحبه يحاول عملا فهو شبيه بنحو الحراثة والخياطة والزراعة ، قاله شيخ الإسلام وغيره ، وذلك أن الثلاثى المفتوح والمكسور الدالين على حرفة أو استيلاء قياس مصدرهما الفعالة بالكسر ، ولو متعديين ، ولا يخفى أن الفتح فى الآية أجود ، ولغة الكسر دون ذلك كما قال الأخفش ، فخطأ الأصمعى فى تخطئته الأعمش حين قرأ بالكسر بل نقول : ما قرأ به إلا وقد رواه لغة .

( وإنِ استنصرُوكم ) طلبوا منكم النصر ( فى الدِّينِ فعليكم النَّصْر ) أن تنصروكم على المشركين ( إلا علَى قومٍ ) أى إلا النصر على قوم مشركين ( بينكُم وبيْنَهم ميثاق" )عهد فلا تنقضوا عهدهم بالنصر عليهم ( واللهُ بما تعمَلون بصير" ) خطاب للمسلمين ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى ، والأعرج بالتحتية ، وعليه فالضمير للذين آمنوا ولم يهاجروا ، أو للقوم الذين لهم ميثاق .

( والَّذينَ كفَرُوا بعضُهم أولياءُ بعْضٍ ) فى النصر والإرث قاله ابن عباس ، فلا مدخل لكم فيهم ، جانبوهم وصارموهم ، ولو كانوا أقارب لا توارثوهم ولا تعاونوهم ولا توادوهم ، وإنما ذلك فيما بينهم من بعض لبعض ، قرىء أولى ببعض ، أما الكافر فلا يرث المسلم إجماعا ولو أسلم الكافر ولو بالولاء خلافا له أيضا فى الولاء ، هذا ما عليه الجمهور ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعليه مالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد ، والشافعى ، وما ذكره عبد الوهاب المالكى عنه أن المسلم يرث عبده

الكافر لم يصح عنه ، وفى الحديث : « لا يرث المسلم ، أى الموحد ، الكافر أى المشرك » .

وقال معاذ بن جبل ، ومعاوية ، وأبو المسيب ، ومسروق ، والأوزاعى : يرث المسلم الكافر لخبر : « الإسلام يزيد ولا ينقص » أو « الإسلام يعلو ولا يعلى عليه » وقياساً على النكاح ، والاغتنام ، والقصاص فى الدماء التى لا تتكافأ ، وأجيب عن الخبر إن صح بأنه يزيد ويعلق بفتح البلاد ، ولا ينقص ولا يعلى عليه بالارتداد ونحوه .

وعن العباس : بأنه مردود لأن العبد ينكح الحرة ولا يرثها ، والمسلم يغنم مال الحربى ولا يرثه ، ولأن النكاح مبناه على الوالد وقضاء الوطر ، والإرث على المولاة والمناصرة ، لكن لما كان اتصالنا بهم بالتزوج فيه تشريف لهم ، اختص بأهل الكتاب ، وإن مات كافر عن زوجة حامل وأسلمت ثم ولدت ، ورثه الولد على قول من قال : إسلام الأم إسلام لولدها ، والمشهور خلافه إلا إن كان ابن أمة ، وقال بعض : إن تلك المسألة مستثناة من قولهم : لا يرث المسلم الكافر ، وأجاب بعضهم : بأنه إنما ورث حال الحكم عليه بحكم إليه وهو حاله فى بطن أمه وأبوه حى ، والولادة إنما هى شرط لتحقق الإرث .

والكفر بأنواعه ملة واحدة فيتوارثون عند الشافعى وأبى حنيفة ، لأن أعظم الأمور يجمعهم وهو الشرك ، فاختلافهم كاختلاف المذاهب فى الإسلام ، وهم كالنفس الواحدة فى البطلان ، والاجتماع على المسلمين ، ولقوله تعالى : « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » وقوله : « لكم دينكم ولى دين » وقوله : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وقوله : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » وفى الاستدلال

بالآية الثالثة نظر ، فإن المراد لن ترضى عنك اليهود حتى تتبع ملتها ، ولا النصارى حتى تتبع ملتها ، وصحح بعضهم وذلك القول .

وقال مالك ، وأحمد : اليهود ملة ، والنصارى ملة ، ومن عداهم ملة ، والأولى أن يقول والصابئون ملة ، والمجوس ملة ، والوثنية ملة ، ولا يتوارث أهل ملتين كما فى الحديث ، وقال الله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » وأجيب بأن المراد ملة الكفر ، وملة التوحيد ، كما جاء فى بعض الطرق ، لا يرث المسلم الكافر ، وأن المعنى لكل من دخل فى دين محمد جعلنا القرآن له شرعة ومنهاجا ، وقيل : الذين كفروا بعضهم أولياء بعض فى النصر .

( إلاَّ تفْعلوهُ ) إن لا تفعلوا ما ذكر من موالاة بعضكم بعضا ، حتى فى الميراث ، تفضيلا لنسب الدين على نسب القرابة ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ، حتى أن قرابتهم كلا قرابة ، ولا يخفى أن إلا هى إن الشرطية ولا النافية ، أو دغمت النون فى اللام قال ابن هشام : ولقد بلغنى أن بعض من يدعى الفضل سأل فى « إلا تفعلوه » فقال : ما هذا الاستثناء ؟ أمتصل أم منقطع ؟ انتهى .

قال الدماميني : ينبغى أن يجاب بأنه متصل بالجهل ، منقطع عن الفضل ، ومن قال الآية فى التناصر دون الميراث رد الضمير إلى ما ذكر من الموالاة وهى التناصر ، وتذكيره بتأويل المذكور والتناصر ، ووجود الفتنة إنما يكون قريبا مع عدم التناصر ، وأما بعدم الإرث فبعيد ، ويجوز عود الضمير على حفظ الميثاق ، أو على نصر المستنصرين فى الدين أو على ذلك كله .

( تكُن فتنةٌ ) حرب ( فى الأرضِ ) عظيمة ، وقيل : فتنة عظيمة

وهى ضعف الإيمان ، وقوة الشرك ، وذكر الأرض ، أو شعار بالانتشار والكون تام ( وفَسَاد" كبير" ) فى الدين ، وعن بعضهم : الفتنة قوة الكفار ، والفساد هو ضعف المسلمين ، وقيل : الفتنة الحرب وما ينجر معها من الغازات والجلاء والأسر ، والفساد ظهور الشرك ، وقيل : الفتنة الشرك ، وإذا كان فهو فساد كبير ، ولا شىء أسرع من ذلك وقوعا إذا لم يكن المسلمون يدا واحدة ، وقرأ الجحدرى ، عن الكسائى : وفساد كثير بالثاء المثلثة ، وذكر أبو حاتم وهو مدنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : وفساد عريض ، وقال قتادة : نزل ذلك فى من يتربص يقول : من غلب كنت معه ، وقيل فى قوم يلتجئون إلى المؤمنين وإلى المشركين تارة كما يأتى .

( والَّذين آمنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا فى سَبيلِ اللهِ والَّذينَ آووْا ونَصرُوا أولئكَ هُم المؤمنُونَ حقًّا ) كرر ذلك لتأكيد الهجرة ، ولتعظيم المهاجرين والأنصار ، كذا قيل : ومراد قائله تكرار ذكر : المؤمنين المهاجرين المجاهدين ، والمؤوين الناصرين لا تكرار الجملة ، وإلا فهذه حكم لهم بكمال الإيمان وما بعده من المغفرة والرزق ، والأولى فى الموالاة ، بل قال بعضهم : المراد فى الأولى المهاجرون الأولون ، وهم من هاجر إلى المدينة أولا ، وفى الثانية المهاجرون إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وهم أصحاب الهجرتين ، فلو قيل : المراد فى الأولى المهاجرون أو غيرهم ، وفى الثانية أصحاب الهجرتين تخصيصا لهم بالذكر بعد العموم لكان أولى .

( لَهم مغْفرة" ) عظيمة ( ورزْق" كَرِيم" ) حسن واسع دائم لا

ينغصه شيء ، لا تبعة فيه ولا منة ، ولا تعب ، ولا يستحيل غائطا ولا بولا خالص عن كل مذمة .

( والَّذينَ آمنُوا مِنْ بَعْدُ وهاجَرُوا وجاهَدُوا معَكُم فأُلَئكَ منْكُم ) من جملتكم معشر المهاجرين والأنصار ، هم الذين جاءوا من بعد من سبق إلى الهجرة » يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية ، وهى الهجرة الثانية إذا حسبت هجرة الأولين ، وهجرة أصحاب الهجرتين واحدة ، وهم دون الأولين وأصحاب الهجرتين ، أخبر الله أنهم منكم لئلا يهاون بهم وليرغبوا ، وذلك أن الحرب وضعت أوزارها نحو عامين قبل الفتح ، فكانت أقل رتبة من الهجرة بعدها ، كما يدل عليه استحقاق بلفظة مع ، وبلفظ منكم ، لكن قد تضاف مع إلى التابع .

وقيل : المراد من بعد نزول الآية ، وقيل : من بعد غزوة بدر ، والصحيح ما مر ، ولا هجرة بعد فتح مكة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » وقدم سهيل بن عمرو ، وصفوان ابن أمية ، ورجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم من مكة فقال : « ما جاء بكم ؟ » قالوا : سمعنا أنه لا يدخل الجنة إلا من هاجر ، فقال : « إن الهجرة قد تقطعت ولكن جهاد ونية حسنة » ثم قال : « أقسمت عليك أبا وهب — يعنى صفوان بن أمية — لترجعن إلى أباطح مكة ومن كان فى بلد يخاف فيه على إظهار دينه وجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف فيه ، وهذا مراد الحسن بقوله : إن الهجرة باقية إلى يوم يوم القيامة ، بل قد صرح : إن الهجرة المنسوخة الهجرة التى كانت مع النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، ومن قال بوجوب الهجرة بعد الفتح أنه يأمن على دينه ، فهو فى البراءة ، ومن أخذ المشركون وطنه

جاز له القعود فيه معهم ما أمن على دينه فيه ، ولو سافر ورجع ما لم ينزعه ، ولا يجوز السفر إلى أرض الشرك ، وهى الأرض التى سكنها المشركون وتغلبوا عليها ، وكان الحكم فيها إلا لقتالهم أو دعائهم ، ورخص بعضهم فيها مادام يأمن على إظهار دينه لما مر عن الحسن ، فلا تكون دار شرك ، ورخص بعض العمانيين مادام يتوصل إلى دينه سراً .

وعن الحسن ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم ، فمن ساكنهم أو جامعهم فأنا برىء منـــه » وبعث سرية إلى ناس فى خثعم كانوا فيهم ، أو لجئوا إليهم ، فلما رأوهم استعصوا السجود فقتل بعضهم ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أعطوهم نصف العقل إلا أنى برىء من كل مسلم مع مشرك فى داره » قيل : لِمَ يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ؟ قال : « لا ترى نارهما إلا عن حرب إلا صاحب جزية مقر بها » وعن بعضهم : إنه كان الرجل بين المشركين والمؤمنين يقول : أيهم ظفر كنت معه ، وإن قوله : « إلا تفعلوه تكن » الخ نزل فى ذلك ، وبه قال قتادة .

وقيل : نزل لما أمر بقتال المشركين كافة ، وكان قوم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش ، فإذا أرادهم رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم قالوا : تريد منا ونحن كافرون عنكم ، وقد نرى ناركم ، وكانت الجاهلية تعظم لحرمة الجوار إذا رأوا نارا فهم جيران لأهلها ، وإذا أرادهم المشركون قالوا : ما تريدون منّا ونحن على دينكم ، فنزل : « والذين كفروا بعضهم أوليـــاء بعض إلا تفعلوه تكن فتنـــة فى الأرض وفساد كبير » .

( وأولُوا الأرْحام بعْضهُم أولَى ببعْضٍ فى كِتابِ الله ) قال ابن عباس : هذه ناسخة للمواريث بالهجرة والمؤاخات ، والمراد أولى فى الإرث ، وكتاب الله حكمه ، وقيل: اللوح المحفوظ ، وقيل : القرآن ، فقال أبو حنيفة : أولوا الأرحام القرابة غير ذوى الفروض ، وذوى التعصيب ، كالخال والخالة ، والعمة وبنت البنت ، يرثون إذا لم يكن ذوو فرض ولا عاصب .

وقال الشافعى : أولوا الأرحام هم ذوى الفروض والتعصيب المذكورون فى النساء ، قال : وكتاب الله القرآن إشارة إلى آيات المواريث فى النساء ، وبه قال شيخه مالك ، وقالت فرقة : إن الأمر كما قال أبو حنيفة وأعم ، لكن نسخ بآيات المواريث ، ومن لم يورث ذوى الأرحام كالخال والخالة جعل المال لبيت المال ، وبه قال أهل المدينة ، وزيد بن ثابت .

ومذهبنا معشر الأباضية والجمهور توريثهم لهذه الآية ، ولتوريثه صلى الله عليه وسلم ذا رحم ممن لا فرض له منه ولا عصبة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « الخال وارث من لا وارث له » ولاجتماع سبب القرابة ، وسبب الإسلام فيهم ، فهم أولى ببيت المال ، وقضى بذلك عمر ، وابن مسعود رضى الله عنهما .

واختلفوا : فمنهم من يورثهم بالتنزيل وهو الأكثر ، ينزلون كل فرع منزلة أصله ، ويسمى هذا مذهب أهل التنزيل لذلك ، ومنهم من يورثهم بالقرابة وهو مذهب أبى حنيفة ، وهو مذهبنا يورثون الأقرب فالأقرب كالعصابة ، وسمى هذا المذهب مذهب أهل القرابة لذلك ، والأول أصح عند كثير وأولوا الأرحام أربعة أصناف :

الأول : بنو البنات ، وبنات بنى الابن ، وبنو بناته ونسولهم ، يقدم الأقرب منهم ، فيعطى المال كله على المختار عندنا ، كبنت بنت لها المال وحدها مع ابن بنت ابن ، وعلى التنزيل : فلها ثلاثة أرباع وله الربع.

الثانى : بنات الإخوة وبنــو الإخوة للأم وبنو الأخــوات ، يعطى الأقرب ، فإن استووا قدم من أدنى بشقيق ، وان استووا فسواء ، وعلى التنزيل : ينزل كل منزلة أبيه وأمه ، ويرفعون بطنا بطنا إلى الموروث ، ويقدم السابق ، وإن استووا أعطى كل ميراث من نسب إليه .

الثالث : الأجداد المحجوبون بأقرب ، والجدان السواقط بالسفلى المال لمن هو أقرب ، وإن استووا فلذى جهة الأب الثلثان للذى جهة الأم الثلث ، وعلى التنزيل : ينزل كل منزلة والداه ، ويقدم الأسبق .

الرابع : الأخوال والخالات ، والعمات ، فإذا اجتمعوا فالثلثان عند بعض العمات ، والثلث للأخوال والخالات ، ومحل ذلك كتب الميراث ، وهذه الأصناف على هذا الترتيب .

( إنّ اللهِ بكلٍّ شىءٍ عليمٌ ) من المواريث وغيرها كالحكمة فى تعليقها أولا بالهجرة والمؤاخات ، وثانيا بالقرابة .

بهذا تم القسم الأول من الجزء

السابع ، ويليه إن شاء الله

القسم الثانى وأوله :

تفسير ( سورة التوبة )

والله المعين وله الفضل والمنّة

مطابع سجل العرب